معاني القرآن وإعرابه

المسمّى

المختصر

في إعراب القرآن ومعانيه

تأليف

أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري

الزجاج البغدادي

المتوفى ٣١١هـ

علق عليه ووضع حواشيه

أحمد فتحي عبد الرحمن

قدم له

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن حجازي

عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر

الجزء الرابع

المحتوى :

من أول سورة سبأ - إلى آخر سورة الناس

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: **MAʿĀNI AL-QURʾĀN WAʾIʿRĀBUH**
(Grammatical analysis and The meaning of the verses of The Holy Coran)
classification: Sciences of Coran
Author: Abu Isḥāq al-Zajjāj
Editor: Aḥmad Fatḥi ʿAbdul-Raḥmān
Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages: 1528 (4 volumes)
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: معاني القرآن وإعرابه
التصنيف: علوم قرآن
المؤلف: أبو إسحاق الزجاج
المحقق: أحمد فتحي عبدالرحمن
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 1528 (4 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-5249-1 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5249-7 (13 dig)

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban
Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة،
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف:٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح -بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة سبأ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾:

والله المحمود في الدنيا والآخرة، وحمده في الآخرة يدل عليه قول أهل الجنة: ﴿الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: أورثنا أرض الجنة.

وقوله -تعالى-: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: ما يدخل في الأرض وما يخرج منها، ما يدخل في الأرض من قطرة وغيره، وما يخرج منها من زرع وغيره.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ ما يصعد فيها.

يقال: «عَرَجَ يَعْرُجُ» إذا صعد، و«الْمَعَارج» الدرج من هذا، ويقال: «عَرِج يَعْرَج» إذا صار ذا عرج، و«عَرَجَ يَعْرُجُ» إذا غمز من شيء أصابه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ الساعة: التي يبعث فيها الخلق.

المعنى: أنهم قالوا: لا نبعث فقال الله -تعالى-: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾

بالخفض في ﴿عَالِمِ﴾ صفة لله -عز وجل-، ويقرأ بالرفع من وجهين؛ أحدهما: الابتداء، ويكون المعنى: عالم الغيب لا يعزب عنه، ويكون ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ هو خبر ﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾ ويرفع على جهة المدح لله -عز وجل-.

المعنى: هو عالم الغيب ويجوز النصب ولم يقرأ به على معنى: اذكر عالم الغيب، ويقرأ: «علام الغيوب وعلام الغيب» جائز، ويقرأ «لا يعزِب عنه» بكسر الزاي، يقال: «عَزَب عني يَعْزُب ويعْزِب» إذا غاب.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللام دخلت جواباً لقوله: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ للمجازاة، أي: من أجل المجازاة بالثواب والعقاب.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ بيّن الله أن جزاءهم المغفرة وهي التغطية على الذنوب.

وقوله: - جل وعز -: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَجِّزِينَ﴾.

ويقرأ ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ و«مُعَاجَزِين» في معنى مسابقين، ومن قرأ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ فمعناه: إنهم يعجزون من آمن بها، ويكون في معنى مثبطين وهو معنى تعجيزهم من آمن بها.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِن رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ بالخفض نعت للرجز، «أليم» نعت للعذاب.

وقوله -تعالى-: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ﴾:

ههنا علماء اليهود الذين آمنوا بالنبي -عليه السلام-، منهم:كعب الأحبار وعبد الله بن سلام، أي: ولِيَرى.

موضع «يرى» عطف على قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾، و﴿الحَقَّ﴾ منصوب خبر لـ«يرى الذي»، و ﴿هُوَ﴾ ههنا فصل يدل على أن الذي بعدها ليس بنعت، ويسميه الكوفيون: «العماد»، ولا تدخل «هو» عماداً إلا في المعرفة وما أشبهها، وقد بينا ذلك فيما مضى. والرفع جائز في قوله: ﴿هُوَ الحَقَّ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾:

هذا قول المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، يقول بعضهم لبعض: هل ندلكم على محمد الذي يزعم أنكم مبعوثون بعد أن تكونوا عظاماً وتراباً ورفاتاً.

وفي هذه الآية نظر في العربية لطيف ونحن نشرحه إن شاء الله.

﴿إِذَا﴾ في موضع نصب بـ﴿مُزِّقْتُمْ﴾ ولا يكون العامل فيها ﴿جَدِيدٍ﴾ لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبلها.

والتأويل: هل ندلكم على رجل يقول لكم إنكم إذا مزقتم تبعثون، ويكون «إذا» بمنزلة «إن» الجزاء يعمل فيها الذي يليها، قال قيس بن الخطيم [من الطويل]:

إذا قَصُرَت أَسيافُنا كانَ وَصلُها   خُطانا إِلَى أَعدائِنا فَنُضارِبْ

المعنى: يكون وصلها، الدليل على ذلك جزم «فنضارب».

ويجوز أن يكون العامل في «إذا» مضمراً، يدل عليه ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ ويكون المعنى: هل ندلكم على رجل ينبئكم يقول لكم إذا مزقتم بعثتم، إنكم لفي خلق جديد، كما قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[الصافات: ١٦]. فـ«إذا» يجوز أن تكون منصوبة بفعل يدل عليه ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

ولا يجوز ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بالفتح[1]، لأن اللام إذا جاءت لم يجز إلا كسر ((إن)).

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي: ألم يتأملوا ويعلموا أن الذي خلق السماء والأرض قادر على أن يبعثهم وقادر أن يخسف بهم الأرض أو يسقط السماء عليهم كسفاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي: إن في ذلك علامة تدل من أناب إلى الله ورجع إليه وتأمل ما خلق على أنه قادر على أن يحيي الموتى.

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾:

المعنى: فقلنا يا جبال أوبي معه، وتقرأ: ((أُوبِي معه))، على معنى: عودي في التسبيح معه كلما عاد فيه، ومن قرأ ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ فمعناه: رجعي معه، يقال: ((آب يؤوب)) إذا رجع، ومعنى: ((رجعي معه)) سبحي معه ورجعي التسبيح معه.

((والطيرَ والطيرُ))، فالرفع من جهتين؛ إحداهما: أن يكون نسقاً على ما في: ﴿أَوِّبِي﴾؛ المعنى: يا جبال رجعي التسبيح أنت والطير.

ويجوز أن يكون مرفوعاً على البدل؛ المعنى: يا جبال ويا أيها الطير أوبي معه.

والنصب من ثلاث جهات؛ أن يكون عطفاً على قوله: ((ولقد آتينا داود منا فضلاً والطير))، أي: وسخرنا له الطير، حكى ذلك أبو عبيدة عن أبي عمرو بن علاء.

ويجوز أن يكون نصباً على النداء؛ المعنى: معطوفاً على موضع الجبال في الأصل. وكل منادى عند البصريين كلهم في موضع نصب، وقد شرحنا حال المضموم في النداء، وأن المعرفة مبني على الضم.

ويجوز أن يكون ((والطير)) نصب على معنى ((مع)) كما تقول: ((قمت وزيداً))، أي: قمت مع زيد، فالمعنى: أوبي معه ومع الطير.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾؛ أي: جعلناه ليناً.

وأول من عمل الدروع داود، وكان ما يتدرع به من الحديد إنما كان قطع حديد نحو هذه الجواشن.

و((أن)) ههنا، في تأويل التفسير كأنه قيل: وألنا له الحديد أن اعمل سابغات، بمعنى:

---

(١) فيقال: ((أَنَّكُمْ لَفِي)).

قلنا له: اعمل سابغات، وتصل «إن» بلفظ الأمر، ومثل هذا من الكلام: «أرسل إليه أن قم إلي» أي: قم إلى فلان، ويكون بمعنى أرسل إليه بأن يقوم إلى فلان.

ومعنى ﴿سَابِغَاتٍ﴾ دروع سابغات فذكر الصفة لأنها تدل على الموصوف، ومعنى السابغ: الذي يغطي كل شيء يكون عليه حتى يفضل.

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾:

السرد في اللغة: تقدمة شيء إلى شيء تأتي به منسقاً بعضه في بعض إثر بعض متتابعاً، فمنه: «سرد فلان الحديث».

وقيل في التفسير: «السرد»: السمر والستر والخلق، وقيل: هو أن لا يجعل المسمار غليظاً والثقب دقيقاً، ولا يجعل المسمار دقيقاً، والثقب واسعاً فيتقلقل وينخلع وينقصف، «قدر في ذلك» أي: اجعله على القصد وقدر الحاجة.

والذي جاء في التفسير غير خارج عن اللغة لأن السمر تقديم كطرف الحلقة إلى طرفها الآخر، وزعم سيبويه أن قول العرب: «رجل سَرَنْدِيّ» مشتق من «السرد»، وذلك أن معناه: الجريء، قال: و «الجريء»: الذي يمضي قدماً.

وتفسير: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ﴾ جعلناه ليناً كالخيوط يطاوعه حتى عمل الدروع.

وقوله -تعالى-: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ النصب في الريح هو الوجه وقراءة أكثر القراء، على معنى وسخرنا لسليمان الريح.

ويجوز الرفع «ولسليمان الريحُ غدوها شهر»، والرفع على معنى: ثبتت له الريح، وهو يؤول في المعنى إلى معنى: سخرنا الريح، كما أنك إذا قلت: لله الحمد فتأويله: استقر لله الحمد، وهو يرجع إلى معنى أحمد الله الحمد.

وقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: غدوها مسيرة شهر، وكذلك رواحها.

وكان سليمان يجلس على سريره هو وأصحابه فتسير بهم الريح بالغداة مسيرة شهر، وتسير بالعشي مسيرة شهر.

﴿وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ موضع «مِن» نصب.

المعنى: سخرنا له من الجن من يعمل، ويجوز أن يكون موضع «من» رفعاً، ويكون المعنى: فيما أعطيناه من الجن ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بأمر ربه.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: من يعدل.

ثم بين ما كانوا يعملون بين يديه فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾؛ المحراب: الذي يصلي فيه، وأشرف موضع في الدار وفي البيت يقال له: «المحراب».

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ﴾ أكثر القراء على الوقف بغير ياء، وكان الأصل الوقف بالياء إلا أن الكسرة تنوب عنها، وكانت بغير ألف ولام الوقف عليها بغير ياء تقول: «هذه جواب»، فأدخلت الألف واللام وترك الكلام على ما كان عليه قبل دخولهما.

والجوابي: جمع جابية، والجابية: الحوض الكبير قال الأعشى:

* كجابِيَة الشيخ العِراقيّ تَفْهَقُ *

أن يعملون له جفانه كالحياض العظام التي يجمع فيها الماء.

﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾: ثابتات.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ «شكراً» منتصب على وجهين؛ أحدهما: اعملوا للشكر، أي: اشكروا الله على ما آتاكم. ويكون ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ على معنى: اشكروا شكراً.

وقوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾.

المنسأة: العصا، وإنما سميت «منسأة» لأنها ينسأ بها، ومعنى ينسأ بها يطرد بها ويؤخر بها.

فلما توفي سليمان توفي وهو متكئ عليها على عصاه فلم يعلم الجن بموته حتى أكلت الأرضة العصا، حتى خر.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ﴾ موته.

المعنى: ﴿أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾؛ المعنى: لأنهم لو كانوا يعلمون ما غاب عنهم ما عملوا مسخرين، إنما عملوا وهم يظنون أنه حي يقف على عملهم.

وقال بعضهم: تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب، ويجوز أن يكون: تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب، والجن تتبين أنها لا تعلم الغيب، فكانت توهم أنها تعلم الغيب فتبينت أنه قد بان للناس أنها لا تعلم، كما تقول للذي يدعي عندك الباطل إذا تبينت له: «قد بينت أن الذي يقول باطل»، وهو لم يزل يعلم ذلك، ولكنك أردت أن توبخه وأن تعلمه أنك قد علمت بطلان قوله.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾؛ ويقرأ «مَسْكَنِهم» بفتح الكاف وكسرها، ويقرأ «مَسَاكِنِهم» ويقرأ «لِسَبأَ» بالفتح وترك الصرف، و«لِسَبَإٍ».

فمن فتح وترك الصرف فلأنه جعل «سبأ» اسم قبيلة، ومن صرف وكسر ونون جعل «سبأ» اسماً للرجل واسماً للحي وكل جائز حسن.

﴿آيَةٌ جَنَّتَانِ﴾؛ «آية» رفع اسم «كان»، وجنتان: رفع على نوعين؛ على أنه بدل من آية، وعلى إضمار كأنه لما قيل: آية، قيل: الآية جنتان.

والجنتان البستانان، فكان لهم بستانان، بستان يمنة، وبستان يسرة.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾؛ المعنى: قيل لهم: كلوا من رزق ربكم واشكروا له.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾؛ على معنى: هذه بلدة طيبة.

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ على معنى: والله رب غفور.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾؛ المعنى: أعرضوا عن أمر الله.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ﴾. والعرم: فيه أقوال:

قال أبو عبيدة جمع «عَرِمة»، وهي السكر والمسنَّاة. وقيل: ﴿العَرِمِ﴾ اسم الوادي. وقيل: ﴿العَرِمِ﴾ ههنا اسم الجُرَذ الذي ثقب السكر عليهم، وهو الذي يقال له: الخُلْد. وقيل: ﴿العَرِمِ﴾ المطر الشديد.

وكانوا في نعمة وكانت لهم جنان يمنة ويسرة، وكانت المرأة تخرج على رأسها الزبيل فتعمل بيديها وتسير بين ذلك الشجر فيسقط في زبيلها ما تحتاج إليه من ثمار ذلك الشجر، فلم يشكروا، فبعث الله عليهم جُرَذاً، وكان لهم سَكْرٌ فيه أبواب، يفتحون ما يحتاجون إليه من الماء، فثقب ذلك الجرذ حتى نقب عليهم فغرق تينك الجنتين.

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾؛ أي: بهاتين الجنتين الموصوفتين.

﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ و«أُكْل خمط» الضم والإسكان في الكاف جائزان، ويقرأ: «ذواتَيْ أُكْلٍ خمط، وذواتي أُكْلِ خمطٍ».

ومعنى ﴿خَمْطٍ﴾: يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط.

وفي كتاب الخليل: «الخمط»: شجر الأراك.

وقد جاء في التفسير: أن الخمط الأراك وأكله ثمره، قال الله -عز وجل-: ﴿تُؤْتِي

أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[إبراهيم: ٢٥].

﴿**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا**﴾؛ «ذلك» في موضع نصب؛ المعنى: جزيناهم ذلك بكفرهم.

﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ**﴾؛ وتقرأ: «وهل يجازى»، ويجوز: «وهل يجازى إلا الكفور».

وهذا مما يسأل عنه؛ يقال: الله -عز وجل- يجازي الكفور وغير الكفور؟

والمعنى في هذه الآية أن المؤمن تكفر عنه السيئات، والكافر يحبط عمله فيجازى بكل سوء يعمله قال الله -عز وجل-: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾[محمد: ١] وقال: ﴿**ذَلِكَ بأنهم اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾[محمد: ٢٨] فأعلم -جل وعز- أنه يحبط عمل الكافر، وأعلمنا أن الحسنات يذهبن السيئات، وأن المؤمن تكفر عنه سيئاته حسناته.

وقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً**﴾.

هذا عطف على قوله: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ**﴾ ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً**﴾.

فكانوا لا يحتاجون من وادي سبأ إلى الشام إلى زَاد، وقيل: القرى التي باركنا فيها بيت المقدس، وقيل: أيضاً الشام، فكانت القرى إلى كل هذه المواضع من وادي سبأ متصلة.

﴿**وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ**﴾؛ جعلنا مسيرهم بمقدار حيث أرادوا أن يقيموا حلوا بقرية آمنين.

﴿**فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾.

ويقرأ ﴿**رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾، ويقرأ «ربنا بَعَّدَ بين أسفارنا»، ويقرأ: «رَبَّنَا» بالنصب «بَعُدَ بينُ أسفارنا» برفع «بين»، ويقرأ: «بَيْن أسفارنا»، ويقرأ: «رَبُّنا بَاعَدَ بين أسفارنا».

﴿**وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ**﴾؛ فمن قرأ «بَعُدَ بينُ أسفارنا» برفع بين، فالمعنى: بَعُد ما يتصل بسفرنا، ومن قرأ: «بعد بين أسفارنا» فالمعنى: بَعُد ما بين أسفارنا، وبَعُد سيرنا بين أسفارنا، ومن قرأ: «بَاعِد» فعلى وجه المسألة، ويكون المعنى: إنهم سئموا الراحة وبطروا النعمة، كما قال قوم موسى: ﴿**فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا**

وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٦١].

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: فرقناهم في البلاد لأنهم لما أذهب الله بجنتيهم وغرق مكانهم تبددوا في البلاد، فصارت العرب تتمثل بهم في الفرقة فتقول: «تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ» قال الشاعر:

* مِنْ صَادِرٍ أَوْ وَارِدٍ أيدي سَبَإ *

وقال كثير [من الطويل]:

أَيادي سبا يا عَزَّ ما كُنتُ بَعدَكُم فَلَم يَحلُ لِلعَينَينِ بَعدَكِ منظَرُ

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويقرأ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ برفع «إبليس» ونصب «الظن».

وصدقه في ظنه: أنه ظن بهم إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك فقال: «وعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين».

فمن قال " ﴿صَدَّقَ﴾ نصب الظن لأنه مفعول به، ومن خفف فقال: ﴿صَدَقَ﴾ نصب الظن مصدراً على معنى: صدق عليهم إبليس ظناً ظنه، وصدق في ظنه.

وفيها وجهان آخران؛ أحدهما: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، ظنه بدل من إبليس، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٧]، ويجوز: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، على معنى: صدق ظن إبليس باتباعهم إياه وقد قرئ بهما.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِن سُلْطَانٍ﴾.

أي: ما كان له عليهم من حجة كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر: ٤٢].

﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾.

أي: إلا لنعلم ذلك علم وقوعه منهم، وهو الذي يجازون عليه، والله يعلم الغيب، ويعلم من يؤمن ممن يكفر قبل أن يؤمن المؤمن ويكفر الكافر، ولكن ذلك لا يوجب ثواباً ولا عقاباً، إنما يثابون ويعاقبون بما كانوا عاملين.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ﴾؛ يعني: إن الذين يزعمون أنهم شركاء الله من الملائكة وغيرهم لا شريك له منهم ولا معين لله -عز وجل- فيما خلق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾؛ بضم الهمزة وفتحها.

ويكون المعنى: لمن أذن له، أي: لمن أذن الله له أن يشفع، ويجوز: «إلا لمن أذن أن يشفع له» فيكون «مَن» للشافعين، ويجوز أن يكون للمشفوع لهم. والأجود أن يكون للشافعين، لقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

لأن الذين فزع عن قلوبهم ههنا الملائكة، وتقرأ «حتى إذا فَزع عن قلوبهم» بفتح الفاء، وقرأ الحسن: «حتى إذا فرغ عن قلوبهم» بالراء غير المعجمة وبالغين المعجمة.

ومعنى «فُزّع»: كُشف الفزع عن قلوبهم، و«فَزّع عن قلوبهم» كشف الله الفزع عن قلوبهم، وقراءة الحسن، «فرغ» ترجع إلى هذا المعنى؛ لأنها: فَرِغت من الفزع.

وتفسير هذا: أن جبريل -عليه السلام- كان لما نزل على محمد -عليه السلام- الوحي ظنت الملائكة أنه نزل لشيء من أمر الساعة فتفزعت لذلك، فلما انكشف عنها الفزع: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فسألت لأي شيء ينزل جبريل.

﴿قَالُوا الحَقَّ﴾؛ أي: قالوا قال الحق، ولو قرئت: «قالوا الحقُّ» لكان وجهاً؛ يكون المعنى: قالوا هو الحق.

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

روي في التفسير: أن المعنى: وإنا لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين، وهذا في اللغة غير جائز، ولكنه في التفسير يؤول إلى هذا المعنى: وإنا لعلى هدى أو في ضلال مبين، أو إنكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، أو إنكم لعلى هدى أو في ضلال مبين. فهذا كما يقول القائل: إذا كانت الحال تدل على أنه صادق أحدنا صادق، وأحدنا كاذب؛ والمعنى: أحدنا صادق أو كاذب.

ويؤول معنى الآية إلى: إنا لما أقمنا من البرهان لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾؛ معنى ﴿يَفْتَحُ﴾: يحكم، وكذلك «الفتاح»: الحاكم.

وقوله -جل وعز -: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾.

المعنى: ألحقتموهم به، ولكنه حذف لأنه في صلة «الذين».

وقوله: ﴿كَلا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ معنى «كلا» ردع وتنبيه.

المعنى: ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالتكم، بل هو الله الواحد الذي ليس كمثله شيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ معنى ﴿كَافَّةً﴾

الإحاطة في اللغة.

والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فأرسل الله النبي -عليه السلام- إلى العرب والعجم، وقال: «**أنا سابق العرب إلى الإسلام، وصهيب سابق الروم وبلال سابق الحبشة وسلمان سابق الفرس**»، أي: الرسالة عامة، والسابقون من العجم هؤلاء.

وقوله: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا القرآن وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾:

يعنون لا نؤمن بما أتى به محمد -عليه السلام- ولا بالكتب المتقدمة.

وقوله: ﴿**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾؛ معناه: بل مكركم في الليل والنهار.

﴿**وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا**﴾: أشباهاً.

﴿**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ**﴾؛ أسروها بينهم. أقبل بعضهم يلوم بعضاً، ويعرف بعضهم بعضاً الندامة.

﴿**إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا**﴾؛ «مترفوها» أولو الترفة وهم رؤساؤها وقادة الشر ويتبعهم السفلة.

وقوله -عز وجل-: ﴿**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى**﴾.

ولم يقل: «باللتين» ولا «باللذين» ولا «باللاتي»، وكل ذلك جائز، ولكن الذي في المصحف «التي».

والمعنى: وما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم ولكنه حذف اختصاراً وإيجازاً، وقد شرحنا مثل هذا.

وقوله: ﴿**إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾؛ موضع «مَن» نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم، على معنى: ما يقرب إلا من آمن وعمل صالحاً، أي: ما تقرب الأموال إلا من آمن وعمل بها في طاعة الله.

﴿**فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا**﴾؛ الضعف ههنا يحتاج إلى تفسير ولا أعلم أحداً فسره تفسيراً بيناً.

وجزاء الضعف ههنا عشر حسنات، تأويله: فأولئك لهم جزاء الضعف الذي أعلمناكم مقداره، وهو قوله: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾[الأنعام: ١٦٠] وفيه أوجه في العربية:

فالذي قرىء به خفض «الضعف» بإضافة الجزاء إليه، ويجوز: «فأولئك لهم جزاء

الضعف»، على معنى فأولئك لهم الضعف جزاء؛ المعنى: في حال المجازاة، ويجوز: «فأولئك لهم جزاء الضعف» على نصب «الضعف»؛ المعنى: فأولئك لهم أن نجازيهم الضعف.

ويجوز رفع «الضعف» من جهتين على معنى فأولئك لهم الضعف على أن الضعف بدل من الجزاء فيكون مرفوعاً على إضمار «هو»، فأولئك لهم جزاء، كأنه قال: ما هو؟ فقال: الضعف.

ويجوز النصب في الضعف على مفعول ما لم يسم فاعله على معنى فأولئك لهم أن يجازوا الضعف.

والقراءة من هذه الأوجه كلها خفض «الضعف» ورفع «جزاء».

وقوله جل وعز: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَذِيرٍ﴾:

يعنى به مشركو العرب بمكة لم يكونوا أصحاب كتب ولا بعث إليهم بنبي قبل محمد -عليه السلام-.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: عشر الذي آتينا من قبلهم من القوة والقدرة.

﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ حذفت الياء.

المعنى: كان نكيري، لأنه آخر آية.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: أعظكم بأن توحدوا الله وأن تقولوا: «لا اله إلا الله مخلصين».

وقد قيل: «واحدة» في الطاعة، والطاعة: تتضمن التوحيد والإخلاص؛ المعنى: فأنا أعظكم بهذه الخصلة الواحدة ﴿أَن تَقُومُوا﴾ أي: لأن تقوموا.

﴿أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى﴾؛ أي: أعظكم بطاعة الله لأن تقوموا لله منفردين ومجتمعين.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ﴾.

المعنى: ثم تتفكروا فتعلموا أن النبي -عليه السلام- ما هو بمجنون كما تقولون، والجنة: الجنون.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ينذركم أنكم إن عصيتم لقيتم

عذاباً شديداً.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾؛ معناه: ما سألتكم من أجر على الرسالة أؤديها إليكم، والقرآن الذي آتيتكم به من عند الله، - فهو لكم.

وتأويله: إني إنما أنذركم وأبلغكم الرسالة ولست أَجرُ إلى نفسي عرضاً من أعراض الدنيا.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: إنما أطلب ثواب الله بتأدية الرسالة.

والياء في ﴿أَجْرِيَ﴾ مسكنة ومفتوحة والأجود الفتح، لأنها اسم فيبنى على الفتح.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ بكسر الغين، ويجوز علام الغيوب بالنصب.

فمن نصب «فعلام الغيوب» صفة لربي؛ المعنى: قل إن ربي علام الغيوب يقذف بالحق، ومن رفع «علام الغيوب» فعلى وجهين:

أحدهما: أن يكون صفة على موضع إن ربي، لأن تأويله: قل ربي علام الغيوب يقذف بالحق، و «إن» مؤكدة.

ويجوز الرفع على البدل مما في تقذف؛ المعنى: قل إن ربي يقذف هو بالحق علام الغيوب.

ومعنى ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يأتي بالحق ويرمي بالحق، كما قال -جل وعز -: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[الأنبياء: ١٨].

وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ أي: قل جاء أمر الله الذي هو الحق، وما يبدئ الباطل.

«ما» في موضع نصب على معنى: وأي شيء يبدئ الباطل وأي شيء يعيد، والأجود: أن يكون «ما» نفياً على معنى: ما يبدئ الباطل وما يعيد، والباطل ههنا إبليس.

المعنى: وما يعيد إبليس وما يفيد، أي: لا يخلق ولا يبعث، والله -عز وجل- الخالق والباعث.

ويجوز أن يكون الباطل صاحب الباطل وهو إبليس.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ﴾؛ هذا في وقت بعثهم.

وقوله: ﴿فَلاَ فَوْتَ﴾ أي: فلا فوت لهم، لا يمكنهم أن يفوتوا.

﴿وَأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ في التفسير: من تحت أقدامهم.

ويجوز: «فلا فوتٌ»، ولا أعلم أحداً قرأ بها فإن لم تثبت بها رواية فلا تقرأن بها، فإن القراءة سنة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا﴾، في الوقت الذي قال الله -جل وعلا- فيه: ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾[الأنعام: ١٥٨].

والتناوش: التناول، أي: فكيف لهم أن يتناولوا ما كان مبذولاً لهم وكان قريباً منهم، فكيف يتناولونه حين بعد عنهم.

ومن همز فقال: «التنأوش»، فلأن واو التناوش مضمومة، وكل واو مضمومة ضمتها لازمة، إن شئت قلت: «ادؤر وتقاؤم» فهمزت، ويجوز أن يكون «التناؤش»: من النئيش، وهي الحركة في إبطاء، فالمعنى: من أين لهم أن يتحركوا فيما لا حيلة لهم فيه.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: كانوا يرجمون ويرمون بالغيب، وترجيمهم أنهم كانوا يظنون أنهم لا يبعثون.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ المعنى: من الرجوع إلى الدنيا، والإيمان.

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِن قَبْلُ﴾؛ أي: بمن كان مذهبه مذهبهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾. فقد أعلمنا الله جل وعز أنه يعذب على الشك.

وقد قال قوم من الضُّلال: أن الشاكين لا شيء عليهم، وهذا كفر ونقض للقرآن لأن الله -جل وعز- قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[ص: ٢٧].

سورة الملائكة

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

قال ابن عباس رحمه الله: ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى اختصم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما: «أنا فطرتها»، أي: ابتدأتها.

وقيل: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالق السماوات والأرض.

ويجوز: «فاطرَ وفاطرُ» بالرفع والنصب، والقراءة على خفض فاطر، وكذلك ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾.

معنى ﴿أُولِي﴾ أصحاب أجنحة، ﴿وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ في موضع خفض.

وكذلك ﴿مَثْنَى﴾ إلا أنه فتح ثلاث ورباع لأنه لا يتصرف لعلتين؛ إحداهما: أنه معدول عن ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة واثنين اثنين، فهذه علة. والعلة الثانية: أن عدوله وقع في حال النكرة قال الشاعر[1] [من الطويل]:

وَلكنَّما أَهـلي بِوادٍ أَنيسُهُ سِباعٌ تَبَغّى النّاسَ مَثنى وَمَوحَدا

وقوله -عز وجل-: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾؛ يعني في خلق الملائكة، والرسل من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾.

﴿يَفْتَحِ﴾ في موضع جزم على معنى الشرط والجزاء، وجواب الجزاء ﴿فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾. ولو كان «فلا ممسك له لجاز» لأن «ما» في لفظ تذكير، ولكنه لما جرى ذكر الرحمة كان فلا ممسك لها أحسن، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

ومعنى ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ﴾ أي: ما يأتيهم به من مطر ورزق فلا يقدر أحد أن يمسكه، وما يمسك الله من ذلك فلا يقدر قادر أن يرسله، ويجوز ولا أعلم أحداً قرأ به: «ما يفتحُ الله للناس من رحمة وما يمسكُ» برفعهما على معنى: الذي يفتحه الله للناس من رحمة فلا

(١) هو: ساعدة الهذلي.

ممسك لها، والذي يمسك فلا مرسل له، ويجوز: «فلا ممسكٌ لها» بالتنوين ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾، ولا أعلم أحداً قرأ بها فلا تقرأن بما لم تثبت فيه رواية، وإن جاء في العربية لأن القراءة سنة.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ هذا ذكر بعد قوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾ فأكد ذلك بأن جعل السؤال لهم ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

قرئت: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾ بالرفع، على رفع ﴿غَيْرُ﴾؛ المعنى: هل خالق غير الله لأن «مِن» مؤكدة وقد قرىء بهما جميعاً غير واحد.

وفيها وجه آخر يجوز في العربية نصب «غير»: «هل من خالق غيرَ الله يرزقكم»، ويكون النصب على الاستثناء، كأنه قال: هل من خالق إلا الله يرزقكم.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: من أين يقع لكم الفك والتكذيب بتوحيد الله وإنكار البعث.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ﴾ هذا تَأَسٍّ للنبي -عليه السلام- أعلمه الله أنه قد كذبت رسل من قبله، وأعلمه أنه نصرهم فقال -جل وعز- ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[الأنعام: ٣٤].

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ و«تَرْجِع الأمور».

المعنى: الأمر راجع إلى الله في مجازاة من كذب، ونصرة من كذب من رسله.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ما وعدكم الله من مجازاة فحق.

﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: وإن كان لكم حظ في الدنيا يغض من دينك، فلا تؤثروا ذلك الحظ.

﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ والغرور: الشيطان، ويقرأ: «الغُرور» بضم الغين، وهي الأباطيل ويجوز أن تكون ﴿الغَرُورُ﴾ جمع: «غار وغرور»، مثل: «قاعد وقعود»، ويجوز: أن يكون جمع «غر» مصدر: «غَرَرته غراً»، فإما أن يكون مصدر: «غَرَرته غُروراً» فبعيد. لأن المتعدية لا تكاد تقع مصادرها على فعول، وقد جاء بعضها على فعول نحو: «لزمته لزوماً»، و«نهكه المرض نهوكاً» فيجوز: «غَرَرته غُروراً» على ذلك.

وقوله -تعالى-: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾؛ الجواب ههنا على ضربين:

أحدهما: يدل على ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ ويكون: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فأضله الله ذهبت نفسك عليه حسرة، ويكون ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ يدل عليه، وقد قرئت: «فلا تُذهبْ نفسك» بضم التاء وجزم الباء ونصب النفس.

ويجوز أن يكون الجواب محذوفاً ويكون المعنى: أفمن زين له سوء عمله كمن تعداه الله، ويكون دليله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

وقوله: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ و«مَيْت».

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي: ننشيء.

المعنى: مثل ذلك، أي: مثل إحياء الأرض وكذلك بعثكم.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي: من كان يريد بعبادته غير الله العزة فلله العزة جميعاً، أي: في حال اجتماعها، أي: يجتمع له في الدنيا والآخرة.

ثم بين كيف يعز بالله فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. أي: إليه يصل الكلم الذي هو توحيد الله، وهو قوله: «لا إله إلا الله» والعمل الصالح يرفعه.

المعنى: إذا وحد الله وعجل بطاعته ارتفع ذلك إلى الله -عز وجل- يرتفع إليه كل شيء ويعلم كل شيء، ولكن المعنى فيه ههنا: العمل الصالح هو الذي يرفع ذكر التوحيد حتى يكون مثبتاً للموحد حقيقة التوحيد.

والضمير في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ لله -عز وجل-.

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ المعنى: مكر الذين يمكروا بالنبي -عليه السلام-.

﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يفسد، وقد بيّن ما مكرهم في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ففسد جميع مكرهم فجعل الله كلمة نبيه وأوليائه العليا، وأيديهم العالية بالنصر والحجة.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ وقرئت ينقص، ويجوز «وما نعمر من معمر ولا ننقص» بالنون جميعاً ولكنه لم يقرأ بها فيما بلغني، فلا تقرأن بها.

وتأويل الآية: أن الله -جل وعز- قد كتب عمر كل معمر وكتب: يعمر كذا وكذا سنة وكذا وكذا شهراً، وكذا وكذا يوماً، وكذا وكذا ساعة، فكل ما ينقص من عمره من سنة أو شهر أو يوم أو ساعة كتب ذلك حتى يبلغ أجله.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ الفرات المبالغ في العذوبة.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ الأجاج: الشديد المرارة، والأجاج أيضاً الشديد الحرارة.

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾:

وإنما تستخرج الحلية من الملح دون العذب، إلا أنهما لما كانا مختلطين العذب والملح، جاز أن يقال تستخرجون الحلية، وهي اللؤلؤ والمرجان وما أشبه ذلك منهما كما قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[الرحمن: ٢٢].

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ المعنى: في مواخر تشق الماء.

وجاء في التفسير: إنها تصاعد وتنحدر في البحر بريح واحدة. والفلك: جمع «فُلْكٍ» لفظ الواحد كلفظ الجمع، لأن «فعلان» جمع فعل نحو: أَسَد وأُسْد، ووثَنٍ ووُثْن، فكذلك جمع «فُعْل» لأنهما أختان في الجمع، تقول: «جبل وأجبال، وقفل وأقفال»، وكذلك: «أسد وآساد».

وفُلْك: للواحد، وفَلَك: للجماعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ وهي لفافة النواة.

والنقير: النقرة في ظهر النواة، والفتيل: الذي في وسط النواة.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾؛ المعنى: يقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، فيكفرون بعبادتكم إياهم.

﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وهو الله، لأن ما أنبأ الله به مما يكون فهو وحده يخبره، لا يشركه فيه أحد.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا﴾؛ المعنى: إن تدع نفس مثقلة بالذنوب إلى حملها إلى ذنوبها، لا يحمل من ذنوبها شيء.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان الذي تدعوه ذا قربى مثل الأب والابن ومن أشبه هؤلاء.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾:

فتأويل ﴿تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾: وهو النبي -عليه السلام- تنذر الخلق أجمعين.

والمعنى ههنا: إن إنذارك ينفع الذين يخشون ربهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ﴾؛ هذا مثل ضربه الله للمؤمنين والكافرين.

المعنى: لا يستوي الأعمى عن الحق وهو الكافر، والبصير بالحق وهو المؤمن الذي يبصر رشده.

﴿وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ﴾؛ ﴿الظُّلُمَاتُ﴾ الضلالات، و﴿النُّورُ﴾ الهدى.

﴿وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ﴾؛ المعنى: لا يستوي أصحاب الحق الذين هم في ظل من الحق، ولا أصحاب الباطل الذين هم حرور أي: في حر دائم ليلاً ونهاراً.

والحرور: استيقاد الحر ولفحه بالنهار وبالليل، والسموم لا يكون إلا بالنهار.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾؛ الأحياء: هم المؤمنون، والأموات: الكافرون، ودليل ذلك قوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[النحل: ٢١].

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾:

قال عمر بن الخطاب -رحمه الله- يرفعه: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له».

والآية تدل على أن المؤمنين مغفور لهم، لمقتصدهم الظالم لنفسه منهم بعد صحة العقد.

وجاء في التفسير: أن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ﴾ الكافر وهو قول ابن عباس.

وقد روي عن الحسن: أنه المنافق، واللفظ يدل على ما قاله عمر عن النبي -عليه السلام- أكثر المفسرين، لأن قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ يدل على أن جملة المصطفين هؤلاء، وقال الله -عز وجل- ﴿قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾[النمل: ٥٩].

﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾؛ ﴿جُدَدٌ﴾ جمع: «جدة»، وهي الخطة والطريقة، قال امرؤ القيس [من الطويل]:

كَأَنَّ سُراتَهُ وَجُدَّةَ ظَهرِهِ كَنائِنُ يَجري بَينَهُنَّ دَليصُ

«جُدَّةُ متنه» الخطة السوداء التي تراها في ظهر حمار الوحش، وكل طريقة جادة وجُدَّة.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: من الجبال غرابيب وهي «الحِرَار»، الجبال التي هي ذات صخور سود والغربيب الشديد السواد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾؛ المعنى: وفيما خلقنا مختلف ألوانه، ومن الناس والدواب والأنعام كذلك أي: كاختلاف الثمرات والجبال.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: من كان عالماً بالله اشتدت خشيته له.

وجاء في التفسير: كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار بالله جهلاً.

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَن تَبُورَ﴾ أي: لن تفسد ولن تكسد.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾؛ غفور لذنوبهم شكور لحسناتهم.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾؛ فيها وجهان:

أحدهما: يحلون فيها من أساور من ذهب ومن لؤلؤ، ويجوز «ولؤلؤاً» على معنى يحلون أساور، لأن معنى ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ كمعنى أساور.

والتفسير على الخفض أكثر، على معنى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ.

وجاء في التفسير: أن الذهب في صفاء اللؤلؤ، كما قال -عز وجل-: ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾[الإنسان: ١٦] أي: هي قوارير ولكن بياضها كبياض الفضة والفضة أصله.

ويجوز أن يكون ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ من ذهب، ويحلون من لؤلؤ، ويجوز على معنى: ويحلون لؤبؤاً.

وأساور: جمع «أسورة»، و«أساور» وواحدها: «سِوَار»، والأَسْوَار من أَساوِرَةِ الفرس وهو الجيد الرمي بالسهام.

قال الشاعر[1]:

وَوَتَّرَ الأَساوِرُ القِياسا   صُغْدِيَّةً تَنتزِعُ الأَنْفاسا

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ ويجوز: «الحُزْن» مثل: «الرَّشَد والرُّشْد، والعَرَب والعُرْب».

ومعنى ﴿أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ أذهب عنا كل ما يحزن، ومن حُزْن في مقاسٍ أو حُزْن

(١) هو: القلاخ بن حزن النقري.

لعذاب، أو حُزْن للموت، وقد ذهب الله عن أهل الجنة كل حزن.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ مثل: الإقامة.

تقول: «أَقَمت بالمكان إِقَامة ومَقامة ومَقَاماً» أي: أحلنا دار الخلود من فضله، أي: ذلك بتفضله لا بأعمالنا.

﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾: أي: تعب.

﴿وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾؛ واللغوب: الإعياء من التعب.

وقد قرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «لَغوب» بفتح اللام والضم أكثر، ومعنى ﴿لُغُوبٌ﴾ شيء يلغب منه، أي: لا نتكلف شيئاً نعيا منه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾:

﴿فَيَمُوتُوا﴾ نصب، وعلامة النصب سقوط النون، وهو جواب النفي، والمعنى: لا يقضي عليهم الموت فيموتوا.

﴿وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِنْ عَذَابِهَا﴾ أي: من عذاب نار جهنم.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ و﴿يُجْزَى كُلَّ كَفُورٍ﴾، فيها وجه ثالث: «كذلك يجزي كل كفور» أي: كذلك يجزي الله؛ المعنى: مثل ذلك الجزاء ذكرنا، ولا أعلم أحداً قرأ بها، أعني «يجزي» بالياء وفتحها.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾: يستغيثون ربنا أخرجنا.

المعنى: يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ المعنى: أن تخرجنا نعمل صالحاً، فوبخهم الله فقال: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ معناه: أو لم نعمركم العمر الذي يتذكر فيه من تذكر.

وجاء في التفسير: لقد أعذر الله إلى عبد عمره ستين سنة، ويقال: من الستين إلى السبعين.

وقد جاء في التفسير: أنه يدخل فيها ابن سبع عشر سنة، وقد قيل: أربعين.

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعني النبي -عليه السلام- وقيل: الشيب.

والقول الأول إن النبي -عليه السلام- النذير أكثر التفسير عليه، وقد قيل: الأربعين.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ القراءة الكثيرة بالخفض ويجوز: «عالم غيب السماوات» على معنى «يعلم»، و«عالم غيب» على معنى قد علم ذلك.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾؛ ﴿خَلائِفَ﴾: جمع خليفة.

المعنى: جعلكم أمة خلفت من قبلها، ورأت وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن يعتبر به.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾؛ المعنى: فعليه جزاء كفره.

﴿وَلاَ يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً﴾ المقت: أشد الإبغاض.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ معناه: قل أخبروني عن شركائكم.

﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾؛ المعنى: بأي شيء أوجبتم لهم شركة الله، أبخلق خلقوه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً﴾ أي: أم أعطيناهم كتاباً بما يدعونه من الشركة.

﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ ويقرأ: «ببينات».

﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً﴾ والغرور: الأباطيل التي تغر.

ومعنى ﴿إِن يَعِدُ﴾: ما يعد، ﴿بَعْضُهُم﴾ بدل من ﴿الظَّالِمُونَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾؛ معنى ﴿يُمْسِكُ﴾ يمنع السماوات والأرض من أن تزولا.

ولما قالت النصارى المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله كادت السماوات يتفطرن منه، وكادت الجبال تزول، وكادت الأرض تنشق، قال الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً﴾[مريم: ٨٨ - ٩٠]، فأمسكها الله.

وقال ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾: لأن الأرض تدل على الأرضين.

﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يحتمل هذا -والله أعلم- وجهين من الجواب:

أحدهما: زوالهما في القيامة قال الله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾[التكوير: ١١]، ويحتمل أن يقال: إن زالتا وهما لا يزولان.

وقوله في هذا الموضع: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾:

فإن قوماً سألوا فقالوا: لم كان في هذا الموضع ذكر الحلم والمغفرة وهذا موضع يدل على القدرة؟

فالجواب في هذا: أنه لما أمسك السماوات والأرض عند قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ حلم فلم يعجل لهم بالعقوبة وأمسك السماوات والأرض أن تزولا من عظم فريتهم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعنى المشركين.

وكانوا حلفوا واجتهدوا لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، أي: من اليهود والنصارى وغيرهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ وهو محمد -عليه السلام-.

﴿مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾؛ إلا أن نفروا عن الحق.

﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ﴾ «استكباراً» نصب، مفعول له؛ المعنى: ما زادهم إلا أن نفروا للاستكبار.

﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾؛ أي: ومكر الشرك.

﴿وَلاَ يَحِيقُ﴾: يحيط، وقرأ حمزة: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئْ﴾ على الوقف، وهذا عند النحويين الحذاق لحن، ولا يجوز، وإنما يجوز مثله في الشعر في اللاضطرار قال الشاعر [من الرجز]:

إذا اعْوَجَجْنَ قُلْتُ صاحِبْ قَوِّمِ

والأصل: «يا صاحب قوم»، ولكنه حذف مضطراً. وكأن الضم بعد الكسر والكسر بعد الكسر يستثقل. وأنشدوا أيضاً [من السريع]:

فاليومَ أشرَبْ غيرَ مُستَحقِبٍ   إثماً منَ اللهِ ولا واغلِ[(١)]

وهذان البيتان قد أنشدهما جميع النحويين المذكورين وزعموا كلهم أن هذا من الاضطرار في الشعر ولا يجوز مثله في كتاب الله وأنشدناهم أبو عباس محمد بن يزيد -رحمه الله-:

إذا اعْوَجَجْنَ قُلْتُ صاحِ قَوِّمِ

وهذا جيد بالغ، وأنشدنا:

فاليومَ فَأشرَبْ غيرَ مُستَحقِبٍ

(١) البيت لامرئ القيس.

وأما ما يروى عن أبي عمرو بن العلاء في قراءته: «إلى بَارِئْكم» فإنما هو أن يختلس الكسر اختلاساً، ولا يجزم «بارئكم»، وهذا أعني جزم «بارئكم» إنما رواه عن أبي عمرو من لا يضبط النحو كضبط سيبويه والخليل، ورواه سيبويه باختلاس الكسر، كأنه تقلل صوته عند الكسرة.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأولين﴾؛ معناه: فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم.

والمعنى: فهل ينتظرون إلا أن ينزل بهم من العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾؛ المعنى: ليفوته من شيء من أمر السماوات ولا من أمر الأرض.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾؛ قالوا: قال ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾ لأن المعنى: يعلم أنه على ظهر الأرض؛ وهذا حقيقته:

أنه جرى ذكر الأرض بقوله فيما قبل هذه الآية يليها قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ فلذلك جاء على ظهرها.

وقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾؛ فيه قولان:

فقيل: من دابة من الإنس والجن وكل ما يعقل.

وجاء عن ابن مسعود: «كاد الْجُعل يهلك في حُجْرِه لذنب ابن آدم»، فهذا يدل على العموم، والذي جاء أنه يعنى به الإنس والجن كأنه أشبه، -والله أعلم-.

آخر سورة الملائكة

* * *

سورة يس

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جاء في التفسير ﴿يس﴾ معناه: يا إنسان. وجاء: يا رجل. وجاء: يا محمد.

والذي عند أهل العربية: إنه بمنزلة «الم» في افتتاح السورة.

وجاء أن معناه: القسم، وبعضهم -أعني- بعض العرب تقول: «يَاسِنَ والقرآنَ» بفتح النون، وهذا جائز في العربية، والتسكين أجود لأنها حروف هجاء.

وقد شرحنا أشباه ذلك، فأما من فتح فعلى ضربين، على أن «يس» اسم للسورة حكاية كأنه قال:اتل يس، وهو على وزن: «هابيل وقابيل» لا ينصرف، ويجوز أن يكون فتح لالتقاء الساكنين.

وقوله جل وعز ﴿وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾؛ معناه: أن آياته أحكمت وبين فيها الأمر والنهي والأمثال وأقاصيص الأمم السالفة.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ هذا خطاب لمحمد -عليه السلام- وهو جواب القسم جواب «والقرآن؛ إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم».

أي: على طريق الأنبياء الذين تقدموك. وأحسن ما في العربية أن يكون ﴿لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ خبر«إن» ويكون ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثانياً، فالمعنى: إنك لمن المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ تقرأ: «تنزيلُ» بالرفع والنصب.

فمن نصب فعلى المصدر على معنى: نزل الله ذلك تنزيلاً، ومن رفع فعلى معنى الذي أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم.

﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾:

جاء في التفسير: لتنذر قوماً مثل ما أنذر آباؤهم.

وجاء: لتنذر قوماً لم تنذر آباؤهم، فيكون ما جُحد -وهذا والله أعلم- الاختيار، لأن قوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ دليل على معنى ﴿مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ وإذا كان قد أنذر آباؤهم فهم غافلون ففيه بعد، ولكنه قد جاء في التفسير. ودليل النفي قوله ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَذِيرٍ﴾[سبأ: ٤٤]، ولو كان آباؤهم منذرين لكانوا

دارسين للكتب -والله أعلم-.

﴿لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أكثرهم﴾ القول -ههنا والله أعلم- مثل قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾[الزمر: ٧١]؛ المعنى: لقد حق القول على أكثرهم بكفرهم وعنادهم. أضلهم الله ومنعهم من الهدى.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً﴾؛ وقرأ ابن عباس وابن مسعود رحمهما الله: «إنا جعلنا في أيمانهم» وقرأ بعضهم: «في أيديهم أغلالا»، وهاتان القراءتان لا يجب أن يقرأ بواحدة منهما لأنهما بخلاف المصحف.

فالمعنى: في قوله ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾، ومن قرأ: «في أيمانهم»، ومن قرأ: «في أيديهم» فمعنى واحد. وذلك لأنه لا يكون الغل في العنق دون اليد ولا في اليد دون العنق، فالمعنى: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيمانهم أغلالاً.

﴿فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ﴾ كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، لأن الغل يجعل اليد تلي الذقن. والعنق: هو مقارب للذقن، لا يجعل الغل العنق إلى الذقن.

وقوله: ﴿فَهُم مُقْمَحُونَ﴾ «المقمح»: الرافع رأسه الناص بصره، وقيل للكانونين: «شهراً قماح» لأن الإبل إذا وردت الماء ترفع رؤوسها لشدة برده، ولذا قيل: «شهراً قماح».

وإنما ذكرت الأعناق ولم تذكر الأيدي إيجازاً واختصاراً لأن الغل يتضمن العنق واليد.

ومن قرأ: «في أيمانهم» فهو أيضاً يدل على العنق، ومثل هذا قول المثقب [من الوافر]:

وَما أَدري إِذا يَمَّمتُ وَجهاً   أُريدُ الخَيرَ أَيُّهُما يَليني
أَأَلخَيرُ الَّذي أَنا أَبتَغيهِ   أَم الشَرُّ الَّذي هُوَ يَبتَغيني

وإنما ذكر الخير وحده، ثم قال: «أيهما يليني»، لأنه قد علم أن الإنسان الخير والشر معرضان له، لا يدري إذا أَمَّ أرضاً أيلقَاهُ هذا أم هذا، ومثله من كتاب الله ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾[النحل: ٨١]، ولم يذكر البرد، لأن ما وقي هذا وقي هذا.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً﴾، و﴿سُداً﴾ بالفتح والضم معناهما واحد.

وقد قيل: «السد» فعل الانسداد والسد خلقة المسدود. وفيه وجهان:

أحدهما: قد جاء في التفسير، وهو أن قوماً أرادوا بالنبي -عليه السلام- سوءاً فحال الله بينهم وبين ذلك، فجعلوا بمنزلة من هذه حاله، فجعلوا بمنزلة من غلت يمينه وسد طريقه من بين يديه ومن خلفه وجعل على بصره غشاوة، وهو معنى ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾.

ويقرأ ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بالعين غير معجمة، فحال الله بينهم وبين رسوله وكان في هؤلاء أبو جهل فيما يروى.

يجوز أن يكون وصف إضلالهم فقال: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان، أي: أضللناهم فأمسكنا أيديهم عن النفقة في سبيل الله والسعي فيما يقرب إلى الله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً﴾، كما قال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[البقرة: ٧].

والدليل على هذا قوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، لأن من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: من استمع القرآن واتبعه.

﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: خاف الله من حيث لا يراه أحد.

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾؛ المعنى: من اتبع الذكر وخشي الرحمن فبشره بمغفرة وأجر كريم.

المغفرة: هي العفو عن ذنوبه، وأجر كريم: بالجنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ما أسلفوا من أعمالهم.

ونكتب آثارهم: أي: من سن سنة حسنة كتب له ثوابها، ومن سن سنة سيئة كتب عليه عقابها، وقد قيل: وتكتب آثارهم أي: خطاهم، الأول وأكثر وأبين.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً﴾؛ ﴿مَثَلاً﴾ مفعول به منصوب به.

معنى قول الناس: اضرب له مثلاً أي: اذكر له مثلاً، ويقال: عندي من الضرب شيء كثير، أي: من هذا المثال وتقول: هذه الأشياء على ضرب واحد أي: على مثال واحد فيعني «ضرب لهم مثلاً»: «مَثَلَ لهم مثلاً».

وقوله: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ أي: خبر أصحاب القرية.

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾:

جاء في التفسير: إنهم أهل أنطاكية، وجه إليهم عيسى اثنين فكذبوهما قال: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾.

ويقرأ ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ بالتشديد والتخفيف ومعنى ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ فقوينا وشددنا الرسالة بثالث أي: برسول ثالث.

﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ﴾ إلى قوله ﴿الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾

فأعلمهم الرسل أنما عليهم البلاغ.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾: أي: تشاءمنا.

﴿لَئِن لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي: لنقتلنكم رجماً.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَعَكُمْ﴾ ويجوز: «طيركم معكم».

لأنه يقال: «طائر وطير» في معنى واحد، ولا أعلم أحداً قرأ ههنا «طيركم» بغير ألف؛ والمعنى: قالوا شؤمكم معكم.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: أإن ذكرتم تطيرتم، ويقرأ: «أأن ذكرتم» أي: لأن ذكرتم.

وقوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾؛ هذا رجل كان يعبد الله في غار في جبل، فلما سمع بالمرسلين جاء يسعى، أي يعدو إليهم، فقال: أتريدون أجراً على ما جئتم به فقال المرسلون: لا، وكان يقال لهذا الرجل فيما روي: «حبيب النجار» فأقبل على قومه فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُهْتَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَاسْمَعُونِ﴾.

فأشهد الرسل على إيقانه، قال قتادة: هذا رجل دعا قومه إلى الله ومحضهم النصيحة فقتلوه على ذلك وأقبلوا يرجمونه وهو يقول: اللهم اهد قومي اللهم اهد قومي، فأدخله الله الجنة فهو حي فيها يرزق.

والمعنى: فلما عذبه قومه ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، فلما شاهدها قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

أي: بمغفرة ربي لي، ﴿مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي: من المدخلين الجنة، وقيل أيضاً بما غفر لي ربي، أي: ليتهم يعلمون بالعمل والإيمان الذي غفر لي به ربي، ويجوز ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾، على بأي شي غفر لي ربي، ويجوز أن يكون ﴿بِمَا﴾ في هذا المعنى بإثبات الألف، تقول قد علمت بما صنعت هذا، وقد علمت بم صنعت هذا.

أي: قد علمت بأي شيء صنعت هذا، وحذف الألف في هذا المعنى أجود.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ المعنى: لم ننزل عليهم جنداً، لم ننتصر للرسول كذبوه بجند.

ومعنى ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ما كانت إلا صيحة واحدة، إلا أن صيح بهم صيحة واحدة فماتوا معذبين بها، ويقرأ: «إلا صيحةٌ واحدة» قرأ بها أبو جعفر المدني وحده، وهي جيدة في العربية، فمن نصب فالمعنى: ما وقعت عليهم عقوبة إلا صيحة واحدة.

﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أي: ساكنون قد ماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد الهامد.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ وقرئت: «يا حسرة العباد» بغير «على»، ولكني لا أحب القراءة بشيء خالف المصحف البتة. وهذه من أصعب مسألة في القرآن، إذا قال القائل: ما الفائدة في مناداة الحسرة، والحسرة مما لا يجيب فالفائدة في مناداتها كالفائدة في مناداة ما لا يعقل، لأن النداء باب تنبيه، وإذا قلت: يا زيد فإن لم تكن دعوته لتخاطبه لغير النداء فلا معنى للكلام، وإنما تقول: «يا زيد» فتنبهه بالنداء ثم تقول له: «فعلت كذا وافعل كذا» وما أحببت مما له فيه فائدة، ألا ترى أنك تقول لمن هو مقبل عليك: «يا زيد ما أحسن ما صنعت»، ولو قلت له: «ما أحسن ما صنعت» كنت قد بلغت في الفائدة ما أفهمت به، غير أن قولك: «يا زيد» أوكد في الكلام، وأبلغ في الإفهام. وكذا إذا قلت للمخاطب: «أنا أعجب مما فعلت»، فقد أفدته أنك متعجب، ولو قلت: «واعجباه مما فعلت»، و«يا عجباه أتفعل كذا وكذا»، وكان دعاؤك العجب أبلغ في الفائدة.

والمعنى: يا عجب أقبل، فإنه من أوقاتك، وإنما نداء العجب تنبيه لتمكن علم المخاطب بالتعجب من فعله، وكذلك إذا قلت: «ويل لزيد» أو «ويل زيد»: لم فعل كذا وكذا كان أبلغ.

وكذلك في كتاب الله -عز وجل-: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾[هود: ٧٢] وكذلك ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[الزمر: ٥٦].

وكذلك ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾؛ المعنى في التفسير: أن استهزاءهم بالرسل حسرة عليهم، والحسرة أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية له بعده حتى يبقى قلبه حسيراً.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾: أي: فيخافون أن يجعل لهم في الدنيا مثل الذي عجل لغيرهم ممن أهلك، وإنهم مع ذلك لا يعودون إلى الدنيا أبداً.

وموضع ﴿كَمْ﴾ نصب بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، لأن ﴿كَمْ﴾ لا يعمل فيها ما قبلها، خبراً كانت أو

استفهاماً. تقول في الخبر: «كم سرت»، تريد سرت فراسخ كثيرة، ولا يجوز: «سرت كم فرسخاً؟»، وذلك أن «كم» في بابها بمنزلة رب، وأن أصلها الاستفهام والإبهام، فكما أنك إذا استفهمت فقلت للمخاطب: «كم فرسخاً سرت لم يجز سرت كم فرسخاً، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، فكذلك إذا جعلت كم خبراً فالإبهام قائم فيها.

و﴿أَنَّهُمْ﴾ بدل من قبله معنى ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ والمعنى: ألم يروا أن القرون التي أهلكنا أنهم لا يرجعون.

ويجوز ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ بكسر «أن» ومعنى ذلك الاستئناف؛ المعنى: هم إليهم لا يرجعون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ من قرأ بالتخفيف في ﴿لَّمَّا﴾ فـ«ما» زائدة موكدة؛ والمعنى: أن كلٌّ لجميعٌ لدينا محضرون، ومعناه: وما كل إلا جميع لدينا محضرون.

ويقرأ ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد ومعنى «لما» ههنا «إلا» تقول: «سألتك لما فعلت».

وتفسير الآية: إنهم يحضرون يوم القيامة فيقفون على ما عملوا.

وقوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾: ويقرأ بالتشديد. وأصل الميتة الميتة والأصل التشديد، والتخفيف أكثر، وكلاهما جائز.

﴿وَآيَةٌ﴾ مرفوعة بالابتداء، وخبرها ﴿لَّهُمُ﴾ أي: وعلامة تدلهم على التوحيد وأن الله يبعث الموتى أحياء من الأرض الميتة. ويجوز أن تكون «آية» مرفوعة بالابتداء، وخبرها ﴿الأَرْضُ المَيْتَةُ﴾.

وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ ويجوز: «ثُمْره» بإسكان الميم وضم الثاء.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ويقرأ «عملت» بغير هاء، وموضع «ما» خفض.

المعنى: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، ويجوز أن تكون «ما» نفياً، على معنى ليأكلوا من ثمرة ولم تعمله أيديهم.

هذا على إثبات الهاء، وإذا حذفت الهاء فالاختيار أن يكون «ما» في موضع خفض، ويكون «ما» في معنى الذي فيحسن حذف الهاء، ويكون هذا على قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[الواقعة: ٦٣، ٦٤].

وقوله: ﴿سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾:

﴿سبْحَانَ﴾ تبرئة الله من السوء وتنزيهه. ومعنى الأزواج، الأجناس كلها من النبات والحيوان وغيرها.

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾؛ مما خلق الله من جميع الأنواع والأشياء.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ معنى نسلخ نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار، وذلك من العلامات الدالة على توحيد الله وقدرته.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾؛ المعنى: وآية لهم الشمس تجري لمستقر لها أي: لأجل قد أجل لها وقدر لها.

ومن قرأ «لا مستقراً لها» فمعناه: إنها جارية أبداً لا تثبت في مكان.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ يقرأ بالرفع والنصب.

فمن نصب فعلى «وقدرنا القمر منازل، قدرناه منازل» والرفع على معنى وآية لهم القمر قدرناه، ويجوز أن يكون على الابتداء: «وقدرناه» الخبر.

﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ العرجون: عود العذق الذي يسمى: «الكباسة»، وحقيقة العرجون: إنه العود الذي عليه العذق، والعرجون: عود العذق الذي تركبه الشماريخ من العذق، فإذا جف وقدم دق وصغر فحينئذ يشبه الهلال في آخر الشهر، وفي أول مطلعه.

وتقدير «عرجون»: فعلول من الانعراج.

﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾؛ المعنى: لا يذهب أحدهما بمعنى الآخر.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ لكل واحد منهما فلك، ومعنى ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون فيه بانبساط وكل من انبسط في شيء فقد سبح فيه، ومن ذلك السباحة في الماء.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ خوطب بهذا أهل مكة.

وقيل: حملنا ذريتهم لأن من حمل مع نوح -عليه السلام- في الفلك فهم آباؤهم وذرياتهم.

والمشحون في اللغة: المملوء، «شحنت السفينة» إذا ملأتها، وشحنت المدينة وأشحنتها إذا ملأتها.

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ الأكثر في التفسير: أن ﴿مِن مِثْلِهِ﴾ من مثل

سفينة نوح، وقيل: ﴿مِن مِثْلِهِ﴾ يعنى به الإبل. وإن الإبل في البرية بمنزلة السفن في البحر.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مغيث لهم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ منصوبة مفعول لها؛ المعنى: ولا ينقذون إلا لرحمة منا ولمتاع إلى حين إلى انقضاء الأجل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما سلفتم من ذنوبكم، وما تعملونه فيما تستقبلون.

وقيل: ما بين أيديكم وما خلفكم، على معنى: اتقوا أن ينزل بكم من العذاب مثل الذي نزل بالأمم قبلكم، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، أي: اتقوا عذاب الآخرة ومثله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[فصلت: ١٣].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أطعموا وتصدقوا.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ كأنهم يقولون هذا على حد الاستهزاء.

وجاء في التفسير: إنها نزلت في الزنادقة، وقيل: في قوم من اليهود.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ متى إنجاز هذا الوعد، أردنا ذلك.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ في ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ أربعة أوجه:

سكون الخاء والصاد مع تشديد الصاد على جمع بين ساكنين، وهو أشد الأربعة وأردؤها، وكان بعض من يروي قراءة أهل المدينة يذهب إلى أن هذا لم يضبط عن أهل المدينة كما لم يضبط عن أبي عمرو «إلى بارئكم».

وإنما زعم أن هذا تختلس فيه الحركة اختلاساً وهي فتحة الخاء، والقول كما قال.

والقراءة الجيدة ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الخاء، والأصل: «يختصمون»، فطرحت فتحة التاء على الخاء، وأدغمت في الصاد، وكسر الخاء أيضاً جيد أيضاً، تكسر الخاء لسكونها وسكون الصاد.

وقرئت «يختصمون» وهي جيدة أيضاً ومعناها يأخذهم وبعضهم يخصم بعض، ويجوز أن يكون تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون، فتقوم الساعة وهم متشاغلون في متصرفاتهم.

﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ لا يستطيع أحد أن يوصي في شيء من أمره.

﴿وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يلبث إلى أن يصير إلى أهله ومنزله يموت في مكانه.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ الصور كما جاء في التفسير القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل.

وقد قال أبو عبيدة: إن الصور جمع «صورة»، وصورة: جمعها «صور»، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وما قرأ أحد: «أحسن صوركم» ولا قرأ أحد: «ونفخ في الصور» من وجه يثبت.

والأجداث: القبور، واحدها: «جدث».

وينسلون: يخرجون بسرعة.

وقوله: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَرْقَدِنَا﴾ هذا وقف التمام وهذا قول المشركين.

وقوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ «هذا» رفع بالابتداء والخبر ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وهذا قول المشركين، أعني هذا ما وعد الرحمن.

ويجوز أن يكون «هذا» من نعت ﴿مَرْقَدِنَا﴾ على معنى: من بعثنا من مرقدنا هذا الذي كنا راقدين فيه، ويكون ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ على ضربين:

أحدهما: على إضمار «هذا»، والثاني: على إضمار حق، فيكون المعنى: حق ما وعد الرحمن. والقول الأول أعني ابتداء هذا عليه التفسير، وهو قول أهل اللغة.

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، و ﴿إِلاَّ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وقد مضى إعرابهما.

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فالمعنى: إن إهلاكهم كان بصيحة وبعثهم وإحياءهم بصيحة.

﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ المعنى: من جوزي فإنما يجازى بعمله.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَكِهُونَ﴾، و ﴿فَاكِهُونَ﴾ تفسيره: فرحون.

وجاء في التفسير: أن شغلهم افتضاض الأبكار، وقيل: في شغل عما فيه النار، ويقرأ: «في شُغُلٍ وشُغْل وشَغْل وشَغَل». يجوز في العربية.

وقوله -عز وجل-: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ﴾: و«ظُلَل»، ويجوز: «ظُلُل».

﴿الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ وهي الفرش في الحجال. وقيل: إنها الفرش، وقيل: الأسرة،

وهي على الحقيقة: الفرش كانت في حجال أو غير حجال.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم ما يَدَّعُونَ﴾ أي: ما يتمنون، يقال: ((فلان في خير ما ادَّعى)) أي: ما تمنى وهو مأخوذ من الدعاء.

المعنى: كل ما يدعو أهل الجنة يأتيهم.

﴿سَلامٌ قَوْلاً مِن رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ ﴿سَلامٌ﴾ بدل من ﴿مَا﴾.

المعنى: لهم ما يتمنون به سلام، أي: وهذا من أهل الجنة أن يسلم الله -عز وجل- عليهم، و﴿قَوْلاً﴾ منصوب على معنى: لهم سلام يقول الله -عز وجل- قولاً.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: انفردوا عن المؤمنين.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ وتقرأ ((أعهد)) بالكسر، والفتح أكثر، على قولك: ((عَهَد يَعْهَدُ)) والكسر يجوز على ضربين على: ((عَهَد يَعْهِد))، وعلى: ((عِهد يَعْهِد)) مثل: ((حَسَبَ يَحْسِبُ)).

ومعناه: ألم أتقدم إليكم بعهد الإيمان وترك عبادة الشيطان.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبْلاً﴾ ويقرأ: ﴿جِبِلاً﴾ بكسر الجيم والباء، ويقرأ ((جُبُلا)) بضم الجيم والباء وتقرأ: ((جُبْلا)) على إسكان الباء وضم الجيم. ويجوز: ((جَبِلا)) بفتح الجيم و((جِبِلا)) بكسر الجيم، ويجوز أيضاً: ((جِبَلا)) بكسر الجيم وفتح الباء بغير تشديد اللام، على جمع: ((جبلة))، و((جبل)).

والجبلة في جميع ذلك معناه: خليقة كثيرة وخلق كثير.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ المطموس: الأعمى الذي لا يتبين له جفن، لا يرى شفر عينه.

أي: لو نشاء لأعميناهم فعدلوا عن الطريق فمن أين يبصرون لو فعلنا ذلك بهم.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ و((مكاناتهم))، والمكانة والمكان في معنى واحد.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِياً وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يقدرون على ذهاب ولا مجيء.

﴿وَمَن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾ و ﴿نَنْكِسه﴾، يقال: ((نكسته أَنْكُسُه)) جميعاً، ومعناه: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة ضعفاً وبدل الشباب هرماً.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: ما علمنا محمداً -عليه السلام- قول الشعر،

وما ينبغي له أي: ما يستهل له ذلك.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: الذي أتى به النبي -عليه السلام- وزعم الكفار أنه شعر وما هو بشعر وليس يوجب هذا أن يكون النبي لم يتمثل ببيت شعر قط. إنما يوجب هذا أن يكون النبي -عليه السلام- ليس بشاعر، وأن يكون القرآن الذي أتى به من عند الله، لأنه مباين لكلام المخلوقين وأوزان أشعار العرب، والقرآن آية معجزة تدل على أن نبوة النبي -عليه السلام- وآياته ثابتة أبداً.

وقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياً﴾ يجوز أن يكون المضمر في قوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾ النبي -عليه السلام- وجائز أن يكون القرآن.

ومعنى: ﴿مَن كَانَ حَياً﴾ أي: من كان يعقل ما يخاطب به، فإن الكافر كالميت في أنه لم يتدبر فيعلم أن النبي -عليه السلام- وما جاء به حق.

﴿وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ ويجوز: «ويحق القول»، أي: يوجب الحجة عليهم، ويجوز ﴿لِتُنْذِرَ مَن كَانَ حَياً﴾ بالتاء خطاب للنبي -عليه السلام- ويجوز: ﴿لِيُنذِرَ﴾ أي: ليعلم، يقال: نَذِرت بكذا وكذا، أَنْذَر مثل: «عَلِمْتُ أَعْلَمُ».

وقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ معنى ﴿مَالِكُونَ﴾ ضابطون، لأن القصد ههنا إلى أنها ذليلة لهم ألا ترى إلى قوله ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ ومثله من الشعر[1] [من المنسرح]:

أَصْبحتُ لا أَحمِلُ السِّلاَحَ ولاَ　　　أَملِكُ رأس البعيرِ إنْ نَفرَا

أي: لا أضبط رأس البعير.

وقوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ معناه: ما يركبون، والدليل قراءة من قرأ «فمنها ركوبتهم» ويجوز «رُكوبهم» بضم الراء ولا أعلم أحداً قرأ بها، على معنى: فمنها ركوبهم وأكلهم وشربهم.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ﴾ أي: هم للأصنام ينتصرون، والأصنام لا تستطيع نصرهم.

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾:

جاء في التفسير: أن أبي بن خلف جاء إلى النبي -عليه السلام- بعظم بال ففركه ثم ذاره، وقال من يحيي هذا، فكان جوابه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

---

(١) البيت للربيع بن ضبع الفزاري.

فابتداء القدرة فيه أبين منها في الإعادة. ويقال: إن عبد الله بن أبي كان صاحب القصة. ويقال: العاص بن وائل.

وأعلمهم أن خلق السماوات والأرض أبلغ في القدرة من إحياء الموتى فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.

قال في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[غافر: ٥٧].

وقال: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ معناه: تنزيه الله من سوء ومن أن يوصف بغير القدرة، الذي بيده ملكوت كل شيء أي: القدرة على كل شيء.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ و«تَرْجِعون» أي: هو يبعثكم بعد موتكم.

* * *

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفاً﴾ أكثر القراءة تبيين التاء، وقد قرئت على إدغام التاء في الصاد وكذلك ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً﴾، فإن شئت أدغمت التاء في الزاي، وإن شئت بينت، وكذلك ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ أقسم بهذه الأشياء -عز وجل- أنه واحد.

وقيل: معناه: ورب هذه الأشياء إنه واحد.

وتفسير «الصافات»: أنها الملائكة، أي: هم مطيعون في السماء يسبحون الله -عز وجل-.

والزاجرات: روي أن الملائكة تزجر السحاب، وقيل: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً﴾: كل ما زجر عن معصية الله.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾؛ قيل: الملائكة وجائز أن يكون الملائكة وغيرهم أيضاً ممن يتلون ذكر الله.

﴿وَرَبُّ المَشَارِقِ﴾ قيل: المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً ومثلها من المغارب.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ﴾ على إضافة الزينة إلى الكواكب، وعلى هذا أكثر القراءة وقد قرئت بالتنوين وخفض الكواكب، والمعنى: أن الكواكب بدل من الزينة.

المعنى: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب، ويجوز: «بِزِينَةٍ الكَوَاكِبَ»، وهي أقل ما في القراءة على معنى: زينا الكواكب.

ويجوز أن يكون «الكواكب» في النصب بدلاً من قوله: ﴿بِزِينَةٍ﴾. لأن «بزينة» في موضع نصب، ويجوز: «بزينة الكواكبُ» ولا أعلم أحداً قرأ بها، فلا تقرأن بها إلا أن تثبت بها رواية، لأن القراءة سنة.

ورفع الكواكب على معنى: إنا زينا السماء الدنيا بأن زينتها الكواكب، وبأن زينت الكواكب.

وقوله: ﴿وَحِفْظاً مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ على معنى: وحفظناها من كل شيطان مارد، على معنى: وحفظناها حفظاً من كل شيطان مارد، يقذفون بها إذا استرقوا السمع.

﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلأِ الأَعْلَى﴾ ويقرأ بالتشديد على معنى: يستمعون.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً﴾ أي: يدحرون أي: يباعدون.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ قيل: دائم وقيل: موجع.

﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ﴾ - بفتح الطاء وكسرها، يقال: «خَطِفت أَخْطِف وخطَفت أخْطَف»، إذا أخذت الشيء بسرعة.

ويجوز: «إلا من خَطَّف» بتشديد الطاء وفتح الخاء. ويجوز: «خِطَّف» بكسر الخاء وفتح الطاء؛ والمعنى: اختطف، فأدغمت التاء في الطاء وسقطت الألف لحركة الخاء، فَمَنْ فتح الخاء ألقى عليها فتحة التاء التي كانت في «اختطف»، ومن كسر فلسكونها وسكون الطاء.

فأما من روى «خِطِف الخطفة» بكسر الخاء والطاء فلا وجه له إلا وجهاً ضعيفاً جداً يكون على اتباع الطاء كسر الخاء.

﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ يقال: «تَبِعْته واتَّبعتُه، وتَتَبَّعْته»، إذا مضيت في أثره.

﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: كوكب مضيء.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم سؤال تقرير.

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾: من الأمم السالفة قبلهم وغيرهم من السماوات والأرضين.

﴿مِن طِينٍ لازِبٍ﴾ و «لازَب»: ومعناهما واحد أي: لازق.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ وتقرأ: «عجبتُ» بضم التاء، ومعناه في الفتح: بل عجبت يا محمد من نزول الوحي عليك ويسخرون، ويجوز أن يكون معناه: بل عجبت من إنكارهم البعث.

ومن قرأ «عجبتُ» فهو: إخبار عن الله وقد أنكر قوم هذه القراءة، وقالوا: الله -عز وجل- لا يعجب. وإنكارهم هذا غلط لأن القراءة والرواية كثيرة والعجب من الله -عز وجل- خلافه من الآدميين كما قال: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾[الأنفال: ٣٠]، و﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[التوبة: ٧٩]، ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[النساء: ١٤٢]، والمكر من الله والخداع خلافه من الآدميين.

وأصل العجب في اللغة: أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال: «عجبت من كذا وكذا»، وكذا إذا فعل الآدميون ما ينكره الله جاز أن يقول فيه: «عجبتُ» والله قد علم

الشيء قبل كونه، ولكن الإنكار إنما يقع، والعجب الذي يلزم به الحجة عند وقوع الشيء.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: إذا رأوا آية معجزة استسخروا واستهزأوا.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فجعلوا ما يدل على التوحيد مما يعجزون عنه سحراً، نحو انشقاق القمر وما أشبهه.

وقوله: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ويجوز: «إنا» فمن قرأ: «إنا» اجتز بألف الاستفهام؛ والمعنى: في الوجهين أنبعث إذا كنا تراباً وعظاماً وتفسيره: لمبعوثون.

﴿قُلْ نَعَمْ وأنتم دَاخِرُونَ﴾؛ المعنى: قل نعم تبعثون وأنتم صاغرون.

ثم فسر أن بعثهم يقع بزجرة واحدة بقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: يحيون ويبعثون بصراء ينظرون.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ و«الويل»: كلمة يقولها القائل وقت الهلكة.

ومعنى ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾؛ يوم الجزاء، أي: يوم نجازى فيه بأعمالنا.

فلما قالوا: هذا يوم الدين قيل لهم نعم ﴿هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. أي: هذا يوم يفصل فيه بين المحسن والمسيء، ويجازى كل بعمله، وبما يتفضل الله به على المسلم.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾؛ معناه: ونظراءهم وضرباءهم.

تقول: «عندي من هذا أزواج»، أي: أمثال، وكذلك زوجان من الخفاف كل واحد نظير صاحبه، وكذلك الزوج: المرأة، والزوج: الرجل، وقد تناسبا بعقد النكاح، وكذلك قوله: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾[ص: ٥٨].

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ﴾. يقال: هديت الرجل إذا دللته، وهديت العروس إلى زوجها. وأهديت الهدية، وكذلك تقول في العروس: أهديتها إذا جعلتها كالهدية.

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْؤُولُونَ﴾: أي: احبسوهم.

﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾؛ قوله: ﴿لاَ تَنَاصَرُونَ﴾ ففي موضع نصب على الحال؛ المعنى: ما لكم غير متناصرين.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: يُسائل بعضهم بعضاً.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ﴾؛ هذا قول الكفار للذين أضلوهم، كنتم

تخدعوننا بأقوى الأسباب، أي: كنتم تأتوننا من قِبَل الذين فَتُرونَنا أن الدين الحق ما يضلوننا به.

﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. أي: إنما الكفر من قِبَلِكم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾. حقت علينا كلمة العذاب.

﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾. أي: إن الجماعة، المضل والضال في النار.

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾؛ أي: أضللناكم.

﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾؛ ضالين.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾: المجرمون المشركون خاصة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني عن توحيد الله -عز وجل-، وألا يجعلوا الأصنام آلهة.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾؛ الكأس: الإناء إذا كانت فيه خمر فهو كأس، ويقع الكأس لكل إناء مع شرابه.

﴿مِن مَعِينٍ﴾. أي: من خمر تجرى كما يجرى الماء على وجه الأرض من العيون.

﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ﴾. أي: ذات لذة.

﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾. لا تغتال عقولهم، لا تذهب بها، ولا يصبهم منها وجع.

﴿وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾؛ ﴿يُنزِفُونَ﴾ بفتح الزاي وكسرها.

فمن قرأ: ﴿يُنزَفُونَ﴾ فالمعنى: لا تذهب عقولهم بشر بها، يقال للسكران: ((نزيف ومنزوف))، ومن قرأ: ﴿يُنزِفُونَ﴾، فمعناه: لا ينفدون شرابهم، أي: هو دائم أبداً لهم. ويجوز أن يكون ﴿يُنزِفُونَ﴾ يسكرون، قال الشاعر[1]:

لَعَمْري لئنْ أَنْزَفْتُمُ أَو صَحَوتُمُ   لبئسَ النَّدامَى كنتمُ، آلَ أَبْجَرا

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾؛ أي: عندهم حور قد قصرن طرفهن أي: عيونهن على أزواجهن.

﴿عِينٌ﴾ كبار الاعين حسابها. الواحدة: ((عيناء)).

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾؛ أي: كأن ألوانهن ألوان بيض النعام.

---

(١) انظر اللسان مادة: ((نزف)).

﴿مَكْنُونٌ﴾، الذي يكنه رأس النعام، ويجوز أن يكون ﴿مَكْنُونٌ﴾ مصون، يقال: «كَنَنْت الشيء» إذا سترته، وصنته، فهو مكنون، وأَكْنَنْته: إذا أضمرته في نفسك.

﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾؛ مخففة من «صدق فهو مصدق»، ولا يجوز ههنا تشديد الصاد، لأن ﴿الْمُصَدِّقِينَ﴾ الذين يعطون الصدقة، والمصدقين: الذين لا يكذبون.

فالمعنى: كان لي قرين يقول: أئنك ممن يصدق بالعبث بعد أن تصير تراباً وعظاماً، فأحب قرينه المسلم أن يراه بعد أن قيل له: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؛ أي: هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار.

﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾. فاطلع المسلم فرأى قرينه الذي كان يكذب بالبعث في سواء الجحيم، أي: في وسط الجحيم، وسواء كل شيء وسطه.

ويقرأ: ﴿هَلْ أَنتُم مُطَّلِعُونَ﴾ بفتح النون وكسرها وتشديد الطاء، فمن فتح النون مع التخفيف فقال «مطلعون» فهو بمعنى طالعون ومطلعون، يقال: «طَلَعت عليهم وأطْلَعت واطَّلَعت» بمعنى.

ومن قرأ: ﴿مُطَّلِعُونَ﴾ بكسر النون قرأ «فَأُطْلِع» ومن قرأ بفتح النون ﴿مُطَّلِعُونَ﴾ وجب ان يقرأ: «فأُطْلَعَ». ويجوز «فَأَطْلِعَ» على معنى: هل أنتم مطلعون أحداً، فأما الكسر للنون فهو شاذ عند البصريين والكوفيين جميعاً وله عند الجماعة وجه ضعيف وقد جاء مثله في الشعر [من الطويل]:

هـمُ القائلون الخيْرَ والآمِرونَهُ   إذا ما خَشُوا من مُحْدَثِ الأمرِ مُفظِعا[1]

وأنشدوا:

وَمَـا أَدْرِي وظَني كُلَّ ظَني   أَمُسْلِمُنِي إِلَى قَوْمِي شَـرَاحِ

والذي أنشدنيه محمد بن يزيد: «أَيُسْلِمُنِي إِلَى قَوْمِي»، وإنما الكلام: «أَمُسْلِمِي وأَيُسْلِمُنِي»، وكذلك هم القائلون الخير والآمروه، وكل أسماء الفاعلين إذا ذكرت بعدها المضمر لم تذكر النون ولا التنوين، تقول: «زيد ضاربي» و«هما ضارباك» ولا يجوز: «وهو ضاربني»، و «لا هم ضاربونك». ولا يجوز: «هم ضاربونك» عندهم إلا في الشعر.

إلا أنه قد قرئ بالكسر: هل أنتم مطلعون على معنى: مطلعوني، فحذفت الياء كما تحذف في رؤس الآي، وبقيت الكسرة دليلاً عليها. وهو في النحو، أعني كسر النون على

---

(١) البيت وارد في الخزانة (٤/٢٠١)، والكامل (١/٢١٤)، قال صاحب الخزانة إنه مما أنشده سيبويه.

ما أخبرتك، والقراءة قليلة بها، وأجود القراءة وأكثرها ﴿مُطَّلِعُونَ﴾ بتشديد الطاء وفتح النون ثم الذي يليه ﴿مُطَلِعُونَ﴾ بتخفيف الطاء وفتح النون.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾؛ ﴿تَاللَّهِ﴾: معناه: والله، والتاء بدل من الواو، ﴿لَتُرْدِينِ﴾ أي: لتهلكني، يقال: «ردي الرجل يردى ردى» إذا هلك، وأرديته: أهلكته.

﴿لكنت من المحضرين﴾ أي: أحضر العذاب كما أحضرت.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؛ المعنى: أنعيم الجنة وطعامها خيراً نزلاً أم شجرة الزقوم خير نزلاً، والنزل ههنا: الريع والفضل، تقول: «هذا طعام له نُزُل ونزْل» بتسكين الزاي وضمها «ونَزَل» ويكون ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً﴾، أي: أذلك خير في باب الإنزال التي تتقوت، ويمكن معها الإقامة أم نزل أهل النار.

إنما قيل لهم فيما يقال للناس من الإنزال: «أقمت لهم نزلهم» أي: غذاءهم وما يصلح معه أن ينزلوا عليه.

ومعنى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ عبرة للظالمين أي: خبرة افتتنوا بها، وكذبوا بها فصارت فتنة لهم.

وذلك أنهم لما سمعوا أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم قالوا: الشجر يحترق بالنار، فكيف ينبت الشجر في النار فافتتنوا وكذبوا بذلك.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

قيل: الشياطين حيات لها رؤوس فشبه طلعها برؤوس تلك الحيات، وقيل: رؤوس الشياطين نبت معروف، وقيل: وهو القول المعروف أن الشيء إذا استقبح شبه بالشيطان، فقيل: كأنه وجه شيطان، وكأنه رأس شيطان، والشيطان: لا يرى ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء لو رئي لرئي في أقبح صورة قال امرؤ القيس [من الطويل]:

أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ

ولم تر الغول قط ولا أنيابها ولكن التمثيل بما يستقبح أبلغ في باب المذكر، يمثل بالشيطان وفي باب ما يستقبح من المؤنث يشبه بالغول.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: لخلطاً ومزاجاً، ويقرأ: «لَشُوباً من حميم»، الشوب: المصدر والشُّوب: الاسم، والخلط: المخلوط.

﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي: هم يتبعون آثارهم اتباعاً في سرعة، ويقال

﴿يُهْرَعُونَ﴾ كأنهم يزعجون من الإسراع إلى اتباع آبائهم، يقال: «هرع وأهرع» في معنى واحد إذا استحث واسرع.

وقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ المخلصين الذين أخلصهم الله واصطفاهم لعبادته، ويقرأ «المخلِصين» أي: الموحدين.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي: دعانا بأن ننقذه من الغرق،؛ والمعنى: فلنعم المجيبون نحن.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ يعني كرب الغرق الذي هو عذاب.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ لما جاء الطوفان لم يبق إلا نوح وذريته، والخلق الباقون من ذرية نوح.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أي: تركنا الذكر الجميل إلى يوم القيامة، وذلك الذكر قوله: ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾؛ المعنى: تركنا عليه في الآخرين أن يصلى عليه أي: يوم القيامة.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من شيعة نوح، من أهل ملته يعني نوحا.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ جاء في التفسير: ﴿سَلِيمٍ﴾ من الشرك، وهو سليم من الشرك ومن كل دنس.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال إبراهيم لقومه وهم يعبدون الأصنام: أي شيء ظنكم برب العالمين وأنتم تعبدون غيره.

وموضع «ما» رفع بالابتداء والخبر ﴿ظَنُّكُم﴾.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال لقومه وقد رأى نجماً: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فأوهمهم أن الطاعون به.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾؛ فراراً من أن يعدي إليهم الطاعون، وإنما قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، لأن كل واحد وإن كان معافى فلا بد من أن يسقم ويموت، قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠] أي: إنك ستموت فيما يسقبل، وكذلك قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: سأسقم لا محالة.

وقد روي في الحديث: «لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث»، وقد فسرنا ذلك، وأن هذه الثلاث وقعت فيها معارضة في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[الأنبياء: ٦٣] على معنى: إن

كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم، وقوله: «سارة أختي» أي: أختي في الإسلام، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على ما فسرنا.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾؛ معنى ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ مال عليهم.

و﴿ضَرْباً﴾ مصدر، المعنى: فمال على الأصنام يضربهم ضرباً.

﴿بِالْيَمِينِ﴾ يحتمل وجهين بيمينه، وبالقوة والمكانة، وقال ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهي الأصنام لأنهم جعلوها معبودة بمنزلة ما يميز كما قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾؛ يعني قوم إبراهيم.

﴿يَزِفُّونَ﴾؛ يسرعون إليه.

ويقرأ ثلاثة أوجه، ﴿يَزِفُّونَ﴾ بفتح الياء و«يُزفون» بضمها، و«يزفون» بتخفيف الفاء، وأعربها كلها ﴿يَزِفُّونَ﴾ بفتح الياء وتشديد الفاء، وأصله من زفيف النعام، وهو ابتداء عدوها، يقال زف النعام يزف ويقرأ «يزفون» أي:يصيرون إلى الزفيف، ومثله قول الشاعر:

تَمَنَّى حُصَين أَن يَسُودَ جِذَاعَه فَأَضْحَى حُصين قَد أَذَلَّ وأَقْهَرا

معنى «أقهر» صار إلى القهر.

وكذلك يزفون فأما ﴿يَزِفُّونَ﴾ بالتخفيف فهو من «وزف يزف»، بمعنى أسرع، ولم يعرفه الفراء ولا الكسائي، وعرفه غيرهما.

وقوله: ﴿فِي الْجَحِيمِ﴾؛ كل نار بعضها فوق بعض، وهي جَحْمٌ.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ يقول: هب لي ولداً صالحاً من الصالحين.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾؛ وهذه البشارة تدل على أنه غلام وأنه يبقى حتى يوصف بالحلم.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾؛ أي: أدرك معه العمل، يقال: إنه بلغ في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾؛ تقرأ غير ممالة، و﴿تَرَى﴾ ممالة، و«تري» بلا إمالة، و«تري» بالإمالة.

و﴿مَاذَا تَرَى﴾ ففيها خمسة أوجه، «ترى» بالفتح وبالكسر. وكذلك في «تري تري»، وفيها خمسة أوجه أخر لم يقرأ بشيء منها، فلا تقرأن بها، وهو أن تأتي الخمسة التي ذكرناها ممالة وغير ممالة بغير همز فتهمزها كلها، فما كان ممالاً همز وأمال، وما يكن مما لا أمال ولم يهمز. ويجوز: «ماذا ترأى» ممال، و«ماذا ترئي»، و«ماذا ترأى، وماذا تري، وماذا ترى».

فمعنى «ماذا ترأى وترئي» من الرأى، ومعنى: «ماذا ترى» ماذا تشير، وزعم الفراء أن معناه: ماذا تريني من صبرك، ولا أعلم أحداً قال هذا، وفي كل التفسير «ما تُرِي»: ما تشير.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ ورؤية الأنبياء في المنام وحي بمنزلة الوحي إليهم في اليقظة، وقد فسرنا: «يا أبه»، وإعرابه فيما سلف من الكتاب.

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾؛ يقول على أمر الله.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ أسلما: استسلما لأمر الله. رضي إبراهيم بأن يذبح ابنه، ورضي ابنه بأن يُذبح تصديقاً للرؤيا وطاعة لله.

واختلف الناس في الذي أمر بذبحه من كان، فقيل: إسحاق، وقال قوم: إسماعيل. فأما من قال: إنه إسحاق، فعلي -رحمة الله عليه- وابن مسعود وكعب الأخبار، وجماعة من التابعين. وأما من قال: إنه إسماعيل، فابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وسعيد بن المسيب وجماعة من التابعين.

وحجة من قال: إنه إسماعيل قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وحجة من قال: إنه إسحاق، قال: كانت في إسحاق بشارتان الأولى فبشرناه بغلام حليم. فلما استسلم للذبح واستسلم إبراهيم لذبحه بشر به نبياً من الصالحين.

والقول فيهما كثير -والله أعلم- أيهما كان الذبيح.

فأما جواب ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه، فقد اختلف الناس فيه فقال قوم جوابه: «وناديناه»، والواو زائدة، وقال: إن الجواب محذوف لأن في الكلام دليلاً عليه.

المعنى: فلما فعل ذلك سعد وأراه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب في الآخرة.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾؛ الذِّبح: بكسر الذال الشيء الذي يذبح، والذبح المصدر، تقول: ذبحته أذبحه ذبحاً.

وقيل: إنه الكبش الذي تقبل من ابن آدم حين قربه، وقيل: إنه رَعَا في الجنة أربعين سنة، وقيل: إنه كان وعلاً من الأوعال. والأوعال: التيوس الجبلية.

﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾؛ قيل: من الغرق كما فعل بفرعون وقومه.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ جاء في التفسير: أنه إدريس، ورويت عن ابن مسعود أنه قرأ: «وإن إدريس»، ورويت: «سلام على إدراسين».

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾؛ قيل: إن بعلاً كانوا يعبدونه، صنماً من ذهب، وقيل: إن «بعلاً» تعني رباً.

وقرئت ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ على صفة أحسن الخالقين الله. وقرئت: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ على الابتداء والخبر.

﴿سَلامٌ عَلَى آلْ يَاسِينَ﴾؛ وقرئت: ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾، فمن قرأ بالوصل فموضع ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ جمع، هو وأمته المؤمنون، وكذلك يجمع ما ينسب إلى الشيء بلفظ الشيء، تقول: رأيت المسامعة والمهالبة، تريد بني المهلب وبني مسمع، وكذلك رأيت المهلبين والمسمعين.

وفيها وجه آخر تكون فيه لغتان: «إلياس والياسين» كما قال: «ميكال وميكائيل».

وقوله: ﴿إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ﴾: يعني في الباقين.

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾:

﴿أَبَقَ﴾ هرب إلى الفلك المشحون، والمشحون: المملوء.

﴿فَسَاهَمَ﴾ قارع، و﴿المُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين. لما صار يونس في السفينة فلم تَسِرْ فقارعه أهل السفينة، ووقعت عليه القرعة فخرج وألقى نفسه في البحر.

﴿فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ﴾ وهو السمكة، ولما خرج من السفينة سارت.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قد أتى بما يلام عليه، يقال: قد ألام الرجل فهو مليم، إذا أتى ما يجب أن يلام عليه.

﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ﴾: من المصلين.

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ جاء في التفسير: أنه لبث أربعين يوماً.

وقال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً وأخرج من بطنه بعيد الوقت الذي التقم به.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ يعني بالمكان الخالي، والعراء على وجهين: مقصور وممدود. فالمقصور الناحية، والعراء ممدود: المكان الخالي، قال أبو عبيدة وغيره: إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه، ولا شيء يغطيه، وقيل: إن العراء وجه الأرض، ومعناه: وجه الأرض الخالي. وأنشدوا[1]:

رَفَعْتُ رجلاً لا أَخَافُ عِثَارَهَا ونَبَذْتُ بالبَلَدِ العَرَاءِ ثِيَابِي

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ﴾؛ كل شجرة لا تنبت على ساق، وإنما تمتد على

(١) البيت لتميم بن أسد الخزاعي. انظر: محاضرة الأدباء (٣/٢٢٠).

وجه الأرض، نحو: القرع والبطيخ والحنظل فهو: يقطين. وأحسب اشتقاقها من «قَطَن بالمكان» إذا أقام به، فهذا الشجر كله على وجه الأرض، فلذلك قيل: يقطين.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾؛ قال غير واحد معناه: بل يزيدون، قال ذلك الفراء وأبو عبيدة.

وقال غيرهما معناه: أو يزيدون في تقديركم أنتم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة وهذا على أصل «أو».

وقال قوم: معناها معنى الواو. و«أو» لا تكون بمعنى الواو لأن الواو معناها الإجماع وليس فيها دليل أن أحد الشيئين قبل الآخر، و«أو» معناها إفراد أحد شيئين أو أشياء.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم مسألة توبيخ وتقرير، لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً﴾ معناه: بل أخلقنا الملائكة إناثاً.

﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلاَ إِنَّهُم مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾؛ هذه الألف مفتوحة، هذا الاختيار، لأن المعنى: سلهم هل اصطفى البنات على البنين فالألف ألف استفهام. ويجوز «اصطفى» على أن يكون حكاية عن قولهم: «اصطفى». وفتح الألف وقطعها أجود على «اصطفى»: ثم حذف ألف الوصل.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾؛ الجنة ههنا الملائكة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: ولقد علمت الجنة وهم الملائكة أن الذين قالوا: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ لمحضرون العذاب.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه الله من السوء عن وصفهم أي: ما أنتم بمضلين عليه إلا من أضل.

﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي: لستم تصلون بكسر اللام، على معنى صالي، والوقف عليها ينبغي أن يكون بالياء، ولكنها محذوف في المصحف.

ولقراءة الحسن وجهان؛ أحدهما: أن يكون أراد صالون الجحيم، فحذفت النون للإضافة وحذفت الواو لسكونها وسكون اللام من ﴿الْجَحِيمِ﴾، ويذهب بـ«مَنْ» مذهب الجنس، أي: بالجنس الذين هم صالو الجحيم، ويجوز أن يكون ﴿صَالِ﴾ في معنى صائل، مفعول من صالي الجحيم ويجوز أن يكون ﴿صَالِ﴾ في معنى صائل مفعول ممن صالي

مثل ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾[التوبة: ١٠٩] أي: هائر، والقراءة التي هي الاجماع كسر اللام.

﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾؛ هذا قول الملائكة، وههنا مضمر؛ المعنى: ما منا ملك إلا له مقام معلوم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الممجدون لله، الذين ينزهونه عن السوء.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِنَ الأولين﴾ كان كفار قريش يقولون: لو جاءنا ذكر كما جاء غيرنا من الأولين لأخلصنا العبادة لله -عز وجل- فلما جاءهم كفروا به.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف يعلمون مغبة كفرهم، وما ينزل بهم من العذاب والانتقام منهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: تقدم الوعد لهم بأن الله ينصرهم بالحجة وبالظفر بعدوهم في الدنيا، والانتقام من عدوهم في الآخرة.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ حزب الله لهم الغلبة.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ حتى تنقضي المدة التي أمهلوا إليها.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ نزل بهم العذاب، وكان عذاب هؤلاء في الدنيا القتل.

وقوله: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾: أي: فبئس صباح.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ﴾ فيه ثلاث أوجه، فمن نصب فعلى مدح الله -عز وجل-، ومن قرأ بالرفع فعلى المدح أيضاً على معنى: هو رب العزة، ومن خفض فعلى قوله: ﴿رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ﴾، وفي النصب أيضاً: أعني رب العزة، واذكر رب العزة.

* * *

سورة ص

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص﴾ قرئت بالفتح وبالكسر، وبتسكين الدال، وهي أكثر القراءة فمن أسكن «صاد» من حروف الهجاء، وتقدير الدال الوقف عليها، وقد فسرنا هذا في قوله «الم» أعني باب حروف الهجاء، ومعناه: «الصادق الله»، وقيل: إنها قسم.

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ عطف عليها؛ المعنى: أقسم بصاد ذي الذكر.

ومن فتحها فعلى ضربين: يكون فتحاً لالتقاء الساكنين ويكون على معنى: اتل صاد، ويكون صاد اسماً للسورة لا ينصرف.

ومن كسر فعلى ضربين: لالتقاء الساكنين وبكسرها على معنى صاد القرآن بعملك، ومن قولك: «صادي يصادي» إذا قابل وعادل يقال: «صاديته» إذا قابلته، وجواب قوله: صاد والقرآن ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[ص: ٦٤]، وقال قوم: الجواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِن قَرْنٍ﴾[ص: ٣].

ومعنى ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: ذي الذكر والشرف، وقيل: ذي الذكر قد ذكرت فيه أقاصيص الأولين والآخرين وما يحتاج إليه في الحلال والحرام.

﴿فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾: جاء في التفسير: ﴿وَلاَتَ حِينَ﴾ نداء.

وقال أهل اللغة: ﴿وَلاَتَ حِينَ﴾ منجي ولا فوت، يقال: «نَاصَه يَنُوصه» إذا فاته.

وفي التفسير: ﴿وَلاَتَ حِينَ﴾ نداء معناه: لاتَ حينَ نداءٍ يُنجي. ويجوز: لات حين مناص. والرفع جيد، والوقف عليها «لات» بالتاء، والكسائي يقف بالهاء «لاهْ» لأنه يجعلها هاء التأنيث وحقيقة الوقف عليها بالتاء، وهذه التاء نظيرةُ التاء في الفعل في قولك: «ذهبت وجلست» وفي قولك: «رأيت زيداً ثمت عمراً»، فتاء الحروف بمنزلة تاء الأفعال، لأن التاء في الموضعين دخلت على ما لا يعرب، ولا هو في طريق الأسماء.

فإن قال قائل: نجعلها بمنزلة قولهم: «كان من الأمر ذيه وذيه» فهذه هاء في الوقف وهذه هاء دخلت على اسم لا يعرب، وقد أجازوا الخفض فقالوا: لات أوان. وأنشدوا لأبي زبيد [من الخفيف]:

طَلَبوا صُلحَنا وَلاتَ أَوانٍ　　　فَأَجَبنا أَن لَيسَ حينَ بَقاءِ

والذي أنشدنا أبو العباس محمد بن يزيد ورواه:

«طلبوا صلحنا ولات أوان»، وذكر أنه قد روي الكسر.

فأما النصب فعلى أنها عملت عمل ليس؛ المعنى: وليس الوقت حين مناص.

ومن رفع بها جعل «حين» اسم ليس وأضمر الخبر على معنى: ليس حين منجي لنا.

ومن خفض جعلها مبنية مكسورة لالتقاء الساكنين كما قالوا: «قَدْلَكَ»[1] فبنوه على الكسر؛ والمعنى: ليس حين مناصنا وحين منجانا، فلما قال: «ولات أوان» جعله على معنى: ليس حين أواننا.

فلما حذف المضاف بني على الوقف ثم كسر لالتقاء الساكنين، والكسر شاذ شبيه بالخطأ عند البصريين، ولم يرو سيبويه والخليل الكسر، والذي عليه العمل النصب والرفع.

وقال الأخفش: أن ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ نصبها بـ«لا» كما تقول: «رجل في الدار»، ودخلت التاء للتأنيث.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى قوله ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ في معنى: عجيب، ويجوز «عُجَّاب» في معنى: عجيب يقال: «رجل كَرِيم وكَرَام وكُرَّام».

وهذه حكاية عن ملأ من قريش لما مرض أبو طالب المرضة التي مات فيها أتاه أبو جهل بن هشام وجماعة من قريس يعودونه فشكوا إليه النبي -عليه السلام- وقالوا: يشتم آلهتنا ويفعل، فعاتبه أبو طالب، فقال النبي -عليه السلام-: «إني أدعوكم إلى كلمة يدين لكم العرب بها، وتؤدي بها إليكم العجم الجزية»، فقال أبو جهل: نعم وعشراً على طريق الاستهزاء أي: نقولها وعشراً نعها، فقال: «لا إله إلا الله» فقالوا: اجعل الآلهة إلهاً واحداً، ثم نهضوا وانطلقوا من مجلسهم يقول بعضهم لبعض امشوا واصبروا على آلهتكم.

وقوله: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ معناه: أي: امشوا، وتأويله: يقولون امشوا ويجوز: «وانطلق الملأ منهم بأن امشوا» أي: بهذا القول.

وقوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ حكاية عنهم أيضاً، أي: ما سمعنا بهذا في النصرانية ولا اليهودية ولا فيما أدركنا عليه آباءنا.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: إلا تقول.

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: كيف أنزل الذكر عليه من بيننا أي: كيف أنزل

(١) مثل: «حسبك» أو بمعناها.

محمد القرآن من بيننا.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِن ذِكْرِي﴾ أي: ليس يقولون ما يعتقدونه إلا شاكين.

وقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾:

إن قال قائل: ما وجه اتصال ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ﴾ بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾، أو بقوله ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾.

فهذا دليل على حسدهم النبي -عليه السلام- بما أتاه الله من فضل النبوة، فأعلم الله أن الملك له والرسالة إليه يصطفي من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزل الغيث والرحمة على من يشاء فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: ليس عندهم ذلك.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ليس من ذلك شيء.

﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ أي: إن ادعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء.

وجائز أن يكون ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾ في هذه الأسباب التي توصلهم إلى السماء، وجائز أن يكون ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾ في هذه الأسباب التي ذكرت وهي التي لا يملكها إلا الله.

ثم وعد الله نبيه -عليه السلام- النصر عليهم فقال: ﴿جُندٌ ما هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾ «ما» لغو؛ المعنى: جند هنالك مهزوم من الأحزاب.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ جاء في التفسير: أن فرعون كانت له حبال وأوتاد يلعب له عليها.

﴿مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ و«فُواق» بضم الفاء وفتحها أي: ما لها من رجوع، والفواق: ما بين حلبتي الناقة، وهو مشتق من الرجوع أيضاً، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين، وأفاق من مرضه من هذا أي: رجع إلى الصحة فالفواق هو من هذا أيضاً.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَنَا قِطَّنَا﴾ «القط» النصيب، وأصله الصحيفة يكتب للإنسان فيها شيء يصل إليه قال الأعشى [من الطويل].

وَلا المَلِكُ النُّعمانُ يَومَ لَقيتَهُ   بِإِمَّتِهِ يُعطي القُطوطَ وَيَأفِقُ

«يَأفِقُ» يفضل وهذا تفسير قولهم: ﴿عَجِّل لنا قِطَّنَا﴾ - وهو كقولهم ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾[الأنفال: ٣٢].

وقيل: إنهم لما سمعوا أن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه والكافر يؤتى كتابه بشماله،

فيسعد المؤمن ويهلك الكافر، قالوا: ربنا عجل لنا قطنا.

واشتقاق «القط» من: «قططت» أي: قطعت، وكذلك النصيب إنما هو القطعة من الشيء.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ﴾ ذا القوة، وكانت قوته على العبادة أتم قوة، كان يصوم يوم ويفطر يوم وذلك أشد الصوم، وكان يصلي نصف الليل.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾؛ رجاع إلى الله كثيراً، الآيب: الرَّاجع، والأواب: الكثير الرجوع.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾؛ «الإشراق» طلوع الشمس وإضاءتها، يقال: شرقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت، وقد قيل: «شرقت وأشرقت» إذا طلعت في معنى واحد والأول أكثر.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾، كانت الجبال ترجع التسبيح، وكانت الطير كذلك، فيجوز أن تكون الهاء لله -جل وعز- أي: كل لله مسبح، الطير والجبال وداود يسبحون لله -عز وجل-، ويرجعون التسبيح، ويجوز-والله أعلم- أن يكون ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ كلٌّ يرجعن التسبيح مع داود، يُجِبْنَهُ كلما سبح سبحت الجبال والطير معه.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾؛ ويجوز: «وشدَّدنا»، ولا أعلم أحداً قرأ بها، معناه: قوينا ملكه.

فكان من تقوية ملكه: أنه كان يحرس محرابه في كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفاً من الرجال.

وقيل أيضاً إن رجلاً استعدى إليه على رجل، فادعى عليه أنه أخذ منه بقراً، فأنكر المدعى عليه، فسأل داود المدعي البينة فلم يقمها، فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فتثبت داود، وقال: هو منام فأتاه الوحي بعد ذلك أن يقتله فأحضره ثم أعلمه أن الله أمره بقتله، فقال المدعى عليه: إن الله -جل وعز- ما أخذني بهذا الذنب وإني قتلت أب هذا غيلة، فقتله داود فذلك مما كان عظم الله هيبته وشدد ملكه به.

﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾؛ قيل في ذلك أن يحكم بالبينة واليمين، وقيل: في «فصل الخطاب» أن يفصل بين الحق والباطل وقيل: «أما بعد» وهو أول من قال أما بعد.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ﴾؛ المحراب: أرفع بيت في الدار، كذلك

هو أرفع مكان في المسجد والمحراب ههنا كالغرفة قال الشاعر[١] [من السريع]:

رَبَّة مِحرَابٍ إذَا جِئتُها لَم أَلقَها أو أَرتَقِي سُلَّما

و «تسوروا» يدل على علو. وقال «الخصم» ولفظه لفظ الواحد، و«تسوروا» لفظ الجماعة لأن قولك: «خصم» يصلح للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى، يقال: «هذا خصم وهي خصم وهما خصم وهم خصم» وإنما صلح لجميع ذلك لأنه مصدر، تقول: «خَصَمْتُه أَخْصِمَه خَصْمًا»؛ المعنى: هما ذوا عدل، وقال الله -تعالى-: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ﴾[الطلاق: ٢].

فمعنى: «هما عدل» هما ذوا عدل فما كان من المصادر قد وصفت به الأسماء فتوحيده جائز ولئن وصفت به الجماعة وتذكيره جائز، وإن وصفت به الأنثى تقول: «هو رضى وهما رضى» وكذلك: «هذه رضى».

وقوله -تعالى-: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾؛ لأنهم أتوه من غير مأتي الخصوم، وفي غير وقتهم وفي وقت لم يكن داود يأذن فيه أن يدخل عليه أحد فأنكر ذلك وفزع، وإنما بعث إليه ملكان فتصورا في صورة رجلين متخاصمين.

﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾؛ القراءة الرفع، والرفع لـ«خصمان»: «نحن»؛ والمعنى: نحن خصمان ولو كان في الكلام: «لا تخف خصمين بغى بعضنا على بعض لجازعلى معنى: آتيناك خصمين، لأنه أنكر إتيانهم، وإتيان الخصوم قد كان يعتاده كثيراً.

﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ﴾؛ أي: لا تَجُر، يقال: «أَشَط يُشِطّ» إذا جار، ويقرأ: «لا تُشْطِط» بمعنى: لا تبعد عن الحق، وكذلك: «لا تشطِط» بكسر الطاء وفتح التاء، معناه: كمعنى الأول قال الشاعر[٢] [من المتقارب]:

تَشُطُّ غَداً دارُ جيرانِنا وَلَلدّارُ بَعدَ غَدٍ أَبعَدُ

﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾؛ إلى قصد الطريق أي: طريق الحق.

﴿تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾؛ كني بالنعجة عن المرأة، قال الأعشى[٣] [من الكامل]:

---

(١) هو: وضاح اليمن.

(٢) هو: عمر بن أبي ربيعة.

(٣) هو: الأعشى من قصيدته التي يمدح بها قيس بن معد يكرب. انظر ديوان الأعشى (ص: ٢٤).

فَرَمَيتُ غَفلَةَ عَينِهِ عَن شاتِهِ فَأَصَبتُ حَبَّةَ قَلبِها وَطِحالَها

عني «بالشاه» ههنا المرأة.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾؛ أي: اجعلني أباً أكفلها وانزل أنت عنها.

﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾؛ غلبني في الخصومة أي: كان أقوى على الاحتجاج مني.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾؛ المعنى: بسؤاله نعجتك ليضمها إلى نعاجه.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ من الشركاء؛ تقول: «فلان خليطي وشريكي» في معنى واحد.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾؛ أي: قليل هم.

وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾؛ ويقرأ بالتخفيف «فتناه» يعنى به المكان.

ومعنى «ظن» أيقن، إلا أنه ليس بيقين عيان، أما العيان فلا يقال فيه إلا: «علم».

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً﴾؛ مكث أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه يستغفر الله من ذنبه، إلا لصلاة مكتوبة وما بدل له منه ولا ترقأ دمعته.

ويروى في التفسير: أن قصة داود والملكين سببها أن إبليس -غضب الله عليه- تمثل له في صورة طير من ذهب فسقط بقربه، فأوى إليه ليأخذه فتنحى وطلبه حتى إذا قارب أن يتناوله تنحى، فبصر داود في اتباع الطير بامرأة تغتسل وبصرت به فتجللت بشعرها حتى سترها، ويقال: إنها امرأة «أوريا بن حنان».

ويروى: إنه كتب إلى صاحب جنده أن يقدم «أوريا» في حرب كانت، فقدمه فقتل فتزوجها داود.

ويروى أن علياً -عليه السلام- قال: «من قال: إن داود -عليه السلام- قارف من هذه المرأة ريبةً؛ جلدته مائة وستين جلدة» لأن من قذف غير النبي جلد ثمانين جلدة ومن قذف نبياً جلد مائة وستين جلدة.

وكان في التفسير: أن داود أحب أن يتلف «أوريا» حتى يتزوج داود بامرأته وهذا -والله أعلم- إنما كان من داود على جهة محبة أن يتفق له ذلك من غير أن يتعمد، أو يسعى في دم الرجل، فجعله الله ذنباً لما أحبه.

ويجوز: أن يكون كتب في أن يقدم أمام التابوت هذا الرجل لبأسه ونجدته في

الحرب ورجاء كفايته، فاتفق مع ذلك أن أصيب وبه حلت له امرأته فعوتب على محبة امرأة رجل ليس له غيرها، ولداود تسع وتسعون امرأة فكان ذلك من ذنوب الأنبياء.

فلما بالغ في التوبة وجهد نفسه في الرغبة إلى الله في العفو حتى كاد أن يُتلف نفسه تائباً ومتنصلاً إلى الله من ذنبه، والله -عز وجل- قد وصف ذلك فقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقوله على -عليه السلام-: «صلى الله على داود ورحمه» يدل على صحة هذا التأويل -والله أعلم-.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾؛ بهذا جاز أن يقال للخلفاء خلفاء في الأرض.

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بحكم الله إذ كنت خليفته.

وقوله: ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾؛ أي: بتركهم العمل لهذا اليوم صاروا بمنزلة الناسين، وإن كانوا ينذرون ويذكرون.

﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أعلمهم الله إنه يعذبهم على الظن، وكذلك ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾[القصص: ٣٩]، وإنما قيل لهم هذا لأنهم جحدوا البعث ودليل هذا قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥].

إذا لم يكن رجعة لم يكن فصل بين الفاجر والبر، وبعد هذا: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ...﴾ الآية.

ثم قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾؛ المعنى: هذا كتاب ليدبروا اياته. ليكفروا في اياته وفي ادبار امورهم أي: عواقبها.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾: أي: ذوو العقول.

﴿نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾؛ المعنى: نعم العبد إنه أواب كثير الرجوع.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ﴾؛ «الصافنات» الخيل القائمة.

وقال أهل اللغة وأهل التفسير، الصافن: القائم الذي يثني إحدى يديه أو إحدى رجليه حتى يقف بها على سنبكه، وهو طرف الحافر فثلاث من قوائمه متصلة بالأرض وقائمة منها تتصل بالأرض طرف حافرها قال الشاعر(١):

أَلِفَ الصُّفُونَ فلا يَزالُ كأنه مما يَقُومُ على الثلاثِ كسيرا

---

(١) أنشده ابن الأعرابي، وهو: يزيد بن مهلهل بن يزيد الطائي. انظر اللسان: مادة: ((صفن))، والأغاني (٤٦/١٦).

وقال بعضهم؛ الصافن: القائم ثني إحدى قوائمه ولم يثنها، والخيل أكثر ما تقف إذا وقفت «صافنة» لأنها كأنها تراوح بين قوائمها.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾:

«الخير» ههنا الخيل والنبي -عليه السلام- سمى زيد الخيل: «زيد الخير»، وإنما سمي الخيل الخير لأن الخير معقود بنواصي الخيل كذا جاء في الحديث.

وكانت هذه الخيل وردت على سليمان من غنيمة جيش كان له، فتشاغل باعتراضها إلى أن غابت الشمس وفاتته صلاة العصر.

قال أهل اللغة: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني الشمس، ولم يجر للشمس ذكر - وهذا لا أحسبهم أعطوا الفكر حقه فيه-، لأن في الآية دليلاً يدل على الشمس وهو قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ والعشي: في معنى بعد زوال الشمس حتى توارت الشمس بالحجاب، وليس يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكر أو دليل بمنزلة الذكر.

وكان سليمان لهيبته لا يَجْسُر عليه أحد حتى ينبهه لوقت صلاة، ولست أدري هل كانت صلاة العصر مفروضة في ذلك الوقت أم لا، إلا أن اعتراضه الخيل قد شغله حتى جاز وقت يذكر الله -جل وعز- فيه.

ومعنى ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾؛ آثرت حب الخير على ذكر الله.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾:

«المسح» ههنا على ما جاء في التفسير، وروي أنه ضرب سوقها وأعناقها، وسوق: جمع ساق مثل: «دار ودور».

ولم يكن سليمان ليضرب أعناقها إلا وقد أباح الله ذلك لأنه لا يجعل التوبة من الذنب بذنب عظيم.

وقال قوم: إنه مسح أعناقها وسوقها بالماء وبيده، وهذا ليس يوجب شغلها إياه، أعني أن يمسحها بالماء، وإنما قال ذلك قوم لأن قتلها كان عندهم منكراً وليس ما يبيحه الله بمنكر.

وجائز أن يباح ذلك لسليمان في وقته ويحظر في هذا الوقت، ومالك يذهب إلى أنه لا ينبغي أن يؤكل لحم الخيل والبغال والحمير لقوله الله -عز وجل-: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[النحل: ٨]، وقال في الإبل: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[غافر: ٧٩].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ «فتنا» امتحنا.

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾؛ جاء في التفسير: إنه كان لسليمان ابنٌ، فخاف عليه الشياطين، لأن الشياطين كانت تقدر الراحة مما كانت فيه بموت سليمان فقالت: إن بقي له ولد لم ننفك مما نحن فيه، فغذاه في السحاب إشفاقاً عليه فمات، فألقى على كرسيه جسداً.

فجائز أن يكون هذا مجازاته على ذنبه، وجائز أن يكون ... فأثكله الله ولده.

وأكثر ما جاء في التفسير: أن ﴿جَسَداً﴾ ههنا شيطان، وأن سليمان أمر ألا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل فتزوج من غيرهم امرأة كانت تعبد غير الله فعاقبه الله بأن سلبه ملكه وكان ملكه في خاتمه فدفعه عند دخول الحمام إلى شيطان.

وجاء في التفسير: إنه يقال له «صخر» فطرحه في البحر فمكث أربعين يوماً يتيه في الأرض حتى وجد الخاتم في بطن سمكة وكان شيطان تصور في صورته وجلس مجلسه وكان أمره ينفذ في جميع ما كان ينفذ فيه أمر سليمان خلا نساء سليمان إلى أن رد الله عليه ملكه.

قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الذنب.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾: حسن مرجع.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾ أي: هب لي ملكاً يكون فيه آية تدل على نبوتي.

﴿لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ من الآدميين الذين ليسوا بأنبياء يكون له آية تدل على أنك غفرت لي ورددت إلى نبوتي والدليل على هذا قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

﴿رُخَاءً﴾ لينة، وقيل: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ ليست بشديدة كما يجب.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: اجماع المفسرين وأهل اللغة: إنه حيث أراد، وحقيقته: قصد، وكذلك قولك للمجيب في المسألة: أصبت؛ أي: قصدت فلم تخطىء الجواب.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾؛ «الشياطين» نسق على الريح.

وقوله: ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ يدل على أنه من الشياطين؛ المعنى: وسخرنا له كل بناء من الشياطين وكل غواص، وكان من يبني ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ

وَتَمَاثِيلَ﴾[سبأ: ١٣]، وكان من يغوص يخرجون له الحلية من البحر.

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾؛ مردة الجن الشياطين، سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد.

والأصفاد: السلاسل من الحديد وكل ما شددته شداً وثيقاً بالحديد وغيره فقد صفدته، وكل من أعطيته عطاء جزيلاً فقد أصفدته، كأنك أعطيته ما ترتبط به، كما تقول للمتخذ مالاً أصلاً يبقى عليه: «قد اتخذت عقدة جيدة».

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ أي: اطلق من شئت منهم.

﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾: أو احبس من شئت ولا حساب عليك في حبسه، وجائز أن يكون ﴿عَطَاؤُنَا﴾ ما أعطيناك من المال والكثرة والملك، ﴿فَامْنُنْ﴾ أي: فاعط منه.

﴿أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير منة عليك، وإن شئت بغير حساب بغير جزاء.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾:

﴿عَبْدَنَا﴾ منصوب بوقوع الفعل عليه، و﴿أَيُّوبَ﴾ بدل من ﴿عَبْدَنَا﴾ لأن أيوب هو الاسم الخاص، والاسم الخاص لا يكون نعتاً إنما يكون بدلاً مبيناً بـ﴿بِنُصْبٍ﴾ و﴿بِنَصْبٍ﴾ بفتح النون وإسكان الصاد، و﴿بِنَصَبٍ﴾ بفتح النون والصاد بمنزلة «نُصب» بضم النون.

والنصب والنصب: بمنزلة «الرشد والرشد، والبخل والبخل والعرب والعرب».

و«النَّصْبُ» بفتح النون وإسكان الصاد على أصل المصدر، و«النُّصْب والنَّصَبُ» على معنى: نَصَبْتُ نَصْباً ونُصْباً ونَصْباً على أصل المصدر.

ومعنى ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ بضر في بدني وعذاب في مالي وأهلي ويجوز أن يكون بضر في بدني وعذاب فيه.

وروي أنه مكث أيوب -عليه السلام- سبع سنين مبتلى، يسعى الدود من بدنه فنادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنت أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣].

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾؛ المعنى: قلنا له: اركض برجلك؛ معناه: دس الأرض برجلك فداس الأرض دوسة خفيفة، فنبعت له عين فاغتسل منها فذهب الداء من ظاهر بدنه، ثم داس دوسة ثانية فنبع ماء فشرب منه فغسلت الداء من باطن بدنه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ﴾؛ قيل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ أعطيناه في الآخرة ثواب

فقدهم، ووهبنا له في الدنيا مثلهم، وقيل: أحيي له أهله، ووهب له مثلهم.

﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾؛ «رحمة» منصوبة مفعول له.

﴿وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾؛ لذوي العقول.

ومعنى ﴿وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ إذا ابتلي اللبيب ذكر بلاء أيوب فصبر.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾؛ المعنى: وقلنا خذ بيدك، الضغث: الحزمة من الحشيش أو الريحان أو ما أشبه ذلك.

وجاء في التفسير: أن امرأة أيوب قالت له: «لو تقربت إلى الشيطان فذبحت له عناقاً»، قال: «ولا كفاً من تراب»، وحلف أن يجلدها إذا عوفي مائة جلدة وشكر الله لها خدمتها إياه، فجعل يمينه أن يأخذ حزمة فيها مائة قضيب فيضربها ضربة واحدة: فاختلف الناس فقال قوم هذا لأيوب -عليه السلام- خاصة، وقال قوم: هذا لسائر الناس

﴿أَوَّابٌ﴾ كثير الرجوع إلى الله.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾:

من قال ﴿عِبَادَنَا﴾ جعل ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدلاً من ﴿عِبَادَنَا﴾، ومن قرأ: «عبدنا» جعل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وحده البدل، وجعل ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطفاً على قوله: «عبدنا».

وقوله: ﴿أُولِي الأَيْدِي﴾؛ وقرئت: «الأيد» بغير ياء.

ومعنى ﴿أُولِي الأَيْدِي﴾ أولي القوة في العبادة.

﴿وَالأَبْصَارِ﴾ أي: هم ذوو بصيرة فيما يقرب إلى الله، وقد يقال للقوم: «لهم أيدي بهؤلاء» أي: هم قادرون عليهم قال الشاعر[(١)]:

فاعمِدْ لما تَعْلو فما لَك بالَّذي لا تَستطيع من الأُمورِ يَدَانِ

أي: اعمد لما تقهر ولا تعمد لما تقهر فيه، أي: فما لك قوة.

ومن قرأ ﴿أُولِي الأَيْدِى﴾ بغير ياء فمعناه من التأييد والتقوية على الشيء.

وقوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾، ويقرأ: «بخالصةِ ذكرى الدار» على إضافة «خالصة» إلى «ذكرى»، ومن قرأ بالتنوين جعل «ذكرى الدار» بدلاً من «خالصة»،

---

(١) هو: علي بن الغدير الغنوي.

ويكون المعنى: إنا أخلصناهم بذكرى الدار.

ومعنى ﴿الدَّارِ﴾ ههنا الدار الآخرة، وتأويله: يحتمل وجهين:

أحدهما: إنا أخلصناهم جعلناهم لنا خالصين، بأن جعلناهم يذكرون بالدار الآخرة ويزهدون في الدنيا وكذلك شأن الأنبياء -صلوات الله عليهم- ويجوز أن يكون بأنهم يكثرون ذكر الآخرة والرجوع إلى الله -عز وجل-.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ أي: الذين اتخذهم الله صفوة صفاهم من الأدناس كلها وأخلصهم.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ﴾؛ ويقرأ: «اللَّيْسَعَ وذا الكفل».

وكان تكفل بعمل رجل صالح، يقال: إنه كان يصلي ذلك الرجل في كل يوم مائة صلاة فتوفي الرجل الصالح فتكفل ذو الكفل بعمله فكان يعمل عمله، ويقال: إن ذا الكفل تكفل بأمر أنبياء فخلصهم من القتل فسمي: «ذا الكفل».

﴿وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾؛ المعنى: وكل هؤلاء المذكورين من الأخيار والأخيار جمع خير وأخيار مثل: ميت وأموات.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾؛ معناه -والله أعلم-: هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبداً، وأن لهم مع ذلك ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: لحسن مرجع يذكرون في الدنيا بالجميل ويرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله.

ثم بين كيف حسن ذلك المرجع فقال: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾:

﴿جَنَّاتِ﴾ بدل من ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ومعنى ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ أي: منها، وقال بعضهم: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ والمعنى واحد إلا أن على تقدير العربية «الأبواب منها» أجود من أن تجعل الألف واللام بدل من الهاء والألف لأن معنى الألف واللام ليس معنى الهاء والألف في شيء لأن الهاء والألف اسم والألف واللام دخلتا للتعريف، ولا يبدل حرف جاء لمعنى من اسم ولا ينوب عنه هذا محال.

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾؛ يعني حوراً قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم.

﴿أَتْرَابٌ﴾ أقران، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾[النبأ: ٣٣] أي: أسنانهن واحدة وهن في غاية الشباب والحسن.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ﴾ أي: ليوم تجزى كل نفس بما عملت.

ثم أعلم الله -عز وجل- أن نعيم أهل الجنة غير منقطع فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَفَادٍ﴾ أي: ما له من انقطاع.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾؛ المعنى: الأمر هذا، فـ«هذا»: رفع خبر الابتداء المحذوف وإن شئت «هذا» رفعاً بالابتداء والخبر محذوف.

و﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل من «شر مآب» أي: شر مرجع.

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾؛ بتشديد السين وتخفيفها.

و﴿حَمِيمٌ﴾ رفع من جهتين؛ إحداهما: على معنى: هذا حميم وغساق فليذوقوه، ويجوز أن يكون «هذا» على معنى تفسير ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ثم قال بعدُ: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، ويجوز أن يكون «هذا» في موضع نصب على هذا التفسير، ويجوز أن يكون في موضع رفع. فإذا كان في موضع نصب فعلى: «فليذوقوا هذا فليذوقوه»، كما قال: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤١]، ومثل ذلك: «زيداً فاضربه».

ومن رفع فبالابتداء ويجعل الأمر في موضع خبر الابتداء مثل ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[المائدة: ٣٨]، وقيل: إن معنى ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ الشديد البرد الذي يحرق من برده. وقيل: إن الغساق ما يغسق من جلود أهل النار ولو قطرت منه قطرة في المشرق لأنتنت أهل المغرب وكذلك لو سقطت في المغرب.

﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ ويقرأ «وأُخر».

﴿وَآخَرُ﴾ عطف على قوله ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي: وعذاب آخر من شكله يقول مثل ذلك الأول، ومن قرأ «وأُخر» فالمعنى: وأنواع أخر من شكله، لأن قوله: ﴿أَزْوَاجٌ﴾ معناه: أنواع.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ﴾ الفوج: هم تُبّاع الرؤساء وأصحابهم في الضلالة، وقيل لهم: ﴿لاَ مَرْحَباً﴾ منصوب كقولك: «رحبت بلادك مرحباً وصادفت مرحباً» فأدخلت «لا» على ذلك المعنى.

﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ هذا قول الاتباع للرؤساء.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً﴾ أي: زده على عذابه عذاباً آخر ودليل هذا قوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ

ضِعْفَيْنِ﴾[الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، ومعنى ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ معنى: ﴿فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً﴾.

وقوله -تعالى-: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِياً﴾ يقرأ: بقطع الألف وفتحها على معنى الاستفهام ومن وصلها كان على معنى: إنا اتخذناهم سخرياً ويقرأ ﴿سِخْرِياً﴾ و«سُخرياً» بالكسر والضم؛ والمعنى واحد، وقد قال قوم: إن ما كان من التسخير فهو مضموم الأول، وما كان من الهزؤ فهو مكسور الأول.

وقوله عزو جل: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُم أَهْلِ النَّارِ﴾ أي: إن وصفنا الذي وصفناه عنهم لحق.

ثم بين ما هو فقال: هو تخاصم أهل النار وهذا كله يعني إذا كان يوم القيامة قال أهل النار كذا، وكذلك كل شيء في القرآن مما يحكى عن أهل الجنة والنار.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: قل إنك تنذر وإنك تدعو إلى توحيد الله، ولو قرئت: «إلا الله الواحدَ القهارَ» بالنصب لجازت ولكنه لم يقرأ بها فلا تقرأن بها، ومن نصب فعلى الاستثناء ومن رفع فعلى معنى: ما إله إلا الله.

وقوله جل وعز: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾أي: قل النبأ الذي أنبأتكم به عن الله -عز وجل- نبأ عظيم، والذي أنبأتكم به دليل على نبوتي، يعني ما أنباكم به النبي -عليه السلام- من قصة آدم وأبليس، فإن ذلك لا يعلم إلا بقراءة الكتب أو بوحي من الله، وقد علم الذين خاطبهم النبي -عليه السلام- أنه يقرأ كتاباً ولا خطه بيمينه ولا كان ريب فيما يخبر به أنه وحي.

ثم بين ذلك فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ هم الملأ من الملائكة وملأ كل قرية وجوههم وأفاضلهم.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾ أي: ما علمت هذه الأقاصيص إلا بوحي من الله.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾:

تقرا على ثلاثة أوجه ﴿بِيَدَيَّ﴾ على التثنية و﴿بِيَدَيَ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بفتح الياء وتخفيفها، وتوحيد اليد وبتسكين اليد والتوحيد ﴿بِيَدْي أَسْتَكْبَرْتَ﴾.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: فإنك لعين؛ معناه: فإنك مرجوم باللعنة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم تدان كل نفس بما كسبت، ومعنى ﴿يَوْمِ

﴿الدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

﴿إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ﴾ الذي لا يعلمه إلا الله، و﴿يَوْمِ الوَقْتِ﴾ يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام أخلصهم الله لعبادته، ومن كسر اللام فإنما أراد الذين أخلصوا دينهم الله.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ وقرئت: «قال الحق والحق أقول» بنصبها جميعاً فمن رفع فعلى ضربين على معنى فأنا الحق والحق أقول، ويجوز رفعه على معنى: فالحق مني، ومن نصب فعلى معنى: فالحق أقول، والحق لأملأن جهنم حقاً.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾؛ أي: بعد الموت.

* * *

سورة الزمر

مكية

ما خلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة قوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ إلى تمام ثلاث آيات.

يقال: «سورة الغرف»، ويقال: «سورة الزمر».

روي عن وهب بن منبه أنه قال: «من أحب أن يعرف قضاء الله في خلقه فليقرأ سورة الغرف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب ههنا القرآن ورفع ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ من جهتين:

إحداهما: الابتداء ويكون الخبر من الله، أي: نزل من عند الله. ويجوز أن يكون رفعه على: هذا تنزيل الكتاب.

وقوله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾:

﴿الدِّينَ﴾ منصوب بوقوع الفعل عليه، و﴿مُخْلِصاً﴾ منصوب على الحال، أي: فاعبد الله موحداً لا تشرك به شيئاً.

وزعم بعض النحويين أنه يجوز: «مخلصاً له الدينُ»، وقال: يرفع «الدين» على قولك: مخلصاً له الدينُ، ويكون ﴿مُخْلِصاً﴾ تمام الكلام، ويكون ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ ابتداء، وهذا لا يجوز من جهتين:

إحداهما: أنه لم يقرأ به والأخرى أنه يفسده ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾، فيكون ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ مكرراً في الكلام، لا يحتاج إليه وإنما الفائدة في ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ تحسن بقوله: ﴿مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾.

ومعنى إخلاص الدين ههنا: عبادة الله وحده لا شريك له وهذا جرى تثبيتاً للتوحيد ونفياً للشرك، ألا ترى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: فأخلص أنت الدين ولا تتخذ من دونه أولياء فهذا كله يؤكد ﴿مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾.

وموضع ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾: «الذين» رفع بالابتداء وخبر

«هم» محذوف في الكلام دليل عليه؛ المعنى: والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، والدليل على هذا أيضاً قراءة أُبي: «ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله» هذا تصحيح الحكاية،؛ المعنى: يقولون لأوليائهم: ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله زلفى وعلى هذا المعنى: يقولون ما نعبدهم أي: يقولون لمن يقول لهم: لم عبدتموهم؟ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، أي: قربى.

ثم أعلم -عز وجل- أنه لا يهدي هؤلاء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

ثم أعلم -جل وعز- أنه -تعالى- عن هذه الصفة فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن ذلك.

﴿هُوَ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ وفي هذا دليل أن الذين اتخذوا من دونه أولياء قد دخل فيهم من قال: أن عيسى ابن الله -جل وعز- عن ذلك، ومن قال: العزير ابن الله.

ثم بين -جل وعز- ما يدل على توحيده بما خلق ويعجز عنه المخلوقون فقال: ﴿خَلَقَكُم مِن نفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

«ثم» لا تكون إلا لشيء بعد شيء والنفس الواحدة يعني بها: آدم، و﴿زَوْجَهَا﴾: حواء، وإنما قوله «ثم» لمعنى ﴿خَلَقَكُم مِن نفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خلقها واحدة ثم جعل منها زوجها أي: خلقها ثم جعل منها زوجها قبلكم.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ يعني من الإبل ذكر وأنثى، ومن البقر ذكر وأنثى ومن الضأن كذلك، ومن المعز ذكر وأنثى، يقال للذكر والأنثى: زوجان كل واحد منهما يقال له: «زوج».

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾؛ نُطفاً ثم عَلَقاً ثم مُضغاً ثم عظاماً ثم تكسى العظام لحماً ثم تصور وتنفخ فيها الروح فذلك معنى قوله: ﴿خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ في البطن والرحم والمشيمة وقد قيل: في الأصلاب والرحم والبطن.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾؛ المعنى: الذي دبر الخلق هذا التدبير ليس كمثله شيء.

﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؛ المعنى: فمن أين تصرفون عن طريق الحق، مثل: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعدلون عن الحق بعد هذا البيان الذي يدل على صحة التوحيد.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؛ معناه: يرضى الشكر، لأن قوله «أن تشكروا» يدل على الشكر.

وقوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾؛ لا يؤخذ أحد بذنب أحد.

وقوله جل وعز: ﴿مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ أي: تائباً إليه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ أي: أذهب الضر عنه وأنعم عليه.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾؛ يقول: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به إلى الله - جل وعز- وجائز أن يكون معناه: نسي الله الذي كان يتضرع إليه من قبل، ومثله: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[الكافرون: ٤، ٥]، فكانت «ما» تدل على الله و«من» عبارة عن كل مميز «ما» يكون لكل نوع تقول: «ما عندك؟» فيكون الجواب: «رجل أو فرس» أو ما شئت من الأجناس فيدخل المميز في «ما» من جهة دخولها على الأجناس.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ لفظ هذا لفظ أمر، ومعناه: التهديد والوعيد، ومثله ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٥٥]، ومثله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩]، ومثله قوله لمن يتهدده: «عُدْ لما أكره وَحَسْبُكَ» فأنت لست تأمره في المعنى، وإنما توعده وتتهدده.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾؛ ساعات الليل، وأكثر القراءة بالتشديد الميم على معنى: بل أم من هو قانت.

والقانت: المقيم على الطاعة، ودعاء القنوت الدعاء في القيام، فالقانت: القائم بما يجب عليه من أمر الله.

ويقرأ: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ بتخفيف الميم؛ وتأويله: أمن هو قانت كهذا الذي ذكرنا ممن جعل له أنداداً، وكذلك ﴿أَمَّنْ﴾ معناه: بل أَمَنْ هو قانت كغيره، أي: أمن هو مطيع كمن هو عاص.

﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ معناه: يحذر عذاب الآخرة.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يستوي العالم والجاهل، وكذلك لا يستوي المطيع والعاصي.

و﴿أُولُو الأَلْبَابِ﴾؛ ذوو العقول، وواحد ﴿الأَلْبَابِ﴾ لب، وهي العقول.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾؛ ذكر «سعة الأرض» ههنا لمن كان يعبد الأصنام، وأمرنا بالمهاجرة عن البلد الذي يكره فيه على عبادتها كما قال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[النساء: ٩٧]، وقد جرى ذكر الأوثان في قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: من صبر على البلاء في طاعة الله أعطي أجره بغير حساب.

جاء في التفسير: بغير مكيال وغير ميزان يغرف له غرفاً، وهذا وإن كان الثواب على بعضه كيل ولا وزن مما يتنعم به الإنسان من اللذة والسرور والراحة، فإنه يمثل ما يعلم بحاسة القلب بما يدرك بالنظر فيعرف مقدار القلة من الكثرة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ يقول: إني أمرت بتوحيد الله وأمر الخلق كلهم بذلك وألا يتخذ دونه ولياً ولا يجعل له أنداداً.

وقوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِن دُونِهِ﴾ هذا على ما قلنا من الوعيد مثل قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ وهذا يدل -والله أعلم- على أنه أن يؤمر المسلمون بالحرب، وهو مثل ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩]، وقد بين حظ المؤمنين من جزيل الثواب وحظ الكافرين من عظيم الثواب.

وقوله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾؛ هذا يعنى به الكفار فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد في النار وخسروا أهليهم لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، ثم بين حالهم فقال ﴿أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ * لَهُم مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾، وهذا مثل قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[العنكبوت: ٥٥].

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾؛ أي: ذلك الذي وصف من العذاب وما أعده لأهل الضلال الذي يخوف الله به عباده.

﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ القراءة بحذف الياء وهو الاختيار عند أهل العربية، ويجوز: «يا عباديْ ويا عباديَ»، والحذف أجود وعليه القراءة.

وقوله ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ أي: الذين اجتنبوا الشياطين أن يتبعوهم.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ البُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾

وهذا فيه -والله أعلم- وجهان:

أحدهما: أن يكون يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، وجائز أن يكون يستمعون جميع ما أمر الله به فيتبعون أحسن ذلك نحو: القصاص والعفو فإن من عفا وترك ما يجب له أعظم ثواباً ممن اقتص، ومثله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣]، ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِن سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤١].

وقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾؛ هذا من لطيف العربية ومعناه معنى الشرط والجزاء، وألف الاستفهام ههنا معناها معنى التوقيف، والألف الثانية في ﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ جاءت مؤكدة معادة لما طال الكلام لأنه لا يصلح في العربية أن تأتي بألف الاستفهام في الاسم، وألف أخرى في الخبر؛ والمعنى: أفمن حق عليه كلمة العذاب أفانت تنقذه، ومثله ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾[المؤمنون: ٣٥] أعاد «أنكم» ثانية؛ والمعنى: أيعدكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون، ويكون -والله أعلم- على وجه آخر على أنه حذف، وفي الكلام دليل على المحذوف على معنى: أفمن حق عليه العذاب يتخلص منه، أو ينجو منه أفأنت تنقذه أي: لا يقدر أحد أن ينقذ من أضله الله وسبق في علمه أنه من أهل النار.

وقوله -جل وعز-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾:

جاء في التفسير: أن كل ما في الأرض فابتداؤه من السماء.

ومعنى ﴿يَنَابِيعَ﴾ الأمكنة التي ينبع منها الماء، وواحد «الينابيع: ينبوع» وتقدرة: «يفعول» من: نَبَع يَنْبُع.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ القراءة بالنصب ويجوز: «وعدُ الله» فمن نصب وهي القراءة فبمعنى ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾، لأن المراد: وعدهم الله غرفاً وعداً فوعد الله منصوب على المصدر ومن رفع فالمعنى: ذلك وعد الله.

وقوله -جل وعز-: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾:

﴿أَلْوَانُهُ﴾ خضرة وصفرة وحمرة وبياض وغير ذلك.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ يجف، قال الأصمعي: يقال للنبت إذا تم جفافه قد هَاجَ يَهِيجُ هَيْجَاً.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾؛ الحطام: ما تفتت وتكسر من النبت وغيره، ومثل الحطام الرفات والدَّرين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أي: تفكر لذوي العقول فيذكرون ما لهم في هذا من الدلالة على توحيد الله -جل وعز-.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَبِّهِ﴾؛ فهذه الفاء فاء المجازاة؛ والمعنى: أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته، والجواب متروك لأن الكلام دال عليه، ويؤكد ذلك قوله -جل وعز- ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يقال: قسا قلبه عن ذكر الله ومن ذكر الله، فمن قال: «من ذكر الله» فالمعنى: كلما تلي عليه ذكر الله قسا قلبه كما قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[التوبة: ١٢٥]، ومن قال: «عن ذكر الله» فالمعنى: إنه غلظ قلبه وجفا عن قبول ذكر الله.

﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ يعني القاسية قلوبهم.

وقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ يعني القرآن.

ومعنى ﴿مُتَشَابِهاً﴾ يشابه بعضه بعضاً في الفضل والحكمه لا تناقص فيه.

و﴿كِتَاباً﴾ منصوب على البدل من ﴿أَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾.

وقوله: ﴿مَثَانِيَ﴾ من نعت قوله ﴿كِتَاباً﴾ منصوب على النعت، ولم ينصرف ﴿مَثَانِيَ﴾ لما فسرناه من أنه جمع ليس على مثال الواحد.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ يقول: إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين من الله.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ يقال للذي وهبه الله لهم من خشيته وخوف عذابه ورجاء رحمته: هدى الله.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ هذا مما جوابه محذوف؛ المعنى: كمن يدخل الجنة.

وجاء في التفسير: أن الكافر يُلقى في النار مغلولاً لا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾.

﴿عَرَبِياً﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: ضربنا للناس في هذا القرآن ما فيه من الأمثال حال عربيته وبيانه، وذكر ﴿القُرْآنِ﴾ توكيداً كما تقول: «جاءني زيد رجلاً صالحاً، وجاءني عمرو إنساناً عاقلاً» فتذكر رجلاً و«إنسانا» توكيداً.

وقوله جل وعز: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً﴾ إلى قوله: ﴿وَرَجُلاً سَالِماً لِرَجُلٍ﴾ ويقرأ: ﴿سَلَماً﴾ و«سِلْماً» فـ﴿سَالِماً﴾ على معنى اسم الفاعل سَلِم فهو سَالِم وسَلْم وسِلْم مصدران وصف بهما على معنى، ورجلاً ذا سلم ومثله جاء من المصادر «فِعْلا وفَعَلا» قولهم: رَبِحْتُ رِبْحَاً ورَبْحاً قال الشاعر(1) [من الوافر]:

إذا الحَسناءُ لَم تَرحَض يَدَيها وَلَم يُقصَر لَها بَصَرٌ بِسَترِ
قَروا أَضيافَهُم رَبَحاً بِبُحٍّ تَجيءُ بِعبقَرِيِّ الوَدقِ سُمرِ

أي: قروا أضيافهم بذبح القداح التي يضربون بها في الميسر.

وتفسير هذا المثل أنه ضرب لمن وحد الله ولمن جعل له شركاء، فالذي وحد الله مثله مثل السَّالِم لرجل لا يشركه فيه غيره، ومثل الذي يعبد غير الله مثل صاحب الشركاء المتشاكسين و«الشركاء المتشاكسون» المختلفون العسيرون الذين لا يتفقون.

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أي: هل يستوي مثل الموحد ومثل المشرك.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يختصم المؤمن والكافر ويخاصم المظلوم الظالم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾؛ المعنى: أي: أحد أظلم ممن كذب على الله وكذب نبيه -عليه السلام-.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾؛ روي عن علي -رحمه الله- أنه قال: «الذي جاء بالصدق: محمد -عليه السلام-، والذي صدق به: أبو بكر رحمه الله».

وروي: «أن الذي جاء بالصدق: جبريل، والذي صدق به: محمد -صلى الله عليهما-».

وروي: «أن الذي جاء بالصدق: محمد، وصدق به: المؤمنون».

وجميع هذه الوجوه صحيح.

---

(١) خفاف بن ندبة السلمي.

والذي جاء في حرف ابن مسعود «والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به»،و«الذين» ههنا و«الذي» في معنى واحد، توحيده لأنه غير موقت جائز وهو بمنزلة قولك: «من جاء بالصدق وصدق به».

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، و«الذي» ههنا للجنس؛ المعنى: والقبيل الذي جاء بالصدق، وقوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يدل على معنى الجماعة ومثله من الشعر:

إِنَّ الذِي حَانَتْ بِفَلَجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ القَوْمُ كُلُّ القَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ويقرأ «عباده» ولو قرئت «كافي عبده» و«كافي عباده» لجازت ولكن القراءة سنة لا تخالف ومعنى ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ يدل على النصر وعلى أنه كقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[الفتح: ٢٨]، وهو مثل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[الحجر: ٩٥].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: يخوفونك بآلهتهم وأوثانهم.

ويروى أن النبي -عليه السلام- بعث خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها فلما جاء خالد قال له سادنها: أُحذركها يا خالد أن لها شدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها فهذا معنى ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ لأن تخويفهن خالداً هو تخويفهم النبي -عليه السلام- لأنه وجَّهه.

ثم أعلم مع عبادتهم العزى والأوثان أنهم مقربون بأن الله خالقهم فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾، ويقرأ ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ بترك التنوين والخفض في ﴿ضُرِّهِ﴾ و﴿رَحْمَتِهِ﴾ فمن قرأ بالتنوين فلأنه غير واقع في معنى: هل يكشفن ضره أو يمسكن رحمته ومن أضاف وخفض فعلى الاستخفاف وحذف التنوين وكلا الوجهين حسن قرئ بهما.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾، «وعلى مكاناتكم» هذا اللفظ أمر على معنى: الوعيد والتهدد بعد أن أعلموا ما يجب أن يعملوا به، ثم قيل لهم: ﴿مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩] وهذا كلام يستعمله النا س في التهدد والوعيد، تقول: «متى أسأت إلى فلان انتقمت منك» و«متى أحسنت إليه أحسنت إليك»، «فاعمل ما شئت واختر لنفسك» فخوطب العباد على قدر مخاطباتهم وعلمهم.

وقوله على ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ و«مكاناتكم» ومعناه: على ناحيتكم التي اخترتموها وجهتكم التي تمكنتم عند أنفسكم في العلم بها.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ولم يقل: «على جهتي» لأن في الكلام دليلاً على ذلك.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: ما أنت عليهم بحفيظ.

ثم أخبر بأنه الحفيظ عليهم القدير فقال ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ فالله يتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، فالميتة المتوفاة وفاة الموت التي قد فارقتها النفس التي يكون بها الحياة والحركة، والنفس التي تميز بها والتي تتوفى في النوم نفس التميز لا نفس الحياة لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس فهذا الفرق بين نفس النائم في النوم ونفس الحي.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ معنى ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت؛ وكانوا أعني المشركين إذا ذكر الله فقيل: «ولا إله إلا الله» نفروا من هذا لأنهم كانوا يقولون: اللات والعزى، وهذه الأوثان آلهة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾؛ أعطيناه ذلك تفضلاً، وكل من أعطى على غير جزاء فقد خول.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾؛ أي: أعطيته على شرف وفضل يجب له به هذا الذي أعطيت، فقد علمت أني سأعطى هدى.

فأعلم الله أنه قد يعطى اختباراً وابتلاء فقال: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: تلك العطية فتنة من الله وبلوى يبتلى بها العبد ليشكر أو يكفر.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ يقول: فأحبطت أعمالهم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: إلى الله مرجعهم فيجازيهم بأعمالهم.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ ومعنى ﴿لاَ تَقْنَطُوا﴾؛ لا تيأسوا.

وجاء في التفسير: إن قوماً من أهل مكة، قالوا: إن محمداً يقول: إن من عبد الأوثان، واتخذ مع الله إلهاً، وقتل النفس لا يغفر له فأعلم الله أن من تاب وآمن غفر الله له كل ذنب فقال: ﴿لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾، وقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي: توبوا.

وقيل: نزلت في قوم فتنوا في دينهم وعذبوا بمكة فرجعوا عن الإسلام فقيل: إن هؤلاء لا يغفر لهم بعد رجوعهم عن الإسلام فأعلم الله أنهم إن تابوا وأسلموا غفر لهم.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم﴾ يعني القرآن ودليله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾؛ ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾؛ أي: يا ندماً، وحرف النداء يدل على تمكن القصة من صاحبها إذا قال القائل: يا حسرتاه ويا ويلاه، فتأويله: الحسرة والويل قد حلا به، وإنهما لا زمان له غير مفارقين، ويجوز: «يا حسرتي».

وزعم الفراء: إنه يجوز: «يا حسرتاه على كذا وكذا» بفتح الهاء، و«يا حسرتاه» بكسر والضم، والنحويين أجمعوا لا يجيزون أن تثبت هذه هذه إلهاً في الوصل، وزعم أنه أنشده من بني فقعس رجل من بني أسد:

يَا رَبُّ يَا رَبَّاهُ إِيَّاكَ أَسَلْ   عَفْرَاءُ يَا رَبَّاهُ مِنْ قَبْلِ الأَجَلِ

وأنشده أيضاً:

* يَا مَرْحَباً بِحَمارِ نَاجِيه *

والذي أعرف أن الكوفيين ينشدون:

* يَا مَرْحَباً بِجَمارِ نَاجِيه *

قال أبو إسحاق: ولا أدري لم استشهد بهذا ولم يقرأ به قط ولا ينفع في تفسيرهذه الآية شيئاً وهو خطأ.

ومعنى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾؛ خوف أن تقول نفس وكراهه أن تقول نفس؛ المعنى: اتبعوا أحسن ما أنزل خوفاً أن تصيروا إلى حال يقال فيها هذا القول، وهي حال الندامة.

ومعنى ﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ في أمر الله أي: فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه وهو توحيده والإقرار بنبوة رسول الله -عليه السلام-.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المستهزئين.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ إلى قوله ﴿فَأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾:

أي: وكراهة أن تقول هذا القول الذي يؤدي إلى مثل هذه الحال التي الإنسان فيها في الدنيا، لأن الله قد بيّن طرق الهدى، والحي في نيته بمنزلة من قد بعث، لأن الله خلقه من

نطفة وبلغه إلى أن ميز فالحجة عليه.

وقوله ﴿بَلَى﴾ جواب النفي، وليس في الكلام لفظ النفي.

ومعنى ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي﴾ و﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ كأنه قيل: ما هديت، فقيل: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾، وقال الله -تعالى-: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام: ٢٨] أي: حيث قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾[الأنعام: ٢٧].

وقد رويت عن النبي -عليه السلام- بكسر الكاف: «بل قد جاءتكِ آياتي» جواب للفظ النفس كما قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾.

وإذا قال: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ بالفتح فلأن النفس تقع على الذكر والأنثى، فخوطب المذكرون، ومثل ﴿قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ على خطابه المؤنث: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ القراءة على رفع ﴿وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ على الابتداء والخبر، ويجوز ﴿وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ على البدل من ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا﴾؛ المعنى: ويوم القيامة ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة، والرفع أكثر وعليه القراء ومثل النصب قول عدي بن زيد:

دَعِينِي إِنَّ أَمْرَكِ لَنْ يُطاعا وما أَلْفَيْتِنِي أَمْرِي مُضاعا

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ و«بمفازتهم» يقرأن جميعاً.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح السماوات؛ المعنى: ما كان من شيء من السماوات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾؛ أي: الذين يقولون إن شيئاً ليس مما خلق الله أو رزقه من السماوات والأرض فليس الله خالقه أولئك هم الخاسرون.

ثم أعلم الله -جل وعز- أنه إنما ينبغي أن يعبد الخالق وحده لا شريك له فقال: قل لهم بعد هذا البيان: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ﴾:

﴿أَفَغَيْرَ﴾ منصوب بـ﴿أَعْبُدُ﴾ لا بقوله ﴿تَأْمُرُونِّي﴾؛ المعنى: أفغير الله أعبد أيها الجاهلون فيما تأمرونني.

﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ﴾ نصب لفظ ﴿اللهَ﴾ -جل وعز- بقولك ﴿فَاعْبُدْ﴾ وهو إجماع في قول البصريين والكوفيين، والفاء جاءت على معنى المجازاة كأنه قال: قد تبينت فاعبد الله.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ويقرأ ﴿قَدَرِهِ﴾ بفتح الدال.

جاء في التفسير: ما عظموه حق عظمته، والقَدْر والقَدَر ههنا بمعنى واحد.

﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾: ﴿جَمِيعاً﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: والأرض إذا كانت مجتمعة قبضته يوم القيامة.

﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾؛ أكثر القراءة رفع ﴿مَطْوِيَّاتٌ﴾ على الابتداء والخبر، وقد قرئت: «والسموات مطوياتٍ» بكسر التاء على معنى: والأرض جميعاً والسموات قبضته يوم القيامة و«مطويات» منصوب على الحال.

وقد أجاز بعض النحويين «قبضته» بنصب التاء وهذا لم يقرأ به، ولا يجيزه النحويون البصريون؛ لا يقولون: «زيد قبضتك» ولا «المال قبضتك» على معنى: في قبضتك، ولو جاز هذا لجاز: «زيد دارك» يريدون: زيد في دارك.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وقد فسرناه.

﴿فَصَعِقَ﴾ أي: مات.

﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾؛ وجاء في التفسير: إنه القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل.

وقال بعض أهل اللغة: هو جمع صورة.

﴿إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ جاء في التفسير: إن هذا الاستثناء وقع على جبريل وميكائيل وملك الموت. وجاء أن الاستثناء على حملة العرش.

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ معناها: لما أراد الله الحساب والمجازاة أشرقت الأرض.

وفي الحديث النبي -عليه السلام- أنه قيل له: أترى ربنا يا رسول الله فقال: «**أتضارون في رؤية الشمس والقمر في غير سحاب**» قالوا: لا، قال: «**فإنكم لا تضارون في رؤيته**».

وجاء في الحديث: «**لا تضامون في رؤيته**».

والذي جاء في الحديث مخفف: «تضارُون وتضامون» وله وجه حسن في العربية.

وهذا موضع يحتاج إلى أن يستقصى تفسيره لأنه أصل في السنة والجماعة، ومعناه: لا ينالكم ضير ولا ضيم في رؤيته أي: ترونه حتى تستووا في الرؤية فلا يضيم بعضكم

بعضاً ولا يضير بعضكم بعضاً.

وقال بعض أهل اللغة قولين آخرين: قالوا «لا تضارُّون» بتشديد الراء «ولا تضامُّون» بتشديد الميم مع ضم التاء في «تضامون وتضارون».

وقال بعض أهل اللغة بفتح التاء وتشديد الراء: «تَضارّون في رؤيته ولا تَضامّون» على معنى: «تتضارون وتتضامون» وتفسير هذا: أنه لا يضام بعضكم بعضاً ولا يخالف بعضكم بعضاً في ذلك. يقال: «ضَارَرْت الرَّجُل أُضَارُّه مُضَارَّة وضِرَاراً» إذا خالفته، قال نابغة بني جعدة [المتقارب].

وَخَصمَي ضِرارٍ ذَوَي تُدرَإٍ مَتَى يَأتِ سِلمُهُما يَشغَبِ

ومعنى: «لا تضامون في رؤيته» لا ينضم بعضكم إلى بعض، ويقول واحد للآخر: أرينه كما تفعلون عند النظر إلى الهلال فهذا تفسير بّين وكل ما قيل في هذا.

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ﴾: ألبست الإشراق بنور الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ إلى قوله ﴿خَالِدِينَ﴾: اختلف الناس في الجواب لقوله ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا﴾ فقال قوم: الواو مسقطة؛ المعنى: حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها.

قال أبو إسحاق: سمعت محمد بن يزيد يذكر أن الجواب محذوف وأن المعنى: حتى إذا جاؤوها إلى آخر الآية سعدوا، قال: فالمعنى في الجواب: حتى إذا كانت الأشياء صاروا إلى السعادة.

وقال قوم: حتى إذا جاؤها جاؤوها وفتحت أبوابها فالمعنى عندهم: إن جَاؤُوهَا محذوف وعلى معنى قول هؤلاء إنه اجتمع المجيء مع الدخول في حال؛ المعنى: حتى إذا جاؤوها وقع مجيئهم مع فتح أبوابها.

قال أبو إسحاق: والذي قلته أنا وهو القول -إن شاء الله- أن المعنى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ دخلوها، فالجواب «دخلوها» وحذف لأن في الكلام دليلاً عليه.

ومعنى ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: كنتم طيبين في الدنيا لم تكونوا خبيثين أي: لم تكونوا أصحاب خبائث.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾؛ يعني أرض الجنة نتخذ منها المنازل ما شئنا، والعرب

تقول لكل من اتخذ منزلاً: «تبوأ فلان منزلاً».

﴿وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ﴾؛ معنى ﴿حَافِّينَ﴾ محدقين وكذا جاء في التفسير.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ فابتدأ الله -عز وجل- خلق الأشياء بالحمد وختمه بالحمد، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[الأنعام: ١]، فلما أفنى الخلق وبعثهم وحكم بينهم فاستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ختم بقوله: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

* * *

سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ الحواميم كلها مكية، نزلت بمكة قال النبي -عليه السلام-: «مثل الحواميم في القرآن كمثل الحبرات في الثياب».

وقال ابن مسعود: «الحواميم ديباج القرآن».

وجاء في التفسير عن ابن عباس -رحمه الله- ثلاثة أقوال في ﴿حم﴾ قال: «اسم الله الأعظم» وقال ﴿حم﴾ قسم، وقال: ﴿حم﴾ حروف الرحمن مقطعة؛ والمعنى: ﴿الر﴾ و﴿حم﴾ بمنزلة: «الرحمن» وقد فسرنا إعراب حروف الهجاء في أول البقرة.

والقراءة فيها على ضربين ﴿حَم﴾ بفتح الحاء و ﴿حِم﴾ بكسر الحاء، فأما الميم فساكنة في قراءة القراء كلهم إلا عيسى بن عمر فإنه قرأ: ﴿حم * وَالْكِتَابِ﴾[الدخان: ١، ٢]، بفتح الميم وهو على ضربين:

أحدهما: أن يجعل ﴿حم﴾ اسماً للسورة فَنَصَبه ولا ينونه، لأنه على لفظ الأسماء الأعجمية نحو: «قابيل وهابيل»، ويكون المعنى: اتل حم، والأجود أن يكون فتح لالتقاء الساكنين حيث جعله اسماً للسورة، ويكون حكاية حروف هجاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ﴾؛ على صفات الله.

فأما خفض ﴿شَدِيدِ العِقَابِ﴾ فعلى البدل لأنه مما يوصف به النكرة.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ معناه: ذي الغنى والفضل والقدرة. تقول لفلان على فلان طول إذا كان له عليه فضل.

وقوله -جل وعز-: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ المعنى: في دفع آيات الله بالباطل ليدحض به الحق إلا الذين كفروا.

ومعنى ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلادِ﴾ أي: فلا تغررك سلامتهم بعد كفرهم حتى أنهم يتصرفون كيف شاؤوا، فإن عاقبة كفرهم العذاب والهلاك.

ثم بين كيف ذلك وأعلم أن الأمم التي كذبت قبلهم أنهم أهلكوا بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأحزاب مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ يعني: عاداً وثموداً وقوم لوط والأمم التي أهلكت بين ذلك.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: ليتمكنوا منه فيقتلوه.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: ليدفعوا به الحق.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: جعلت جزاءهم على إرادة أخذ الرسل إن أخذتهم فعاقبتهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: أنهم يجتازون بالأمكنة التي أهلك فيها القوم فيرون آثار الهلاك.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ومثل ذلك حقت كلمة ربك يعني به قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[الأعراف: ١٨].

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ويجوز «أنهم».

ثم أخبر -جل وعز- بفضل المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ يعني الملائكة.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالمؤمن تستغفر له الملائكة المقربون.

ويعني: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾؛ المعنى: يقولون: ربنا وسعت كل شيء، أي: تقول الملائكة.

وقوله: ﴿رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ منصوب على التمييز.

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: لزموا طريق الهدى التي دعوت إليها.

وقوله -تعالى-: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾؛ «من» في موضع نصب عطف على الهاء والميم في قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، أي: وادخل من صلح.

ويصلح أن يكون عطفاً على الهاء والميم في قوله: ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾ فيكون المعنى: وعدتهم ووعدت من صلح من آبائهم.

وقوله -تعالى-: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ معناه: أن الذين كفروا ينادون إذا كانوا في حال العذاب لمقت الله إياكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

﴿أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ إذ عذبتم في النار.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي: قد أريتنا من الآيات ما أوجب علينا أن نعترف ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ﴾.

وقالوا في ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي: خلقتنا أمواتاً ثم أحييتنا ثم أمتنا بعد ثم بعثتنا بعد الموت.

وقد جاء في بعض التفاسير: أن إحدى الحياتين وإحدى الموتتين أن يحيا في القبر ثم يموت فذلك أدل على أحييتنا وأمتنا، والأول أكثر في التفسير.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾:

جاء في التفسير: إن الروح الوحي، وجاء: إن الروح القرآن، وجاء: إن الروح أمر النبوة فيكون المعنى: تلقي الروح أو أمر النبوة على من تشاء على من تختصه بالرسالة.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ أي: لينذر النبي -عليه السلام- بالذي يوحى إليه التلاق، ويجوز أن يكون لينذر الله يوم التلاق.

والأجود -والله أعلم- أن يكون لينذر النبي -عليه السلام-، والدليل على ذلك: أنه قرئ: ((لتنذر يوم التلاق)) بالتاء، ويجوز: ((يوم التلاقي)) بإثبات الياء والحذف جائز حسن، لأنه آخر آية.

ومعنى ((التلاقي)) يوم يلتقي أهل الأرض وأهل السماء.

وتأويل ((الروح)) فيما فسرنا: أنه حياة الناس لأن كل مهتد حي وكل ضال كالميت، قال الله -عز وجل- ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النحل: ٢١]، وقال ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[الأنعام: ١٢٢]، وهذا جائز في خطاب الناس يقول لمن لا يفقه عنه ما فيه صلاحه: ((أنت ميت)).

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ﴾؛ معنى ((أنذرهم)) خوفهم والآزفة يوم القيامة كذا جاء في التفسير.

وإنما قيل لها ((آزفة)) لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها، يقال: ((قد أزف الأمر)): إذا قرب.

وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾؛ نصب ﴿كَاظِمِينَ﴾ على الحال، والحال محمولة على المعنى: لأن القلوب لا يقال لها كاظمة وإنما الكاظمون أصحاب القلوب.

والمعنى: إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم.

وجاء في التفسير: أن القلب من الفزع يرتفع فيلتصق بالحنجرة فلا يرجع إلى مكانه ولا يخرج فيستراح من كرب غمه.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾؛ ﴿يُطَاعُ﴾ من صفة شفيع أي: ولا من شفيع مطاع.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ إذا نظر الناظر خيانة علمها الله، فإذا نظر أول نظرة غير متعمد خيانة فذلك غير آثم، فإن عاد ونيته الخيانة في النظر علم الله ذلك، والله -عز وجل- عالم الغيب والشهادة، ولكنه ذكر العلم ههنا ليعلم أن المجازاة لا محالة واقعة.

وقوله -عز وجل- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي: بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته من العصا، وإخراج يده بيضاء من غير سوء وأشباه ذلك.

﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾: أي: حجة ظاهرة.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾؛ هذه الأسماء في موضع خفض إلا أنها فتحت لأنها لا تنصرف لأنها معرفة وهي أعجمية.

﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾؛ المعنى: فقالوا هو ساحر كذاب، جعلوا أمر الآيات التي يعجز عنها المخلوقون سحراً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾؛ وإنه كان قيل لفرعون: إن ملكه يزول بسبب غلام يولد، فقيل: افعلوا هذا حتى لا ينجو المولود.

﴿وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾؛ أي: يذهب باطلاً ويحيق الله به ما يريد.

وقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ﴾؛ على هذا مصاحف أهل العراق، وفي مصحف أهل الحجاز: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾ بغير ألف، ويجوز ﴿وَأَن يُظْهِرَ﴾، ومعنى «أو» وقوع أحد الشيئين فالمعنى: على «أو» أن فرعون قال: إني أخاف أن يبدل دينكم أو يفسد فجعل طاعة الله -تعالى- هي الفساد.

فيكون المعنى: إني أخاف أن يبطل دينكم البتة، فإن لم يبطله أوقع فيه الفساد ومن قرأ «وأن» فيكون المعنى: أخاف إبطال دينكم والفساد معه.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾؛ جاء في التفسير:

أن هذا الرجل أعني مؤمن آل فرعون كان يسمى: «سمعان»، وقيل: كان اسمه «حبيباً»، ويكون ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة للرجل، ويكون ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ معه محذوف، ويكون المعنى: يكتم إيمانه منهم.

ويكون ﴿يَكْتُمُ﴾ من صفة رجل فيكون المعنى: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾؛ المعنى: لأن يقول ربي الله.

﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ﴾؛ أي: بما يدل على صدقه من آيات النبوة.

﴿وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾: أي: فلا يضركم.

﴿وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾؛ وهذا من لطيف المسائل لأن النبي -عليه السلام- إذا وعد وعداً وقع الوعد بأسره لم يقع بعضه، فالسؤال في هذا من أين جاز أن يقول بعض الذي يعدكم، وحق اللفظ كل الذي يعدكم فهذا باب من النظر يذهب فيه الناظر إلى إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر، وليس في هذا نفي إصابة الكل ومثل هذا قول الشاعر[1] [من البسيط]:

قد يُدرِكُ المتأني بَعضَ حاجَتِهِ وقد يكونُ مع المُستَعجِلِ الزَّلَلُ

إنما ذكر البعض ليوجب له الكل لا أن البعض هو الكل، ولكن للقائل إذا قال: أقل إما يكون للمتأني إدراك بعض الحاجة، وأقل ما يكون للمستعجل الزلل، فقد أبان فضل المتاني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعه.

وكأن مؤمن آل فرعون قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم وفي بعض ذلك هلاككم فهذا تأويله -والله أعلم-.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾؛ هذه حكاية قوم آل فرعون؛ أعلمهم الله أن لهم الملك في حال ظهورهم على جميع الناس.

ثم أعلمهم أن بأس الله لا يدفعه دافع ولا ينصر منه ناصر فقال: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾.

﴿مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أي: مثل يوم حَزْبٍ حَزْبٍ، والأحزاب ههنا قوم نوح وعاد وثمود ومن أهلك بعدهم وقبلهم.

ومعنى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثل عادة.

وجاء في التفسير: مثل حال قوم نوح، أي: أخاف عليكم أن تقيموا على كفركم فينزل بكم ما نزل بالأمم السالفة المكذبة رسلهم.

---

(١) القطامي التغلبي.

﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾؛ بكسر الدال، وقراءة الحسن: «يوم التنادي» بإثبات الياء وأكثر القراءة ﴿التَّنَادِ﴾ وقرأ ابن عباس: «يوم التنادّ» بتشديد الدال، والأصل: «التنادي» وإثبات الياء الوجه، وحذفها حسن جميل لأن الكسرة تدل عليها الياء، وهو رأس آية، وأواخر هذه الآيات على الدال.

ومعنى ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يوم ينادي ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقاً﴾[الأعراف: ٤٤]، وينادي ﴿أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ﴾[الأعراف: ٥٠].

ويجوز -والله أعلم- أن يكون ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يوم يدعى كل أناس بإمامهم.

ومن قرأ «يوم التنادّ» بتشديد الدال، فهو من قولهم: «ندّ فلان وندّ البعير» إذا هرب على وجهه، ومما يدل على هذا قوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾[عبس: ٣٤، ٣٥].

وجاء في التفسير: أنهم يؤمر بهم إلى النار فيفرون ولا يعصمهم من النار عاصم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: الآيات المعجزات.

﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾؛ أي: أقمتم على كفركم وظننتم أنه لا يجدد عليكم إيجاب الحجة.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي: مثل ذلك الضلال يضل الله من هو مسرف مرتاب.

﴿مُسْرِفٌ﴾ ههنا كافر، و ﴿مُرْتَابٌ﴾ شاك في أمر الله وأنبيائه.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾؛ «الذين» في موضع نصب على الرد على «مَنْ»، أي: كذلك الله يضل الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة أتتهم، ويجوز أن يكون موضع «الذين» رفعاً على معنى من هو مسرف مرتاب هم الذين يجادلون.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: كبر جدالهم مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ويقرأ: «على كل قلبٍ متكبر» والأول الوجه، لأن المتكبر: هو الإنسان، وقد يجوز أن تقول: قلبٌ متكبر أي: صاحبه متكبر.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾؛ والصرح: القصر وكل بناء عظيم فهو صرح.

﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾؛ جاء في التفسير: أبواب السماء.

والأسباب في اللغة: ما اتصل بالشيء وكذلك يقال للحبل: «سبب» لأنه يوصل بالأشياء.

وجاء في التفسير أيضاً: طرق السماوات، فالمعنى: -والله أعلم- لعلي أبلغ إلى الذي يؤديني إلى السماوات، ويقرأ ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالرفع والنصب.

﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ هذا قول فرعون يقول: إن كنت زعمت أني لأطلع إلى إله موسى، فأنا قلت هذا على دعوى موسى لا على أني على يقين من ذلك.

فيروى أن هامان طبخ الأَجُر لبناء الصرح، وإن أول من طبخ الأجر هامان.

﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ موضع الكاف نصب؛ المعنى: وزين لفرعون سوء عمله مثل ما وصفنا.

﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: صد عن السبيل المستقيم، أي: المستقيمة بكفره.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ إلا في خسران يقال: «تبت يداه» أي: خسرتا.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يعني سبيل القصد إلى الله -عز وجل- وأخرجكم عن سبيل فرعون، فـ﴿أَهْدِكُمْ﴾ جزم جواب للأمر؛ المعنى: إن تتبعوني أهدكم.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ﴾ يعني أنه ليس له استجابة دعوة الدنيا ولا في الآخرة.

قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله: ﴿لاَ جَرَمَ﴾ فقال: لاجرم رد لكلام؛ والمعنى: وجب أن لهم النار وحق أن لهم النار وأنشد:

ولقد طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزَارَةُ بعدَهَا أَنْ يَغْضبُوا[1]

المعنى: كسبتهم الغضب وأحقتهم بالغضب.

فمعنى ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ لقد وجب أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة؛ أي: وجب بطلان دعوته.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ وجب مردنا إلى الله، وكذلك ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

---

(١) ينسب إلى قيس بن زهير.

وقوله -عز وجل-: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾:

﴿النَّارُ﴾ بدل من قوله ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وجائز أن تكون مرتفعة على إضمار؛ تفسيره: سوء العذاب، كأن قائلاً قال: «ما هو؟» فكان الجواب هو: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾.

فإن قال قائل: كيف يعرضون عليها وهم من أهل النار؟

فجاء في التفسير: أن أرواحهم في أجواف طير سود، تعرض على النار بالغداة والعشي إلى يوم القيامة، ألا ترى أن بعده ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ويقرأ: ﴿أَدْخِلُوا﴾ على معنى الأمر لهم بالدخول، كأنه: ويوم تقوم الساعة يقول: أدخلوا بآل فرعون أشد العذاب.

وقرئت ﴿أَدْخِلُوا﴾ على جهة الأمر للملائكة بإدخالهم أشد العذاب.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾؛ أي: الملائكة واحدهم: «شاهد» مثل: «صاحب وأصحاب».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يجادلون في دفع آيات الله.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: بغير حجة أتتهم.

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُم بِبَالِغِيهِ﴾ أي: ما هم ببالغي إرادتهم دفع آيات الله -عز وجل-، ودل على هذا المعنى: ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ لأن الكبر هم قد أوقعوه فليس يلبس هذا ببالغي الكبر.

وجاء في التفسير: أنه يعنى به اليهود وأن الكبر الذي ليس هم ببالغيه توقع أمر الدجال، فتكبروا متربصين خروج الدجال، فأعلم الله أن هذه الفرقة التي تجادل لا تبلغ خروج الدجال ويدل على قول من قال هذا قول الله -عز وجل- يعقب هذا ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

وقوله -جل وعز-: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ معناه: صاغرين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَن لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾:

جاء في التفسير: أن الله -عز وجل- بعث ثمانية ألف نبي منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل، ومنهم أربعة آلاف من سائر الناس.

وجاء عن علي ﷺ أنه قال في قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُم مَن لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إن الله بعث نبياً أسود فهو ممن لم تذكر قصته في القرآن.

وقوله -تعالى-: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ الأنعام ههنا الإبل.

وقوله: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ﴾ يجوز على ثلاثة أوجه:

﴿وَالسَّلاسِلَ﴾ بالنصب، و﴿وَالسَّلاسِلِ﴾ بالخفض فمن رفع فعطف على ﴿الأَغْلالُ﴾، ومن جر فالمعنى: إذ الأغلال في أعناقهم وفي السلاسل، ومن نصب ففتح اللام قرأ ﴿وَالسَّلاسِلَ يُسْحَبُونَ﴾.

﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ يدل عليه قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِنَ العِلْمِ﴾ أي: ذلك العذاب الذي نزل بكم بما كنتم تفرحون بالباطل الذي كنتم فيه.

و﴿تَمْرَحُونَ﴾؛ أي: تأشرون وتبطرون وتستهزئون.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ يقول: حين عاينوا العذاب.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ على معنى: سن الله هذه السنة في الأمم كلها لا ينفعهم إيمانهم إذا رأوا العذاب.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾ وكذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المُبْطِلُونَ﴾[الجاثية: ٢٧] والمبطلون والكافرون خاسرون في كل وقت خاسرون، ولكنه -تعالى- بيّن لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

* *

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم * تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ ﴿تَنزِيلٌ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ هذا مذهب البصريين.

وقال الفراء: يجوز أن يكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ مرتفعاً بـ﴿حم﴾، ويجوز أن يرتفع بإضمار: «هذا»؛ المعنى: هذا تنزيل من العزيز الرحيم، أي: هو تنزيل.

﴿قُرْآناً عَرَبِياً﴾؛ نصب ﴿قُرْآناً﴾ على الحال؛ المعنى: بينت آياته قرآناً أي: بينت آياته في حال جمعه عربياً.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بينا لمن يعلم.

﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ من صفته.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ في غلف أي: ما تدعونا إليه لا يصل إلى قلوبنا لأنها في أغطية، وواحد الأكنة: «كنان».

﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صمم وقفل يمنع من الاستماع لقولك، أي: نحن في ترك القبول منك بمنزلة من لا يستمع قولك.

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: حاجز في النحلة والدين، وهو مثل ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ إلا أن معنى هذا إنا لا نجامعك في مذهب.

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أي: مذهبنا وأنت عامل على مذهبك، ويجوز أن يكون فاعمل في إبطال مذهبنا إنا عاملون في إبطال أمرك.

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: لا يرونها واجبة عليهم ولا يعطونها.

﴿قُلْ أَئِنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾؛ لو أراد -جل وعز- أن يخلقها في لحظة لفعل، ولكان ذلك سائغاً في قدرته، ولكنه أحب أن يبصر الخلق وجوه الأناة والقدرة على خلق السماوات والأرض في أيام كثيرة وفي لحظة واحدة، لأن المخلوقين كلهم والملائكة المقربين لو اجتمعوا على أن يخلقوا مثقال ذرة منها ما خلقوا.

وجاء في التفسير: أن ابتداء خلق الأرض كان يوم الأحد واستقام خلقها يوم الاثنين.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ في الثلاثاء والأربعاء فصارت الجملة أربعة أيام

فذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في تتمة أربعة أيام.

﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ و«سواءٌ» ويجوز الرفع فمن خفض جعله صفة للأيام؛ المعنى: في أربعة أيام مستويات، ومن نصب فعلى المصدر على معنى: «استوت سواء واستواء».

ومن رفع فعلى معنى: هي سواء.

ومعنى ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ معلق بقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ لأن الكل محتاج إلى القوت، وإنما قيل: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ لأن كلاً يطلب القوت ويسأله.

ويجوز أن يكون ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ لمن سأل في كم خلقت السماوات والأرضون؟ فقيل: خلقت الأرض في أربعة أيام سواء لا زيادة فيها ولا نقصان جواباً لمن سأل.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾؛ معنى ﴿اسْتَوَى﴾ عمد إلى السماء وقصد.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ على الحال منصوب، وإنما قيل: ﴿طَائِعِينَ﴾ دون: «طائعات» لأنهن جرين مجرى ما يعقل ويميز، كما قيل في النجوم: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠]، وقد قيل: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا﴾ أي: نحن ومن فينا طائعين.

ومعنى ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ على معنى: أطيعا لما أمرت طوعاً بمنزلة أطيعا الطاعة أو تكرها إكراها.

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ فخلقهن وصنعهن، قال أو ذؤيب [من الكامل]:

وَعَلَيهِما مَسرودَتانِ قَضاهُما   داودُ أَو صَنَعُ السَوابِغِ تُبَّعُ

معناه: عملهما وصنعهما.

﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾؛ قيل: ما يصلحها، وقيل: ملائكتها.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً﴾ معناه: وحفظناها من استماع الشياطين بالكواكب حفظاً، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ أي: أصناماً تنحتونها بأيديكم.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: الذي هذه صفته وله هذه القدرة رب العالمين.

ثم قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: فإن لم يقبلوا رسالتك بعد هذه الإبانة ويوحدوا الله.

﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: أنذرتكم بأن ينزل بكم ما أنزل بمن كفر من الأمم قبلكم.

ثم قص قصة كفرهم والسبب في عتوهم وإقامتهم على ضلالتهم فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾.

ويروى «نَحْسَاتٍ»؛ قال أبو عبيدة: «الصرصر»: الشديدة الصوت.

وجاء في التفسير: الشديدة البرد، و ﴿نَحِسَاتٍ﴾: مشؤومات واحدها: «نحس»، ومن قرأ «نَحْسَاتٍ» فواحدها: «نَحْس»، قال الله -عز وجل- ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾؛ الجيد إسقاط التنوين، ويقرأ ﴿ثَمُودٌ﴾ بالتنوين، ويجوز «ثموداً» بالنصب بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره.

ومعنى «هديناهم» قال قتادة: بينا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة.

﴿فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى﴾؛ والاختيار رفع «ثمود» على الابتداء والخبر، وهذا مذهب جميع النحويين اختيار الرفع وكلهم يجيز النصب.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العَذَابِ الهُونِ﴾؛ فالهون والخزي الذي يهينهم ويخزيهم.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يقرأ إلى النار بفتح النون والتفخيم، وقرأ أبو عمرو ﴿إِلَى النَّارِ﴾ على الإمالة إلى الكسر، وإنما يختار ذلك مع الراء -يعني الكسر- لأنها حرف فيه تكرير فلذلك آثر أبو عمرو الكسر.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ جاء في التفسير: يحبس أولهم على آخرهم.

وأصله من: «وزعته» إذا كففته، وقال الحسن البصري حين ولي القضاء: «لابد للناس من وزعة» أي: لابد لهم من أعوان يكفون الناس عن التعدي.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾:

جاء في التفسير: «جلودهم» كناية عن الفرج؛ المعنى: شهدت فروجهم بمعاصيهم.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ﴾ أي: جعلنا الله شهوداً.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾ مرفوع بخبر الابتداء، و﴿أَرْدَاكُمْ﴾ خبر ثان، ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلاً من «ذلكم»، ويكون المعنى: وظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم، ومعنى ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أهلككم.

﴿وَقَيَّضْنَا﴾: وسببنا من حيث لا يحتسبون.

﴿لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ يقول: زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يعزمون أن يعملوه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: عارضوه بكلام لا يفهم يكون ذلك الكلام لغواً يقال: «لَغَا يَلْغُو لَغْواً»، ويقال لَغِيَ يَلْغى لَغْواً إذا تكلم باللغو وهو الكلام الذي لا يحصل ولا تفهم حقيقته.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾ هذا يدل على رفعه.

قوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً﴾؛ المعنى: ذلك العذاب الشديد جزاء أعداء الله.

﴿النَّارُ﴾ رفع بدل من ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ وإن شئت رفعت ﴿النَّارُ﴾ على التفسير كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: «هي النار».

﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ﴾ أي: لهم في النار دار الخلد، والنار هي الدار كما تقول: لك في هذه الدار دار السرور، وأنت تعني الدار بعينها كما قال الشاعر[1] [من البسيط]:

أَخُو رَغَائِبَ يُعْطِيهَا وَيَسْأَلُهَا ... يَخْشَى الظُّلاَمَةَ مِنْهُ النَّوْفَلُ الزَّفَرُ

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا﴾ بكسر الراء وبإسكانها لثقل الكسرة، كما قالوا في: «فَخْذ: فَخِذ» ومن كسر فعلى الأصل والكسر أجود لأنه في الأصل: «أرئنا» فحذفت الهمزة وبقيت الكسرة دليلاً عليها، والكسر أجود.

ومعنى الآية فيما جاء من التفسير: أنه يعنى بهما ابن آدم قابيل الذي قتل أخاه وإبليس، فقابيل من الإنس وإبليس من الجن.

ومعنى: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: يكونان في الدرك الأسفل.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: وحدوا الله واستقاموا، عملوا بطاعته ولزموا سنة نبيه.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ﴾؛ بشراء يبشرونهم عند الموت، وفي وقت البعث فلا تهولهم أهوال القيامة.

---

(١) قيل هو لأعشى باهلة كما في الخزانة (١/٩٠)، وقيل: لأعشى قيس كما في الكامل (١/٥٧).

وقوله: ﴿نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾؛ معناه: وأبشروا بالجنة تنزلونها نزلاً.

قال أبو الحسن الأخفش: ﴿نُزُلاً﴾ منصوب من وجهين؛ أحدهما: أن يكون منصوباً على المصدر على معنى: لكم فيها ما تشتهي أنفسكم أنزلناه نزلاً، ويجوز أن يكون منصوباً على الحال على معنى: لكم فيها ما تشتهي أنفسكم نُزُلاً كما تقول: «جاء زيد مشياً» في معنى: جاء زيد ماشياً.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً﴾ منصوب على التفسير كما تقول: «زيد أحسن منك وجهاً».

وجاء في التفسير: أنه يعنى محمد -عليه السلام- لأنه دعا إلى توحيد الله.

وجاء أيضاً في التفسير عن عائشة وغيرها: أنها نزلت في المؤذنين.

﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ﴾؛ و«لا» زائدة مؤكدة؛ المعنى: لا تستوي ولا السيئة.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ معناه: ادفع السيئة بالتي هي أحسن.

﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾؛ الحميم: القريب.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾؛ أي: ما يلقى مجازاة هذا، أي: وما يلقى هذه الفعلة إلا الذين صبروا أي: إلا الذين يكظمون الغيظ.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ الحظ ههنا: الجنة أي: وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة.

ومعنى ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: حظ عظيم في الخير.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾؛ يقول: إن نزغك من الشيطان ما يصرفك به عن الاحتمال.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ من شره وامض على حلمك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾؛ أي: من علاماته التي تدل على أنه واحد.

وقوله: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ وقد قال: الليل والنهار والقمر وهي مذكرة.

وقال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ والهاء والنون يدلان على التأنيث ففيها وجهان؛ أحدهما: أن ضمير غير ما يعقل على لفظ التأنيث تقول: «هذه كباشك فسقها»، وإن شئت: «فسقهن» وإنما يكون «خلقهم» لما يعقل لا غير، ويجوز أن يكون ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ راجعاً على معنى الآيات لأنه قال: ومن آياته هذه الأشياء.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هذا خطاب لمحمد -عليه السلام- و «الذين» ههنا يعنى به الملائكة، فالمعنى: فإن استكبروا ولم يوحدوا الله ويعبدوه ويؤمنوا برسوله، فالملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾ لا يملون.

ثم زادهم في الدلالة فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾؛ أي: متهشمة متغيرة وهو مثل هامدة.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ ويقرأ: «وربأت» بالهمز، ومعنى ربت عظمت، ومعنى «ربأت» ارتفعت لأن النبت إذا هم أن يظهر ارتفعت له الأرض.

وقوله -عز وجل- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾؛ ﴿يَلْحَدُونَ﴾ بفتح الياء والحاء.

وتفسير ﴿يَلْحَدُونَ﴾ الكلام على غير جهته، ومن هذا: «اللحد» لأنه الحفر في جانب القبر يقال: «لَحَد، وألْحَدَ» في معنى واحد.

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ لفظ هذا الكلام أمر ومعناه: الوعيد والتهدد، وقد بيّن لهم المجازاة على الخير والشر.

وقوله -عز وجل- ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن الكتب التي تقدمت لا تبطله ولا يأتي بعده كتاب يبطله، والوجه الثاني: أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، والدليل على هذا قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩].

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: تكذيب كما كذب الرسل من قبلك، وقيل لهم: كما يقول الكفار لك.

ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾؛ المعنى: لمن آمن بك.

﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن كذبك.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ أي: بينت.

﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وتقرأ ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ﴾ بهمزتين، «أعجمي» بهمزة واحدة وبهمزة بعدها مخففة تشبه الألف، ولا يجوز أن تكون ألفاً خالصة لأن بعدها العين وهي ساكنة،

وتقرأ: «أعَجمي وعربي» بهمزة واحدة وفتح العين، وقرأ الحسن: «أعْجمي» بهمزة وسكون العين.

والذي جاء في التفسير أن المعنى: ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا: هلا بينت آياته أقرآن أعجمي ونبي عربي، فمن قرأ «ءأعجمي» فهمزة وألف فإنه منسوب إلى اللسان الأعجم تقول: «هذا رجل أعجمي» إذا كان لا يفصح، إن كان من العجم، أو من العرب، وتقول: «هذا رجل عجمي» إذا كان من الأعاجم فصيحاً كان أم غير فصيح، ومثل ذلك: «هذا رجل أعرابي» إذا كان من أهل البادية وكان جنسه من العرب أو من غير العرب.

والأجود في القرآن «ءأعجمي» بهمزة وألف على جهة النسبة إلى الأعجم، ألا ترى قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً﴾ ولم يقرأ أحد «عجمياً»، فأما قراءة الحسن أعني «أعْجمي» بإسكان العين لا على معنى الاستفهام، ولكن على معنى: هلا بينت آياته فجعل بعضه بياناً للعجم وبعضه بياناً للعرب، وكل هذه الأوجه الأربعة سائغة في العربية وعلى ذلك تفسيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾؛ يعني القرآن.

﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: هم في ترك القبول بمنزلة من في أذنه صمم.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ ويقرأ «وهو عليهم عمٍ» بكسر الميم والتنوين، ويجوز: «وهو عليهم عمي» بإثبات الياء وفتحها، ولا يجوز إسكان الياء وترك التنوين.

﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني من قسوة قلوبهم يبعد عنهم ما يتلى عليهم.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ﴾ الكلمة: وعدهم الساعة قال -عز وجل-: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[القمر: ٤٦].

﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: على نفسه ويدل على أن الكلمة ههنا الساعة قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

وقوله -عز وجل- ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ نحو: خروج الطلع من قشره.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾؛ المعنى: أين قولكم: إن لي شركاء، والله -جل وعلا- واحد لا شريك له، وقد بين ذلك في قوله ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

﴿آذَنَّاكَ﴾ أعلمناك ما منا من شهيد لهم.

﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِن مَحِيصٍ﴾ أي: أيقنوا.

﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الخَيْرِ﴾: لا يمل الخير الذي يصيبه، وإذا اختبر بشيء من الشر يئس وقنط.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾؛ أي: هذا واجب لي بعملي استحققته، وهذا يعنى به الكافرون ودليل ذلك قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾.

يقول: إني لست أوقن بالبعث وقيام الساعة فإن كان الأمر على ذلك إن لي عنده للحسنى.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ ويقرأ ناء والمعنى متقارب، يقول: إذا كان في نعمة تباعد عن ذكر الله ودعائه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾؛ وعريض: ههنا كبير، وكذلك لو كان ذو دعاء طويل كان معناه: كبير.

وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: سنريهم الأعلام التي تدل على التوحيد في الآفاق، وواحدها: «أفق» يقول: سنريهم آثار من مضى قبلهم ممن كذب الرسل من الأمم، وآثر خلق الله في كل البلاد، وفي أنفسهم من أنهم كانوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً كسيت لحماً، ثم نقلوا إلى التمييز والعقل، وذلك كله دليل على أن الذي فعله واحد ليس كمثله شيء.

﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ ويجوز «إنه» والقراءة ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح.

وموضع ﴿بِرَبِّكَ﴾ في المعنى رفع؛ المعنى: أو لم يكف ربك، وموضع ﴿أَنَّهُ﴾ نصب وإن شئت كان رفعاً.

المعنى في النصب: أو لم يكف ربك بأنه على كل شيء شهيد، ومن رفع فعلى البدل؛ المعنى: أو لم يكف أن ربك على كل شيء شهيد، أي: أو لم يكفهم شهادة ربك ومعنى الكفاية ههنا أنه قد بيّن لهم ما فيه كفاية في الدلالة عل توحيده وبينت رسله.

﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾؛ في شك «إلا» كلمة يبتدأ بها ينبه بها المخاطب توكيداً يدل على صحة ما بعدها.

﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾؛ أي: عالم بكل شيء علماً يحيط بما ظهر وخفي.

سورة الشورى

﴿حم عسق﴾ مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿حم * عسق﴾؛ قد بينا حروف الهجاء.

وجاء في التفسير: أن هذه الحروف اسم من أسماء الله ورويت: «حم سق» بغير العين، والمصاحف فيها العين ثابتة.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقرئت يوحى وقرئت: «نوحي إليك وإلى الذين من قبلك» بالنون.

وجاء في التفسير: أن «حم عسق» قد أوحيت إلى كل نبي قبل محمد -عليه السلام- وعليهم أجمعين.

وموضع الكاف من ﴿كَذَلِكَ﴾ نصب؛ المعنى: مثل ذلك يوحى إليك، فمن قرأ ﴿يُوحِي﴾ بالياء فاسم الله -عز وجل- رفع بفعله وهو ﴿يُوحِي﴾ ومن قرأ: «يوحى إليك» فاسم الله مبين عما لم يسم فاعله ومثل هذا من الشعر.

لَبْيُكَ يَزِيد ضَارِع لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِط مِمَّا تَطِيحُ الطَّوَايِحُ

فبيّن من ينبغي أن يبكيه.

ومن قرأ: «نوحي إليك» بالنون جعل «نوحي» إخباراً عن الله -عز وجل- ورفع ﴿اللَّهُ﴾ بالابتداء وجعل ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ خبراً عن الله، وإن شاء كان ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفة لله -عز وجل- يرتفع كما يرتفع اسم الله، ويكون الخبر ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

قوله ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وقرئت: «ممن فوقهن» وقرئت: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ومعنى «ينفطرن ويتفطرن» ينشققن ويتشققن فالمعنى: -والله أعلم- أي: تكاد السماوات ينفطرن من فوقهن لعظمة الله، لأنه لما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ قال: تكاد السماوات ينفطرن لعظمته وكذلك ينفطرن من فوقهن أي: من عظمة مَنْ فوقهن.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾؛ من المؤمنين ولا يجوز أن يكون يستغفرون لكل من في الأرض لأن الله -تعالى- قال في الكفار: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[البقرة: ١٦١] إنما يستغفرون

للمؤمنين، ويدل على ذلك قوله في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾[غافر: ٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

﴿أُمَّ القُرَى﴾ مكة وموضع ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ نصب؛ المعنى: لتنذر أهل أم القرى ومن حولها لأن البلد لا يعقل، ومثل هذا ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[يوسف: ٨٢].

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: يوم يبعث الناس أجمعين.

ثم أعلم ما حالهم في ذلك اليوم فقال: ﴿فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾:

ارتفع «الظالمون» بالابتداء وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[الإنسان: ٣١].

الفصل بين هذا والأول أن ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ فعل فنصب «الظالمين» بفعل مضمر يفسره ما ظهر؛ المعنى: وأوعد الظالمين أعد لهم عذاباً اليماً.

وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ أي: خلق الذكر والأنثى من الحيوان كله.

وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يكثركم بجعله منكم ومن الأنعام أزواجاً.

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذه الكاف مؤكدة؛ والمعنى: ليس مثله شيء، ولا يجوز أن يقال؛ المعنى: مثل مثله شيء، لأن من قال هذا فقد أثبت المثل لله -تعالى- عن ذلك علواً كبيراً.

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾:

روي في التفسير: أن أول من أتى بتحريم البنات والأخوات والأمهات نوح.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي: وشرع لكم ما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ تفسير قوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وموضع «أن» يجوز أن يكون نصباً ورفعاً وجراً، فالنصب على معنى: شرع لكم أن

أقيموا الدين، والرفع على معنى: هو ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾، والجر على: البدل من الباء والجر أبعد هذه الوجوه.

وجائز أن يكون ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ تفسيراً لما وصى به نوحاً ولقوله ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ولقوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيكون المعنى: شرع لكم ولمن قبلكم إقامة الدين وترك الفرقة وشرع الإجماع على اتباع الرسل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ أي: وما تفرق أهل الكتاب إلا عن علم بأن الفرقه ضلالة ولكنهم فعلوا ذلك بغياً أي: للبغي.

وقوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لجوزوا بأعمالهم والكلمة هي تأجيله الساعة؛ يدل على ذلك قوله: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[القمر: ٤٦].

وقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ معناه: فإلى ذلك فادع واستقم أي: إلى إقامة الدين ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أي: آمنت بكتب الله كلها لأن الذين تفرقوا آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ «الميزان»: العدل.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إنما جاز ﴿قَرِيبٌ﴾ لأن تأنيث الساعة غير تأنيث حقيقي وهو بمعنى «لعل البعث قريب»، ويجوز أن يكون على معنى: لعل مجيء الساعة قريب.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يستعجل بها من يظن أنه غير مبعوث.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ لأنهم يعلمون أنهم مبعوثون محاسبون،

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾؛ أي: الذين تدخلهم المرية والشك في الساعة فيمارون فيها ويجحدون كونها.

﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ لأنهم لو فكروا لعلموا أن الذي أنشأهم وخلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة إلى أن بلغوا مبالغهم قادر على إنشائهم وبعثهم.

وقوله جل وعز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ﴾:

جاء في التفسير أن معناه: من كان يريد عمل الآخرة، فالمعنى: -والله أعلم- أنه من

كان يريد جزاء عمل الآخرة نزد له في حرثه أي: نوفقه ونضاعف له الحسنات.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ أي: من كان إنما يقصد إلى الحظ من الدنيا وهو غير مؤمن بالآخرة نؤته من الدنيا أي: نرزقه من الدنيا لا أنه يعطى كل ما يريده، وإذا لم يؤمن بالآخرة فلا نصيب له في الخير الذي يصل إليه من عمل الآخرة.

وقوله ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾؛ أي: تراهم مشفقين من ثواب ما كسبوا، وثواب ما كسبوا النار.

﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾؛ أي: وثواب كسبهم واقع بهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم ما يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: والظالمون لهم النار والمؤمنون لهم الجنة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقرأ: «يُبَشِّر ويَبْشُر ويَبْشِر».

وقوله: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: إلا أن تودوني في قرابتي.

وجاء في التفسير عن ابن عباس -رحمه الله- أنه قال: «ليس حي من قريش إلا وللنبي -عليه السلام- فيه قرابة».

وروي أن النبي -عليه السلام- قال لقريش: «**أنتم قرابتي وأول من أجابني وأطاعني**».

وروي أن الأنصار أتت النبي -عليه السلام- فقالت: قد هدانا الله بك وأنت ابن اختنا وأتوه بنفقة يستعين بها على ما ينوبه فأنزل الله -عز وجل-: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

قال أبو إسحاق: ونصب ﴿الْمَوَدَّةَ﴾ أن يكون بمعنى استثناء ليس من الأول لا على معنى: أسألكم عليه أجراً المودة في القربى لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يسألون أجراً على تبليغ الرسالة؛ والمعنى: -والله أعلم- ولكنني أذكركم المودة في القربى.

قوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ أي: من يعمل حسنة نضاعفها له.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غفور للذنوب قبول للتوبة مثيب عليها.

وقوله -عز وجل- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾:

معناه: فإن يشأ الله ينسك ما آتاك كذلك قال قتادة.

ويجوز ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم وعلى قولهم ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ الوقوف عليها «ويمحو» بواو وألف لأن المعنى: والله يمحو الباطل على كل حال، وكتبت في المصحف بغير واو لأن الواو تسقط في اللفظ لالتقاء الساكنين، فكتبت على الوصل ولفظ الواو ثابت، والدليل عليه ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: ويمحو الله الشرك ويحق الحق بما أنزل من كتابه على لسان نبيه -عليه السلام-

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ المعنى: ويجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾؛ ويقرأ «قنطوا» بكسر النون، يقال: «قَنَط يَقْنُط»، وقَنِط يَقْنَط: إذا يئس.

ويروى أن عمر قيل له: قد أجدبت الأرض وقنط الناس فقال: مُطِرُوا إِذَنْ، لهذه الآية.

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾؛ وهي في مصحف أهل المدينة: «بما كسبت أيديكم» بغير فاء، وكذلك يقرؤوها خلا أبا جعفر فإنه يثبت الفاء، وهي في مصاحف أهل العراق بالفاء، وكذلك قراءتهم، وهو في العربية أجود لأن الفاء مجازاة جواب الشرط.

المعنى: ما تصبكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم.

وقرئت: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾، والنصب على إضمار «أن»، لأن قبلها جزاء، تقول: «ما تصنع أصنع مثله وأكرمك»، وإن شئت قلت: «وأكرمك علي وأنا أكرمك»، وإن شئت: « وأكرمك» جزماً.

وروي عن علي -رضي الله عنه- عن النبي -عليه السلام- أنه قال: «**إن الله أكرم من أن يثني على عبده العقوبة**»، أي: إذا أصابته في الدنيا مصيبة بما كسبت يداه لم يثن عليه العقوبة في الآخرة.

وأما من قرأ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾؛ أي: لا

يجازي على كثير مما كسبت أيديكم في الدنيا.

وجائز أن يكون ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾؛ فلا يجازي عليه في الدنيا ولا في الآخرة.

ومعنى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ ما لهم من معدل، ولا من منجى، يقال: «حَاصَ عنه» إذا تنحى، ويقال: «حاض عنه» في معنى حاص، ولا يجوز أن يقرأ: «ما لهم من محيض»، وإن كان المعنى واحداً.

فأما موضع ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فيجوز أن يكون نصباً، ويجوز أن يكون رفعاً. فمن نصب فعلى معنى: ويجيب الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن رفع فعلى معنى: يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات لله -عز وجل- أي: لما يدعوهم الله إليه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾؛ موضع ﴿وَالَّذِينَ﴾ خفض صفة لقوله ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

و﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾؛ قال بعضهم: كل ما وعد الله عليه النار فهو كبيرة.

وقيل: الكبائر من أول سورة النساء من قوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٢-٣١].

وقد قيل: الكبائر الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنات، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، واستحلال الحرام.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض أيضاً، على معنى: وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وللذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة.

وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، وقيل: إنه ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأحسن ما يحضرهم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾:

جاء في التفسير: أنهم كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم، فيجترىء عليهم الفساق.

وروى أنها نزلت في أبي بكر الصديق. فإن قال قائل: أهم محمودون على انتصار أم لا، قيل: هم محمودون، لأن من انتصر فأخذ بحقه ولم يجاوز في ذلك ما أمر الله به فلم

يسرف في القتل إن كان ولي دم ولا في قصاص فهو مطيع لله -عز وجل-، وكل مطيع محمود، وكذلك من اجتنب المعاصي فهو محمود، ودليل ذلك قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾[النساء: ٣١].

وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾. فالأولى ﴿سَيِّئَةٍ﴾ في اللفظ والمعنى:، والثانية ﴿سَيِّئَةٌ﴾ في اللفظ، عاملها ليس بمسيء ولكنها سميت سيئة لأنها مجازاة لسوء، فإنما يجازى السوء بمثله، والمجازاة به غير سيئة توجب ذنباً، إنما قيل لها: «سيئة» ليعلم أن الجارح والجاني يقتص منه بمقدار جنايته، وهذا مثل قوله -تعالى-: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤] تأويله: كافئوه بمثله، وعلى هذا كلام العرب.

وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾؛ أي: الصابر يؤتى بصبره ثواباً، فكل من زادت رغبته في الثواب فهو أتم عزم.

وقد قال بعض أهل اللغة: إن معنى قوله -تعالى-: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[الزمر: ٥٥] إن منه القصاص والعفو، فالعفو أحسنه.

وقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ يعني ينظرون إلى النار من طرف خفي.

قال بعضهم: إنهم يحشرون عمياً فيرون النار بقلوبهم إذا عرضوا عليها، وقيل: ينظرون إليها مسارقة.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾، أي: ليس لكم مخلص من العذاب، ولا تقدرون أن تنكروا ما تقفون عليه من ذنوبكم ولا ما ينزل بكم من العذاب.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾؛ أي: ويجعل ما يهبه من الولد ذكراناً وإناثاً.

فمعنى ﴿يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً﴾، أي: يقرنهم، وكل اثنين يقترن أحدهما بالآخر فهما زوجان، كل واحد منهما يقال له زوج، تقول: «عندي زوجان من الخفاف»، يعني أن عندك من العدد اثنين أي: خفين، وكذلك المرأة وزوجها زوجان.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً﴾؛ أي: يجعل المرأة عقيماً، وهي التي لا تلد، وكذلك رجل عقيم أيضاً لا يولد له، وكذلك الريح العقيم التي لا يكون عنها مطر ولا خير.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾؛ يقرأ «أو يرسلُ» برفع: «يرسل» و «فيوحي» بإسكان الياء.

والتفسير: أن كلام الله للبشر إما أن يكون برسالة ملك إليهم كما أرسل إلى أنبيائه، أو من وراء حجاب كما كلم موسى -عليه السلام-، أو بإلهام يلهمهم.

قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله -تعالى- ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ بالنصب، فقال: «يرسل» محمول على أن «يوحي» هذه التي في قوله: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾. قال: لأن ذلك غير وجه الكلام لأنه يصرف؛ المعنى: ما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً، وذلك غير جائز، وإنما نرسل محمول على يوحي؛ المعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا بأن يوحي أو أن يرسل.

ويجوز الرفع في «يرسل» على معنى: الحال،، ويكون المعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا موحياً أو مرسلاً رسولاً كذلك كلامه إياهم. قال الشاعر(١) [من الوافر]:

وخيلٍ قد دَلَفتُ لها بِخَيلٍ تحيّةُ بَينِهم ضربٌ وَجيعُ

ومثل قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ بالنصب قول الشاعر(٢) [من الطويل]:

وَلَولا رِجالٌ مِن رِزامِ بنِ مالِكٍ وَآلِ سُبَيعٍ أَو أَسوءَكَ عَلقَما

والمعنى: أو أن أسوءك.

وقال: ويجوز ان يرفع «أو يرسل» على معنى: أو هو يرسل، وهذا قول الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعمله.

وقوله جل وعز: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: فعلنا في الوحي إليك كما فعلنا بالرسل من قبلك.

وموضع ﴿وَكَذَلِكَ﴾ نصب بقوله: ﴿أَوْحَيْنَا﴾.

ومعنى ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ ما نحيي به الخلق من أمرنا، أي: ما يهتدي به فيكون حياً.

وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً﴾؛ ولم يقل: «جعلناهما» لأن المعنى: ولكن جعلنا الكتاب نوراً، وهو دليل على الإيمان.

وقوله. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ ويقرأ: «إنك لَتُهْدَى»، فمن قرأ:

---

(١) هو: عمرو بن معدي كرب.

(٢) هو: الحصين بن همام الفزاري.

﴿لَتَهْدِي﴾، فالمعنى تهدي بما أوحينا إليك إلى صراط مستقيم، ويجوز أن يكون ﴿لَتَهْدِي﴾ مخاطبة للنبي -عليه السلام- وأمته، فيكون المعنى: وإنك وأمتك لتهدون إلى صراط مستقيم، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[الطلاق: ١] فهو بمنزلة يا أيها الناس المؤمنون إذا طلقتم النساء.

وقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾.

خفض بدل من صراط مستقيم؛ المعنى: وإنك لتهدي إلى صراط الله.

ويجوز «صراط الله» بالرفع، و«صراط الله» بالنصب، ولا أعلم أحداً قرأ بهما ولا بواحدة منهما، فلا تقرأن بواحدة منهما لأن القراءة سنة لا تخالف، وإن كان ما يقرأ به جائزاً في النحو.

* * *

سورة الزخرف

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ﴾؛ قد فسرنا معنى ﴿حم﴾.

ومعنى ﴿وَالْكِتَابِ المُبِينِ﴾ الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً﴾؛ معناه: إنا بيناه قرآناً عربياً.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

﴿أُمِّ الكِتَابِ﴾ أصل الكتاب، وأصل كل شيء أمه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، والدليل على ذلك قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾؛ ويقرأ ((إن كنتم قوماً مسرفين))، فمن فتحها فالمعنى: أفنضرب عنكم الذكر صفحاً لأن كنتم، ومن كسرها فعلى معنى الاستقبال، وعلى معنى: إن تكونوا مسرفين نضرب عنكم الذكر.

ويقال: ((ضربت عنه الذكر وأضربت عنه الذكر))؛ والمعنى: أفنضرب عنكم ذكر العذاب-والعذاب بأن أسرفتم، والدليل على أن المعنى هذا وأنه ذكر العذاب.

قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾؛ أي: مضت سنتهم، ويكون ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ أي: نهملكم فلا نعرفكم ما يجب عليكم لأن أسرفتم، ومثله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة: ٣٦].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾؛ طرقا.

وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ معناه: خلق الأصناف كلها، تقول: ((عندي من كل زوج)) أي: من كل صنف.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾. أي: خلق لكم وسخرها لكم، ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾؛ أي: تحمدون الله وتعظمونه، فيقول القائل: إذا ركب السفينة: ((بسم الله مجراها ومرساها))، ويقول إذا ركب الدابة: ((الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا

له مقرنين»، أي: مطيقين، واشتقاقه من قولك: «أنا لفلان مقرن» أي: مطيق، أي: قد صرت قرناً له.

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: نحن مقرون بالبعث.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾؛ يعني به الذين جعلوا الملائكة بنات الله.

وقد أنشدني بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى جزء معنى الإناث، ولا أدري البيت، قديم أم مصنوع أنشدني:

إنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْماً فلا عَجَبٌ قد تُجْزِئ الحُرَّةُ المِذْكارُ أَحْيانا

أي: إن أنثت ولدت أنثى.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ﴾؛ ويقرأ: «ينسأ» وموضع «من» نصب؛ المعنى: اجعلوا من ينسأ في الحلية يعني البنات لله.

﴿وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ يعني البنات أي: الأنثى لا تكاد تستوفي الحجة ولا تبين.

وقد قيل في التفسير: إن المرأة لا تكاد تحتج بحجة إلا عليها.

وقد قيل: إنه يعنى به الأصنام والأجود أن يكون يعنى به المؤنث.

وقوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾؛ «الجعل» ههنا في معنى القول والحكم على الشيء تقول: «قد جعلت زيداً أعلم الناس» أي: قد وصفته بذلك وحكمت به.

وقوله -عز وجل- ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ وتقرأ: «سنكتب»؛ المعنى: سيكتب الله شهادتهم ولا نعلم أحداً قرأ بها والقراءة بالتاء والنون.

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ المعنى: ما لهم بقولهم: إن الملائكة بنات الله ما لهم من علم ولا بجميع ما تخرصوا به.

وقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِن قَبْلِهِ﴾ أي: أم هل قالوا عن كتاب؛ المعنى: أشهدوا خلقهم أم آتيناهم بكتاب بما قالوه من عبادتهم ما يعبدون من دون الله.

ثم أعلم الله -عز وجل- أن فعلهم اتباع ضلالة آبائهم فقال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ﴾؛ ويقرأ «على إِمَّةٍ» بالكسر؛ فالمعنى: على طريقه.

وقوله -عز وجل- ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي: قد قالوا لك هؤلاء كما قال أمثالهم للرسل من قبلك.

وقوله ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾ معناه: نقتدي بهم ويصلح أن يكون خبراً لأنا مهتدون.

و﴿عَلَى﴾ من صلة ﴿مُهْتَدُونَ﴾ وكذلك مقتدون فيكون؛ المعنى: وإنهم مهتدون على آثارهم وكذلك يكون المعنى: مقتدون على آثارهم ويصلح أن يكون خبراً بعد خبر، فيكون ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم﴾ الخبر يكون ﴿مُهْتَدُونَ﴾ خبر ثانياً، وكذلك ﴿مُقْتَدُونَ﴾.

وقوله: -عز وجل- ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾؛ المعنى فيه: قل أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم وإن جئتكم بأهدى منه.

وقوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾؛ ﴿بَرَاءٌ﴾ بمعنى بريء مما تعبدون.

والعرب تقول للواحد منها: «أنا براء منك» وكذلك الاثنان والجماعة والذكر والأنثى يقولون «نحن البراء منك والخلاء منك» ولا يقولون: «نحن البراءان منك ولا البراؤون» وإنما المعنى: إنا ذوو البراء منك ونحن ذوو البراء منك كما تقول: «رجل عدل وامرأة عدل وقوم عدل»؛ والمعنى: ذوو عدل وذوات عدل.

وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ المعنى: إنا نتبرأ مما تعبدون إلا من الله -عز وجل-، ويجوز أن يكون «إلا» بمعنى «لكن» فيكون المعنى: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى بها كلمة التوحيد وهي: «لا إله إلا الله» باقية في عقب إبراهيم لا يزال من ولده من يوحد الله -عز وجل-.

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ المعنى: على رجل من رجلي القريتين عظيم.

والرجلان أحدهما: الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة، والآخر: حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف، والقريتان ههنا: مكة والطائف.

ويجوز ﴿لَوْلا نُزِّلَ﴾ أي: لولا نزل الله هذا القرآن، ويجوز: «لولا نزل هذا القرآن»، ومعنى: «لولا»: هلا؛ ولم يقرأ بهاتين الأخريين إنما القراءة ﴿نُزِّلَ﴾.

و﴿هَذَا﴾ في موضع رفع والقرآن ههنا مبين عن هذا ويسميه سيبويه عطف البيان،

لأن لفظه لفظ الصفة ومما يبين أنه عطف البيان قولك: «مررت بهذا الرجل وبهذه الدار»، و﴿هَذَا القُرْآنُ﴾ إنما يذكر بعد هذا اسماً يبين بها اسم الإشارة.

وقوله عز: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ أي: قولهم: لم لم ينزل هذا القرآن على غير محمد -عليه السلام- اعتراض منهم وليس تفضل الله -عز وجل- يقسمه غيره، ولما أتى النبي -عليه السلام- بالرسالة قالت العرب أو أكثرها -: كيف لم يرسل الله ملكاً، وكيف أرسل الله بشراً فقال الله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ القُرَى﴾[يوسف: ١٠٩]، وقال:﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾[يونس: ٢] فلما سمعوا أن الرسالة كانت في رجال من أهل القرى قالوا: لولا نزل على أحد هذين الرجلين، وقال -عز وجل- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فكما فضلنا بعضهم على بعض في الرزق وفي المنزلة كذلك اصطفينا للرسالة من نشاء.

وقوله:﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً﴾؛ ﴿سُخْرِياً﴾ أي: ليستعمل بعضهم بعضاً ويستخدم بعضهم بعضاً.

وقيل: ﴿سُخْرِياً﴾ أي: يتخذ بعضهم بعض عبيداً.

ثم أعلم -عز وجل- أن الآخرة أحظ من الدنيا فقال: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وأعلم قلة الدنيا عنده -عز وجل- فقال: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِن فِضَّةٍ﴾؛ ويقرأ: ﴿سَقْفاً مِّن فِضَّةٍ﴾، ويجوز ﴿سُقْفاً﴾ بسكون القاف وضم السين فمن قال ﴿سُقُفاً﴾ و﴿سُقْفاً﴾ فهو جمع «سَقف» كما قيل: «رَهْن ورُهُن ورُهْن» ومن قال " ﴿سَقْفاً﴾ فهو واحد يدل على الجمع؛ المعنى: جعلنا لبيت كل واحد منهم سقفاً من فضة.

وقوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ «معارج» درج واحدها: معرج؛ المعنى: وجعلنا معارج من فضة وكذلك: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً﴾ أي: أبواباً من فضة وسُرُراً من فضة.

﴿وَزُخْرُفاً﴾؛ «الزخرف» جاء في التفسير: إنه ههنا الذهب إلا زيد بن أسلم فإنه قال: هو متاع البيت.

والزخرف في اللغة: الزينة وكمال الشيء فيها، ودليل ذلك قوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[يونس: ٢٤] أي: كمالها وتمامها.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ معناه: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا، ويقرأ: «لَمَا متاع» و «ما» ههنا لغو؛ المعنى: المتاع.

وقوله: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن تميل بهم الدنيا فيصير الخلق كفاراً لأعطى الله الكافر في الدنيا غاية ما يتمنى فيها لقلتها عنده، ولكنه -عز وجل- لم يفعل ذلك لعلمه بأن الغالب على الخلق حب العاجلة.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ ويقرأ: «ومن يعش» بفتح الشين من «عَشِيَ يَعْشَى» أي: من يعم عن ذكر الرحمن.

﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً﴾ نسبب له شيطاناً يجعل الله له ذلك جزاء .

وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: الشياطين تصدهم عن السبيل ويحسب الكفار أنهم مهتدون

وقوله -عز وجل- ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ يصلح أن يكون بدلاً من قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾، ويكون المعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، ويصلح أن يكون لبيوتهم على معنى: لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾، ويقرأ: «جاءانا» فالمعنى: حتى إذا جاء الكافر وشيطانه، ومن قرأ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ فعلى الكافر وحده.

﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ﴾؛ معنى ﴿المَشْرِقَيْنِ﴾ ههنا بعد المشرق والمغرب فلما جعلا اثنين غلب لفظ المشرق كما قال[1] [من الطويل]:

* لَنا قَمَراها وَالنُجومُ الطَّوالِعُ *

يريد الشمس والقمر، وكما قالوا: «سنة العمرين» يراد سنة أبي بكر وعمر رحمة الله عليهما.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ المعنى: لن تنفعكم الشركة في العذاب.

قال محمد بن يزيد في جواب هذه الآية إنهم منعوا روح التأسي يسهل المصيبة، فأعلموا أن لن ينفعهم الاشتراك في العذاب وأن الله -عز وجل- لا يجعل فيه أسوة قال: وأنشدني في المعنى للخنساء [من الوافر]:

---

(١) من بيت للفرزدق.

وَلَولا كَثرةُ الباكينَ حَولي ... عَلى إِخوانِهِم لَقَتَلتُ نَفسي
وَما يَبكونَ مِثلَ أَخي وَلَكِن ... أُعَزّي النَّفسَ عَنهُ بِالتَأَسّي

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ دخل «ما» توكيداً للشرط والنون الثقيلة في قوله: ﴿نَذْهَبَنَّ﴾ دخلت أيضاً توكيداً، وإذا دخلت «ما» دخلت معها النون كما تدخل مع لام القسم.

والمعنى: أنا ننتقم منهم إن توفيت أو نريك ما وعدناهم ووعدناك فيهم من النصر فقد أراه الله -عز وجل- ما وعده فيهم ووعدهم من إهلاكهم إن كذبوا، وقد قيل: إنه كانت بعد رسول الله -عليه السلام- أشياء لم يجبب الله أن يريه إياها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يريد أن العذاب شرف لك ولقومك.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ معناه: سوف تسألون عن شكر ما جعله الله لكم من الشرف.

وقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ في هذه المسألة ثلاثة أوجه جاء في التفسير:

أن النبي -عليه السلام- ليلة أسري به جمع له الأنبياء في بيت المقدس فأمهم وصلى بهم وقيل له: سَلْهُم فلم يشكك -عليه السلام- ولم يَسَلْ.

ووجه ثان وهو الذي اختاره وهو: أن المعنى: سل أمم من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون، ويكون معنى السؤال ههنا على جهة التقرير كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧]، فليس يسألهم ههنا عمن خلقهم إلا على جهة التقرير وكذلك إذا سأل جميع أمم الأنبياء لم يأتوا بأن في كتبهم أن اعبدوا غيري.

ووجه ثالث يكون المعنى في خطاب النبي -عليه السلام- معناه: مخاطبة الأمة كأنه قال: واسألوا، والدليل على أن مخاطبة النبي -عليه السلام- قد يدخل فيها خطاب الأمة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[الطلاق: ١].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾:

إن قال قائل: كيف يقولون لموسى -عليه السلام- يا أيها الساحر وهم يزعمون أنهم مهتدون؟

فالجواب: أنهم خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالسحر، ومعنى ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما عهد عندك فيمن آمن به من كشف العذاب عنه الدليل على ذلك قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: إذا هم ينقضون عهدهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ «مصر» ههنا يعنى بها مدينة مصر المعروفة، فمصر مذكر سمي به مؤنث لأن المدينة الغالب عليها التأنيث.

وقد يجوز ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾ يذهب به إلى أن مصر اسم لبلد، وهذا فيه بُعد من قبل أن أكثر ما يستعمل البلد لما يضم مدنا كبيرة نحو بلاد الروم وبلاد الشام وبلد خراسان ويجوز أن تصرفوا مصراً إذا جعلته اسماً لبلد عند جميع النحويين من البصريين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾؛ قال سيبويه والخليل عطف «أنا» بـ«أم» على قوله ﴿فَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ لأن معنى ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ معناه: أم تبصرون كأنه قال: أفلا تبصرون أم تبصرون، قال: لأنهم إذا قالوا أنت خير منه فقد صاروا عنده بصراء فكأنه قال أفلا تبصرون أم أنتم بصراء.

ومعنى ﴿مَهِينٌ﴾؛ قليل. يقال شيء مهين أي: قليل، وهو فعيل من المهانة.

وقوله: ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ قال ذلك لأنه كانت في لسان موسى -عليه السلام- لثغة والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعون مبينون بلغاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؛ كأنه لما وصف نفسه بالملك والرياسة قال: هلا جاء موسى بشيء يلقى عليه فيكون ذلك أسورة من ذهب تدل على أنها من عند إلهه الذي يدعوكم إلى توحيده أو هلا ﴿جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يمشون معه فيدلون على صحة نبوته.

وقد أتى موسى -عليه السلام- من الآيات بما فيه دلالة على تثبيت النبوة، وليس للذين يرسل إليهم الأنبياء أن يقترحوا من الآيات ما يريدون هم.

وتقرأ: «أساورة من ذهب» ويصلح أن يكون جمع الجمع تقول: «أسورة وأساورة» كما تقول: «أقوال وأقاويل» ويجوز أن يكون جمع: «أسوار وأساورة» وإنما صرفت: «أساورة» لأنك ضممت الهاء إلى أساور فصار اسماً واحداً، وصار الاسم له مثال في الواحد مثل: «علانية وعباقية».

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ معنى ﴿آسَفُونَا﴾ أغضبونا.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾؛ جعلناهم ﴿سَلَفاً﴾ متقدمين ليتعظ بهم الآخرين ويقرأ: «سُلُفاً» بضم السين واللام ويقرأ «سُلفاً» بضم السين وفتح اللام فمن قال: «سُلفاً» أي: فرقة قد مضت.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ويقرأ: «يَصُدُّون» بضم الصاد والكسر أكثر ومعناهما جميعاً يضجون، ويجوز أن يكون معنى المضمومة يعرضون.

وجاء في التفسير: أن كفار قريش خاصمت النبي -عليه السلام- فلما قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء: ٩٨] قالوا: قد رضينا أن تكون آلهتنا بمنزلة عيسى ابن مريم، والملائكة الذين عبدوا من دون الله فهذا معنى ضرب عيسى المثل.

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ أي: طلباً للمجادلة لأنهم قد علموا أن المعنى: في حصب جهنم ههنا أنه يعنى به الأصنام وَهُمْ.

وقوله -تعالى-: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ يعنى به عيسى ابن مريم.

ومعنى ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أنه يدلهم على نبوته.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾؛ معنى ﴿يَخْلُفُونَ﴾ يخلف بعضهم بعضاً.

والمعنى: لجعلنا منهم بدلاً منكم ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ ويقرأ: «لَعَلم للساعة»؛ المعنى: إن ظهور عيسى ابن مريم -عليه السلام- لعلم للساعة، أي: إذا ظهر دل على مجيء الساعة، وقد قيل: إنه يعنى به أن القرآن لعلم للساعة يدل على قرب مجيئهما، والدليل على ذلك قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[القمر: ١] والأول أكثر في التفسير.

وقوله: ﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: لا تشكن فيها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾؛ قوله: «جاء بالحكمة» أي: بالإنجيل، و﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الآيات التي يعجز عنها المخلوقون.

وقالوا في معنى ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: كل الذي يختلفون فيه واستشهدوا

بقول لبيد [من الكامل]:

* أَو يَختَرِم بَعضَ النُّفوسِ حِمامُها *

يريد كل النفوس واستشهدوا أيضاً بقول القطامي [من البسيط]:

* قد يُدرِكُ المتأني بَعضَ حاجَتِهِ *

قالوا معناه: كل حاجته وهذا مذهب أبي عبيدة والصحيح أن البعض لا يكون في معنى الكل وهذا ليس في الكلام. والذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه، وبين الله سبحانه لهم من غير الإنجيل ما احتاجوا إليه وكذلك قوله: «أَو يَختَرِم بَعضَ النُّفوسِ حِمامُها» إنما يعني نفسه ونفسه بعض النفوس.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ ﴿الأَحْزَابُ﴾ قيل: إنهم الأربعة الذين كانوا بعد عيسى يعنى به اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ جاء في التفسير: عن النبي -عليه السلام- أنه قال: **«الأخلاء أربعة مؤمنان وكافران، فمات أحد المؤمنين فسئل عن خليله فقال: ما علمته إلا أماراً بالمعروف نَهاء عن المنكر، اللهم اهده كما هديتني وأمته على ما أمتني عليه، وسُئل الكافر عن خليله فقال: ما علمته إلا ماراً بالمنكر نهاء عن المعروف، اللهم أضلله كما أضللتني وأمته على ما أمتني عليه فإذا كان يوم القيامة أثنى كل واحد على صاحبه شراً»**.

قوله: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾؛ وتقرأ: «يا عبادي» بإثبات الياء، وقد فسرنا حذف الياء وإثباتها في مثل هذا فيما سلف من الكتاب.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾؛ «الذين» في موضع نصب على النعت لعبادي لأن عبادي منادى مضاف، وإنما قيل: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ للمؤمنين لا لغيرهم وكذلك ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾[الأعراف: ٤٩] يعني يا عبادي المؤمنين ادخلوا الجنة.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾؛ ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تكرمون إكراماً يبالغ فيه، والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل.

وقوله: ﴿بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾؛ «الصحاف» واحدها صحفة وهي القصعة والأكواب واحدها كوب، وهو إناء مستدير لا عروة له.

وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾؛ وقرئت ﴿تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾ بإثبات الهاء وأكثر المصاحف بغيرها وفي بعضها الهاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ المبلس: الساكت الممسك إمساك يائس من فرج.

وقوله: ﴿وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾؛ «هم» ههنا فصل، كذا يسميها البصريون وهي تأتي دليلاً على أن ما بعدها ليس بصفة لما قبلها، وأن المتكلم يأتي بخبر الأول ويسميها الكوفيون العماد وهي عند البصريين لا موضع لها في رفع ولا نصب ولا جر، ويزعمون أنها بمنزلة «ما» في قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٩] وقد فسرت «ما» في هذا فيما تقدم من الكتاب.

ويجوز: «ولكن كانوا هم الظالمون» في غير القرآن ولكن لا تقرأن بها لأنها تخالف المصحف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾؛ وقد رويت: «يا مال» بغير كاف وبكسر اللام، وهذا يسميه النحويون: «الترخيم» وهو كثير في الشعر في مالك وعامر ولكنني أكرههما لمخالفتهما المصحف.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي: أحكموا عند أنفسهم أمراً من كيد أو شر.

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون مجازاتهم كيد بكيدهم وشر بشرهم.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾؛ معناه: إن كنتم تزعمون أن للرحمن ولداً، فأنا أول الموحدين لأن من عبد الله -عز وجل- واعترف بأنه إلهه فقد دفع أن يكون له ولد.

والمعنى: إن كان للرحمن ولد في قولكم كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾[النحل: ٢٧] أي: قولكم والله واحد لا شريك له.

وقد قيل: إن «إن» في هذا الموضع في موضع «ما»؛ المعنى: ما كان للرحمن ولد، ﴿فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾ وقد قيل: إن العابدين في معنى الآنفين فأنا أول من يأنف من هذا القول.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾؛ المعنى: هو الموحد في السماء وفي الأرض وقرئت «في السماء الله وفي الأرض الله» ويدل ما خلق

بينهما وفيهما أنه واحد حكيم عليم لأن خلقها يدل على الحكمة والعلم.

وقوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ويقرأ ﴿وَقِيلَهُ﴾.

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ فيها ثلاثة أوجه، والخفض على معنى ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وعلم قيله يا رب.

والنصب من ثلاثة أوجه؛ قال أبو الحسن الأخفش: إنه منصوب من جهتين؛ إحداهما: على العطف على قوله ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ ﴿وَقِيلَهُ﴾ أي: ونسمع قيله، ويكون على: وقال قيله.

قال أبو إسحاق: والذي أختاره أنا؛ أن يكون «قيله» نصباً على معنى: وعنده علم الساعة ويعلم قيله، فيكون المعنى: إنه يعلم الغيب ويعلم قيله لأن معنى عنده علم الساعة يعلم الساعة ويعلم قيله ومعنى الساعة في كل القرآن الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

والرفع على معنى: وقيله هذا القول أي: وقيله قوله: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

سورة الدخان

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جاء في التفسير: «من قرأ سورة الدخان في ليلة الجمعة تصديقاً وإيماناً غفر الله له».

وقد فسرنا معنى ﴿حم﴾ فيما سلف.

وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ قسم.

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾؛ جاء في التفسير: «إنها ليلة القدر» قال الله -عز وجل- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[القدر: ١].

وقال المفسرون: في ليلة مباركة هي ليلة القدر نزل جملة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل على رسول الله -عليه السلام- شيئاً بعد شيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ يفرق الله -عز وجل- في ليلة القدر كل أمر حكمه من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمرهم الذي يكون مؤجلاً إلى ليلة القدر التي تكون في السنة المقبلة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْراً مِنْ عِندِنَا﴾ وقوله: ﴿رَحْمَةً مِن رَبِّكَ﴾ منصوبان.

قال الأخفش: على الحال؛ المعنى: إنا أنزلناه آمرين أمراً وراحمين رحمة.

ويجوز أن يكون منصوباً بـ﴿يُفْرَقُ﴾ بمنزلة: «يفرق فرقاً» لأن أمراً بمعنى فرقاً لأن المعنى: يؤتمر فيها أمراً.

ويجوز أن يكون ﴿رَحْمَةً مِن رَبِّكَ﴾ مفعولاً له، أي: إنا أنزلناه رحمة، أي: للرحمة.

وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بالخفض والرفع، الرفع على الصفة والخفض على قوله: من ربك رب السماوات، ومن رفع فعلى قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ وإن شئت على الاستئناف على معنى: هو رب السماوات.

وقوله ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ﴾ ويقرأ: ﴿وَرَبِّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ فالخفض على معنى رحمة من ربك ربكم ورب آبائكم الأولين.

وقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ﴾؛ ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر.

وفي أكثر التفسير: إن الدخان قد مضى وذلك حين دعا رسول الله -عليه السلام- على مضر فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف أي:

اجعل سنوهم في الجدب كسني يوسف، والعرب أيضاً تسمي «الجدب» السنة فيكون المعنى: اجعلها عليهم جدوباً فارتفع القطر، وأجدبت الأرض وصار بين السماء والأرض كالدخان.

وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ المعنى: يقول الناس الذين يحل بهم الجدب ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وكذلك قوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾؛ ويجوز: «إنكم عائدون» فمن قرأ: ﴿عَائِدُونَ﴾ فهو الوجه؛ والمعنى: أنه يعلمهم أنهم لا يتعظون وإنهم إذا زال عنهم المكروه عادوا في طغيانهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾؛ يوم نبطش ونبطش إنا منتقمون هذا مثل: «عَكَف يَعْكِف ويعكُف» و «عَرَش يَعْرِش ويَعْرُش» وهذا في اللغة: كثير.

وقيل: إن البطشة الكبرى يوم بدر، و﴿يَوْمَ﴾ لا يجوز أن يكون منصوباً بقوله: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ لأن ما بعد «إنا» لا يجوز أن يعمل فيما قبلها ولكنه منصوب بقوله: واذكر يوم نبطش البطشة الكبرى.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، ومعنى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أن أسلموا إلي عباد الله، يعني بني إسرائيل كما قال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾[طه: ٤٧] أي: أطلقهم من عذابك، وجائز أن يكون عباد الله منصوباً على النداء؛ فيكون المعنى: أن أدوا إلي ما أمركم الله به يا عباد الله.

﴿وَأَن لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة بينة تدل على أني نبي.

وقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾؛ أي: أن تقتلون.

وقوله: ﴿وَإِن لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: إن لم تؤمنوا لي فلا تكونوا علي ولا معي.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾؛ من كسر «إن» فالمعنى: قال إن هؤلاء، و«إن» بعد القول مكسورة، ويجوز الفتح على معنى: فدعا ربه بأن هؤلاء.

وقوله: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾؛ جاء في التفسير: «يبساً» كما قال: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾[طه: ٧٧] وقال أهل اللغة: رهواً ساكناً.

وقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ جاء في التفسير: إن المقام الكريم يعنى به المنابر ههنا.

وجاء: في مقام كريم أي: في منازل حسنة.

قوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾؛ المعنى: الأمر كذلك. موضع ﴿كَذَلِكَ﴾ رفع على خبر الابتداء المضمر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾؛ لأنهم ماتوا كفاراً والمؤمنون إذا ماتوا تبكي عليهم السماء والأرض، فتبكيان على المؤمن.

﴿وَالأَرْضُ﴾: مصلاه، أي: مكان مصلاه ومن ﴿السَّمَاءُ﴾ مكان مصعد عمله ومنزل رزقه.

وجاء في التفسير: أن الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي: ما كانوا مؤخرين بالعذاب.

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ أي: على عالمي دهرهم.

وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ هذا قاله الكفار من قريش معنى «إن هي» ما هي.

ومعنى ﴿بِمُنشَرِينَ﴾: بمبعوثين يقال: أنشر الله الموتى ونشروا هم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾؛ جاء في التفسير: إن تبعاً كان مؤمناً، وإن قومه كانوا كافرين.

وجاء أنه نظر إلى كتاب على قبرين بناحية «حمير» على قبر أحدهما: «هذا قبر رضوى»، وعلى الآخر هذا قبر «حبَّى» ابنتي تبع لا يشركان بالله شيئاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾؛ يعنى به السماوات والأرض أي: إلا لإقامة الحق.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ ويجوز ﴿مِيقَاتَهُمْ﴾ بنصب التاء ولا أعلم أنه قرئ بها فلا تقرأن بها.

فمن قرأ ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ بالرفع جعل يوم الفصل اسم «إن»، وجعل ميقاتهم الخبر، ومن نصب ﴿مِيقَاتَهُمْ﴾ جعله اسم «إن» ونصب ﴿يَوْمَ الفَصْلِ﴾ على الظرف، ويكون المعنى: ميقاتهم في يوم الفصل.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَوْلًى شَيْئاً﴾؛ لا يغني ولي عن وليه شيئاً ولا والد عن ولده ولا مولود عن والده.

وقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ﴾؛ يعنى به ههنا أبو جهل بن هشام، والمهل:دُرْديّ الزيت، ويقال «المهل»: ما كان ذائباً من الفضة والنحاس وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ ويقرأ: «فاعتُلوه» بضم التاء وكسرها؛ المعنى: يا أيها الملائكة خذوه فاعتلوه، والعتل: أن يؤخذ فيمضي به بعسف وشدة.

﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ إلى وسط الجحيم.

وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾؛ الناس كلهم على كسر ﴿إِنَّكَ﴾ إلا الكسائي وحده فإنه قرأ: «ذق أنك أنت» أي: لأنك قلت: إنك أنت العزيز الكريم، وذلك أنه كان يقول: أنا أعز أهل الوادي، وأمنعهم لله -عز وجل- ذق هذا العذاب إنك أنت القائل: أنا العزيز الحكيم.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: قد آمنوا فيه الغِيَرَ.

وقوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قيل: الاستبراق الديباج والسندس الحرير وإنما قيل له إستبرق -والله أعلم- لشدة بريقه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾؛ المعنى: لا يذوقون فيها الموت البتة سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، وهما كما قال: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[النساء: ٢٢].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَضْلاً مِن رَبِّكَ﴾؛ ويجوز «فضل من ربك» ولا يقرأن بها بخلاف المصحف، والنصب على معنى قوله ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ وعلى معنى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وذلك بفضل من الله؛ فالمعنى: فعل الله بهم ذلك فضلاً منه وتفضلا منه.

وقوله: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُرْتَقِبُونَ﴾ معناه: فانتظر إنهم منتظرون.

* * *

سورة الجاثية

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ المعنى: -والله أعلم- أن في خلق السماوات والأرض لآيات، ويدل عليه قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ﴾.

يقرأ «آياتٍ وآياتٌ» بخفض التاء ورفعها وهي في موضع نصب على النسق على قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ﴾؛ المعنى: إن في خلقكم لآياتٍ.

ومن قرأ «لآياتٌ» فعلى ضربين؛ على الاستئناف على معنى: وفي خلقكم آيات، وعلى موضع «إن» مع ما عملت فيه تقول: «إن زيد قائم وعمراً وعمرٌ» فتعطف بعمرو على زيد إذا نصبا، وإذا رفعت فعلى موضع «إن» مع «زيد» فإن معنى: «إن زيداً قائم»: زيد قائم.

وقوله: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِزْقٍ﴾ إلى قوله: ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

يقرأ بالرفع وبكسر التاء والتنوين والموضع موضع نصب، ويكون قوله: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ عطف على قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ وعلى قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وإن في ﴿اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ آيات وهذا عطف على عاملين ومثله من الشعر[1] [من المتقارب]:

أَكُلُّ اِمرِئٍ تَحسَبينَ اِمرأً ... وَنارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيلِ نارا

عطف على ما عملت فيه «كل»، وما عملت فيه «تحسبين» وقد أباه بعض النحويين وقالوا: لا يجوز إلا الرفع في قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ﴾ وجعل عطفاً على عامل واحد على معنى واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح آيات، وهذا أيضاً عطف على عاملين، لأنه يرفع آيات على العطف على ما قبلها كما خفض «واختلاف» على العطف على ما قبلها، ويكون معطوفاً إن شئت على موضع «إن» وما عملت فيه وإن شئت على

---

(١) أبو داود الإيادي.

قراءة من قرأ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ و«تؤمنون» جميعاً.

والمعنى: -والله أعلم- فبأي حديث بعد كتاب الله وآياته يؤمنون قال الله -عز وجل-: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾[الزمر: ٢٣] فجعل القرآن أحسن الحديث.

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذاب.

وقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن؛ المعنى: هذا القرآن بصائر للناس.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾؛ ويقرأ ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ وقد قرئت: ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ﴾ بنصب الممات، وحكى بعض النحويين: أن ذلك جائز في العربية.

ومعنى ﴿اجْتَرَحُوا﴾ اكتسبوا، ويقال: «فلان جارحة أهله» أي: كاسبهم، والاختيار عند سيبويه والخليل وجميع البصريين «سواءٌ» برفع «سواء» وعليه أكثر القراء ويجيزون النصب وتقول: «ظننت زيداً سواءٌ أبوه وأمه وسواءً أبوه وأمه» والرفع أجود لأن «سواء» في مذهب المصدر كما تقول: ظننت زيداً ذو استواء أبوه وأمه.

ومن قرأ «سواء» بالنصب جعله في موضع: مستوياً محياهم ومماتهم، ومن نصب محياهم ومماتهم فهو عند قوم من النحويين: سواء في محياهم وفي مماتهم، ويذهب به مذهب الأوقات وهو يجوز على غير ذلك على أن يجعله بدلاً من الهاء والميم، ويكون المعنى: أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كالذين آمنوا وعملوا الصالحات أي: كمحيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومماتهم.

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وقد رويت: «آلِهَة هواه» ولها وجه في التفسير.

وروي أن قريشاً كانت تعبد العزى وهي حجر أبيض فإذا رأت حجراً أشد بياضاً منه، وأحسن اتخذت ذلك الأحسن وأطرحت الأول فهذا يدل على آلهته وكذلك أيضاً إلهه.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أي: على ما سبق في علمه قبل أن يخلقه أنه ضال.

﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ ويقرأ «غَشوة» بفتح الغين بغير ألف، ويقرأ: «غشاوة» بضم الغين ومع الألف.

وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ فإن قال قائل: كيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقرون بالبعث، فالدليل على أنهم لا يقرون بالبعث قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾:

ثلاثة أقوال؛ يكون المعنى: نموت ونحيا، يحيا أولادنا فيموت قوم ويحيا قوم، ويكون معنى ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نحيا ونموت لأن الواو للاجتماع وليس فيها دليل على أن أحد الشيئين قبل الآخر، ويكون ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ أي: ابتداؤنا أموات في أصل الخلقة ثم نحيا ثم يهلكنا الدهر.

فأعلم الله -عز وجل- أنهم يقولون ذلك ضلالاً شاكين فقال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾؛ المعنى: ما هم إلا يظنون.

وقوله -عز وجل- ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ يجوز في حجتهم الرفع، فمن رفع جعل حجتهم اسم كان و﴿أَن قَالُوا﴾ خبر كان ومن نصب ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ جعل اسم «كان»: «أن» مع صلتها، ويكون المعنى: ما كان حجتهم إلا مقالتهم ائتوا بآياتنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: كل أحد يجزى بما تضمنه كتابه كما قال -عز وجل-: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾[الإسراء: ١٣، ١٤] فهذا مثل قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ رفع «كل» بالابتداء والخبر ﴿تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾، ومن نصب جعله بدلاً من «كل» الأول؛ والمعنى: وترى كل أمة تدعى إلى كتابها.

ومعنى «جاثية» جالسة على الركب يقال: «قد جثا فلان يجثو» إذا جلس على ركبته ومثله جذا يجذو والجذو أشد استيفازاً من الجثو لأن الجذو أن يجلس صاحبه على أطراف أصابعه.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ الاستنساخ: لا يكون إلا من أصل وهو يستنسخ كتاباً من كتاب فنستنسخ ما يكتب الحفظة ويثبت عن الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾؛ جواب «أما» محذوف لأن في الكلام دليلاً عليه.

المعنى: وأما الذين كفروا فيقال لهم: ألم تكن آياتي تتلى عليكم ودلت الفاء في قوله «أفلم» على الفاء المحذوفة في قولك: فيقال لهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ و«الساعة»

فمن نصب فعطف على الوعد؛ المعنى: وإذا قيل: إن وعد الله حق وإن الساعةَ، ومن رفع فعلى معنى: وقيل الساعة لا ريب فيها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: اليوم نترككم في العذاب كما تركتم الإيمان والعمل ليومكم والدليل على ذلك قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ ويجوز: «لا يَخْرُجُون منها».

﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يردون ولا يلتمس منهم عمل ولا طاعة.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ أي: له العظمة في السماوات والأرض.

وقوله[1]: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾؛ ويقرأ ﴿مِنَّةً﴾ جميعاً منصوب على الحال؛ والمعنى: كل ذلك منه تفضل وإحسان.

و﴿مِنَّةً﴾ على معنى المفعول له؛ والمعنى: فعل ذلك منة أي: من منة لأن تسخيره بمعنى مَنَّ عليكم.

* * *

(١) عاد المصنف إلى الكلام على الآية (١٣) من هذه السورة.

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

جاء في التفسير: ما خلقناهما إلا للحق أي: لإقامة الحق وتكون على معنى ما قامت السماوات والأرض إلا بالحق.

وقوله: بعقب هذا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: أعرضوا بعد أن قام لهم الدليل بخلق الله السماوات والأرض وما بينهما.

ثم دعاهم إلى الدليل لهم على بطلان عبادة ما يعبدون من الأوثان فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ويقرأ: «أريتم» بغير ألف.

﴿مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ما تدعونه إلهاً من دون الله.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾؛ أي: في خلق السماوات أي: فلذلك أشركتموهم في عبادة الله -عز وجل-.

﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: ائتوني بكتاب أنزل فيه برهان ما تدعون.

﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ ويقرأ: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ» وقرئت: «أو أثرة من علم» بإسكان الثاء- ومعناها إذا قال: ﴿أَثَارَةٍ﴾ على معنى علامة من علم، ويجوز أن يكون على معنى بقية من علم ويجوز أن يكون على معنى ما يؤثر من العلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾؛ أي: من أضل ممن عبد غير الله وجميع ما خلق الله دليل على وحدانيته فمن أضل ممن عبد حجراً لا يستجيب له.

وقال: ﴿وَمَنْ﴾، وقال: ﴿وَهُمْ﴾ وهو لغير ما يعقل لأن الذين عبدوها أجروها مجرى ما يميز فخوطبوا على مخاطباتهم كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ولو كانت «ما» لكان جيداً كما قال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ﴾[مريم: ٤٢].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾؛ أي: كانت الأصنام كافرة بعبادتهم إياها تقول ما دعوناهم إلى عبادتنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ

﴿فِيهِ﴾؛ أي: فلستم تملكون من الله شيئاً أي: الله أملك بعباده.

﴿كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى هو شهيد و«به» في موضع رفع.

وقوله في هذا الموضع ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ معناه: أنه من أتى من الكبائر العظام ما أتيتم به من الافتراء على الله جل وعلا ثم تاب فإن الله غفور رحيم له.

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: ما كنت أول من أرسل قد أرسل قبلي رسل كثيرون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾: كان رسول الله -عليه السلام- رأى في منام أنه سيصير إلى أرض ذات نخل وشجر وقد شكا أصحابه الشدة التي نالتهم، فلما أعلمهم أنه سيصير إلى أرض ذات نخل وشجر وتأخر ذلك استبطأوا ما قال -عليه السلام- فأعلمهم أن الذي يتبعه ما يوحى إليه إن أمر بقتال أو انتقال وكان ذلك الأمر وحياً فهو متبعه، ورؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾:

جاء في التفسير: إن عبد الله بن سلام صار إلى النبي -عليه السلام- فآمن به وقال له: سل اليهود عني فإنهم سيزكونني عندك ويخبرونك بمكاني من العلم فسألهم النبي -عليه السلام- عنه من قبل أن يعلموا أنه قد آمن فأخبروا عنه بأنه أعلمهم بالتوراة وبمذهبهم، وأنه عالم ابن عالم فآمن بحضرتهم وشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا بعد إيمانه: أنت شرنا وابن شرنا، قال: «ألم يأتكم في التوراة عن موسى -عليه السلام-: إذا رأيتم محمداً فاقرؤوه السلام مني، وآمنوا به» وأقبل يقفهم من التوراة على أمكنة فيها ذكر النبي -عليه السلام- وصفته وهم يستكبرون ويجحدون ويتعمدون ستر ذلك بأيديهم.

وجواب: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أتؤمنون.

ثم أعلم أن هؤلاء المعاينين خاصة لا يؤمنون فقال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قد جعل جزاءهم على كفرهم بعدما تبين لهم الهدى مدهم في الضلالة.

وقيل: في تفسير قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ على مثل شهادة عبد الله بن سلام، والأجود -والله أعلم- أن يكون ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ على مثل شهادة النبي -عليه السلام-.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾: جاء في التفسير: أنه لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع: لو كان ما دخل فيه هؤلاء من الدين خيراً ما سبقونا إليه ونحن أعز منهم وإنما هؤلاء رعاة إليهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾؛ ﴿إِمَاماً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ عطف عليه ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِياً﴾.

المعنى-والله أعلم-: وهو مصدق لما بين يديه لساناً عربياً، لما جاء بعد هذا الموضع ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ﴾ وحذف «له» ههنا أعني من قوله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لأن قبله ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾، فالمعنى: وهذا كتاب مصدق له، أي: مصدق التوراة.

﴿لِسَاناً عَرَبِياً﴾ منصوبان على الحال؛ المعنى: مصدق لما بين يديه عربياً وذكر ﴿لِسَاناً﴾ توكيداً كما تقول: «جاءني زيد رجلاً صالحاً» تريد: جاءني زيد صالحاً، وتذكر «رجلاً» توكيداً.

وفيه وجه آخر على معنى: وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لمعنى مصدق النبي -عليه السلام-؛ فيكون المعنى: مصدق ذا لسان عربي.

وقوله: ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ ويقرأ: «لتنذر الذين ظلموا».

﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الأجود أن يكون «بشرى» في موضع رفع؛ المعنى: وهو بشرى للمحسنين، ويجوز أن يكون بشرى في موضع نصب على معنى: لينذر الذين ظلموا وبشر المحسنين بشرى.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ معنى ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: أقاموا على توحيد الله وشريعة نبيه -عليه السلام-.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً﴾ وتقرأ: ﴿حُسْناً﴾ وكلتاهما جيد ونصب: ﴿إِحْسَاناً﴾ على المصدر لأن معنى: وصيناه بوالديه أمرناه بأن يحسن إليهما إحساناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً﴾، و﴿كَرْهاً﴾ وقد قرئ بهما جميعاً؛ المعنى:

حملته أمه على مشقة ووضعته على مشقة.

وقوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾؛ وقد قرئت: «وفصله ثلاثون شهراً».

ومعنى «فصاله» فطامه، وأقل ما يكون الحمل لستة أشهر والاختيار: وفصاله، لأن الذي جاء في الحديث «لا رضاع بعد الفصال» يعني الفطام.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: جاء في التفسير أن «الأشد» ثلاث وثلاثون سنة.وقيل: «الأشد» ثماني عشر سنة.وقيل: «الأشد» بلوغ الحلم.

والأكثر: أن يكون ثلاثاً وثلاثين، لأن الوقت الذي يكمل فيه الإنسان في بدنه وقوته واستحكام شبابه أن يبلغ بضعاً وثلاثين سنة وكذلك في تمييزه.

وقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ معناه: اجعل ذريتي صالحين.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾، ويجوز ﴿الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُم أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾.

فالقراءة ﴿يُتَقَبَّلُ﴾، و﴿نَتَقَبَّلُ﴾ وكذلك «يُتجاوز ونَتجاوز ويَتقبل» جائز ولا أعلم أحداً قرأ بها.

وقوله: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ هذا منصوب لأنه مصدر مؤكد لما قبله لأن قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ بمعنى الوعد لأنه قد وعدهم الله القبول فوعد الصدق توكيد لذلك.

وقوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ وقد قرئت ﴿أُفِّ لَكُمَا﴾ و«أفَّ لكما» وقد فسرنا ذلك في سورة بني إسرائيل.

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾؛ ويقرأ: «أن أخرُج»، ويجوز «أتعدانِّي» بالإدغام، وإن شئت أظهرت النونين وإن شئت أسكنت الياء وإن شئت فتحتها.

وقد رويت عن بعضهم: «أتعدانني» بالفتح وذلك لحن لا وجه له فلا تقرأن به لأن فتح نون الاثنين خطأ، وإن حكي ذلك في شذوذ فلا تحمل القراءة على الشذوذ.

ويروى أن قوله في الآية التي قبل هذه إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ نزلت في أبي بكر -رحمة الله عليه-.

فأما قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾؛ فقال بعضهم: إنها نزلت في عبد الرحمن

قبل إسلامه وهذا يبطله قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

فأعلم الله أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب وإذا أعلم بذلك فقد أعلم أنهم لا يؤمنون وعبد الرحمن مؤمن ومن أفاضل المؤمنين وسَرَوَاتِهِم.

والتفسير الصحيح: إنها نزلت في الكافر العاق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ و «لنوفيهم» جميعاً بالنون والياء.

وقوله ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أكثر القراءة الفتح في النون والتفخيم في النار، وأكثر العرب على إمالة الألف إلى الكسر، وبها يقرأ أبو عمرو «على النار» يختار الكسر في الراء لأن الراء عندهم حرف مكرر فكأن كسرته كسرتان.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ بغير ألف الاستفهام، ويقرأ: «أأذهبتم بهمزتين» محققتين وبهمزتين الثانية منهما مخففة، وهذه الألف للتوبيخ إن شئت أتت فيه الألف، وان شئت حذفتها كما تقول: «يا فلان أحدثت ما لا يحل لك جنيت على نفسك»، إذا وبخته، وإن شئت: «أأخذت ما لا يحل لك أجنيت على نفسك».

وقوله عز وجل ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ معناه: الهوان.

وقوله ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾؛ والأحقاف: رمال مستطيلة مرتفعة كالدكاوات وكانت هذه الأحقاف منازل عاد.

وقوله ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ أي: قد أنذروا بالعذاب إن عبدوا غير الله في ما تقدم قبل إنذار هود، وعلى لسان هود -عليه السلام-.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾؛ أي: لتصرفنا عنها بالإفك والكذب.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: ائتنا بالعذاب الذي تعدنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي هو يعلم متى يأتيكم العذاب.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾؛ إليكم، ويقرأ بالتخفيف «وأبلغكم».

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ أي: أدلكم على الرشاد وأنتم تصدون وتعبدون آلهة لا تنفع ولا تضر.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾؛ أي: فلما رأوا السحاب الذي نشأت منه الريح التي عذبوا بها قد عرضت في السماء، قالوا: الذي وعدتنا به سحاب فيه الغيث والحياة والمطر، فقال الله -عز وجل-: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقرأ بعضهم: قل بل هو ما استعجلتم، كانت الريح من شدتها ترفع الراعي مع غنمه، فأهلك الله قوم عاد بتلك الريح.

وقوله: ﴿مُمْطِرُنَا﴾ لفظه لفظ معرفة، وهو صفه للنكرة؛ المعنى: عارض ممطر إيانا، إلا أن إيانا لا يفصل ههنا.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾؛ في هذا خمسة أوجه:

أجودها في العربية والقراءة ﴿لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾، وتأويله: لا يرى شيء إلا مساكنهم لأنهم قد أهلكوا، ويجوز فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم فيكون المعنى: لا ترى أشخاص إلا مساكنهم، ويقرأ: «فأصبحوا ترى مساكنهم»، أي: لا ترى شيئاً إلا مساكنهم، وفيها وجهان بحذف الألف، «فأصبحوا لا يرى إلا مسكنهم»، و«مسكنهم»، ويجوز: «فأصبحوا لا ترى إلا مسكنهم». يقال: سَكَن يَسْكُن مَسْكَناً ومَسْكِناً.

وقوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ المعنى: مثل ذلك نجزي القوم المجرمين أي: بالعذاب.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾؛ «إن» ههنا في معنى «ما» و «إن» في النفي مع «ما» التي في معنى الذي أحسن في اللفظ من «ما»، ألا ترى أنك لو قلت: «رغبت فيما رغبت فيه» لكان الأحسن من أن تقول: «قد رغبت فيما إن رغبت فيه»، تريد في الذي ما رغبت فيه، لاختلاف اللفظين.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: دعاؤهم آلهتهم هو إفكهم، ويقرأ: «آفكهم»، بمعنى وذلك كذبهم وكفرهم.

والإِفْك والأَفْك مثل النِّجس والنَّجْس ويقرأ: «أَفكهم»، أي: ذلك جعلهم ضلالاً كافرين، أي: صرفهم عن الحق، ويقرأ: «آفكهم» أي: جعلهم يأفكون، كما تقول: ذلك أكفرهم وأضلهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: صه، ومعنى «صه» اسكت.

يقال: إنهم كانوا تسعة نفر أو سبعة نفر، وكان فيهم: «زوبعة».

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنذِرِينَ﴾؛ أي: فلما تلي عليهم القرآن حتى فرغ منه، ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنذِرِينَ﴾، ويقرأ: «فلما قضاه».

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: يصدق جميع الكتب التي تقدمته والأنبياء الذين أتوا بها، وفي هذ دليل أن النبي -عليه السلام- بعث إلى الإنس والجن.

وقوله -عز وجل-:﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾؛ دخلت الباء في خبر «أن» بدخول «أو لم» في أول الكلام، ولو قلت: ظننت أن زيداً بقائم لم يجز، ولو قلت: «ما ظننت أن زيداً بقائم» جاز بدخول «ما»، ودخول «أن» إنما هو توكيد للكلام فكأنه في تقدير: أليس الله بقادر على أن يحيي الموتى فيما ترون وفيما تعملونه.

وقد قرئت: «يَقْدِر على أن يحيي الموتى»، والأولى هي القراءة التي عليها أكثر القراء. وهذه جائزة أيضاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

جاء في التفسير: أن أولى العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله عليهم أجمعين.

قوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِن نَهَارٍ بَلاغٌ﴾؛ الرفع على معنى: ذلك، والنصب في العربية جيد بالغ. إلا أنه يخالف المصحف، و«بلاغاً» على معنى: يبلغون بلاغاً، كما قال: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾[النساء: ٢٤]، منصوب على معنى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[النساء: ٢٣]، تأويله:: كتب الله ذلك كتاباً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الفَاسِقُونَ﴾؛ تأويله: أنه لا يهلك مع رحمة الله وتفضله إلا القوم الفاسقون.

ولو قرئت: فهل يَهلك إلا القوم الفاسقون كان وجهاً، ولا أعلم أحداً قرأ بها.

وما في الرجاء لرحمة الله شيء أقوى من هذه الآية، وهي قوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الفَاسِقُونَ﴾.

سورة محمد ﷺ

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

قوله -عز وجل-: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أحبطها فلا يرون في الآخرة لها جزاء؛ والمعنى: أن أحبط ما كان من صدقاتهم وصلتهم الرحم وأبواب البر بكفرهم، كما قال -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾[البقرة: ١٦٧].

وهؤلاء هم الذين صدوا عن النبي ﷺ، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾؛ أي: كفر عنهم وما اقترفوه وهم كافرون لما آمنوا بالله وبالنبي عليه السلام وسائر الأنبياء أجمعين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: أصلح أمرهم وحالهم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾؛ أي: الأمر ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل. وجائز أن يكون ذلك الإضلال لاتباعهم الباطل، وتلك الهداية والكفارات باتباع المؤمنين الحق.

ثم قال -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾؛ أي كذلك يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين؛ أي: كالبيان الذي ذكر، ومعنى قول القائل: «ضربت لك مثلاً»، أي: بينت لك ضرباً من الأمثال، أي: صنفاً منها.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾؛ معناه: فاضربوا الرقاب ضرباً، منصوب على الأمر، وتأويله: فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم، ولكن أكثر مواقع الضرب ضرب العنق.

فأعلمهم الله-عز وجل- كيف القصد، وكيف قال: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢] أي: فليس يتوهم بهذا أن الضرب محظور إلا على الرقبة فقط.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾:

﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل، كما قال: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾[الأنفال: ٦٧]، فالأسر بعد المبالغة في القتل.

ثم قال: ﴿فَإِمَّا مَناً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾؛ أي: بعد أن تأسروهم إما مننتم عليهم مناً، وإما أطلقتموهم بفداء.

وقوله: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؛ «حتى» موصولة بالقتل والأسر.

المعنى: فاقتلوهم وأسروهم حتى تضع الحرب أوزارها.

والتفسير: حتى يؤمنوا ويسلموا، فلا يجب أن تحاربوهم، فما دام الكفر فالجهاد والحرب قائمة أبداً.

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ «ذلك» في موضع رفع.

المعنى: الأمر ذلك، أن يكون منصوباً على معنى: افعلوا ذلك.

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: لو يشاء الله لعذبهم وأهلكهم لأنه قادر على ذلك.

﴿وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾؛ المعنى: ولكن أمركم بالحرب ليبلو بعضكم ببعض، أي: ليمحص الله المؤمنين ويمحق الكافرين.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ ذكر في أول السورة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وأعلم أن الذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم، ويقرأ على أربعة أوجه:

«قاتلوا في سبيل الله»، و«قتلوا في سبيل الله» على ما لم يسم فاعله، ويقرأ بتشديد التاء، ويقرأ: «قتلوا في سبيل الله» بفتح القاف.

وقوله: ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾؛ يصلح لهم أمر معاشهم في الدنيا مع ما يجازيهم به في الآخرة، كما قال -عز وجل-: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[المائدة: ٦٦] أي: لو أنهم قبلوا ما فيها وما في الكتب وعملوا به لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وكما قال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ فوعد الله -عز وجل- المؤمنين إصلاح شأنهم وبالهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾:

«الذين» في موضع رفع على الابتداء، ويكون ﴿فَتَعْساً لَهُمْ﴾ الخبر، ويجوز أن يكون

نصباً على معنى: أتعسهم الله.

والتعس في اللغة: الانحطاط والعثور.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ كرهوا القرآن ونبوة النبي عليه السلام فأحبط الله أعمالهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ المعنى: فينظروا كيف كان عاقبة الكافرين الذين من قبلهم.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي: أمثال تلك العاقبة، فأهلك الله -عز وجل- بالسيف من أهلك ممن صد عن النبي ﷺ.

﴿ذَلِكَ بأن اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: بأن الله ولي الذين آمنوا يتولاهم في جميع أمورهم في هدايتهم والنصر على عدوهم.

﴿وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾؛ أي: لا ولي ينصرهم من الله في هداية ولا علو على المؤمنين.

ثم أعلم الله -عز وجل- ما أعد للمؤمنين مع النصر والتمكين، وما أعد للكافرين مع الخذلان والإضلال فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾؛ ثم بين صفات تلك الجنات وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾؛ والمثوى: المنزل.

وقوله --عز وجل- -: ﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾؛ المعنى: وكم من أهل قرية هي أشد قوة من أهل قريتك التي أخرجتك. أي: الذين أخرجوك أهلكناهم بتكذيبهم للرسل فلا ناصر لهم.

ثم أعلم فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾:

وهذه ألف توقيف وتقرير، لأن الجواب معلوم، كما أنك إذا قلت: «من يفعل السيئات يشق، ومن يفعل الحسنات يسعد» ثم قلت: «الشقاء أحب إليك أم السعادة». فقد علم أن الجواب: «السعادة»، فهذا مجرى ألف التوقيف والتقرير.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ﴾؛ تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾، ففسر تلك الأنهار فقال: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ

التِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾، أي: مما عرفتموه من الدنيا من جناتها وأنهارها جنة.

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾؛ ويقرأ: «من ماء غير أَسِنٍ»، ويجوز في العربية: «أسن»، يقال: «أَسِنَ الماء يَأْسَن فهو آسن»، ويقال: «الماء أسن» إذا تغيرت رائحته.

فأعلم الله -عز وجل- أن أنهار الجنة لا تتغير رائحة مائها، ولا يأسن، ﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾؛ أي: لا يدخله ما يدخل ألبان الدنيا من التغير.

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾؛ ليس فيها غول أي: لا تسكر ولا تفنى.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾؛ معناه: مصفى لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾، وصف تلك الجنات فقال: مثل الجنة جنة كما وصف. وقيل: إن المعنى: صفة الجنة، وهو نحو مما فسرنا.

ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لهم فيها من كل الثمرات ولهم مغفرة من ربهم، يغفر ذنوبهم ولا يجازون بالسيئات، ولا يوبخون في الجنة، فيهنؤون بالفوز العظيم والعطاء الجزيل.

ثم قال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾؛ المعنى: أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء، كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار.

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾؛ واحد الأمعاء: معى، مثل ضلع وأضلاع.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني المنافقين.

﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾؛ كانوا يسمعون خطبة النبي ﷺ فإذا خرجوا سألوا أصحاب رسول الله استهزاء وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال، فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾، أي: ماذا قال الساعة، ومعنى ﴿آنِفاً﴾ من قولك: «استأنفت الشيء» إذا ابتدأته، و«روضة أنف» إذا لم تزرع بعد، أي: ليس لها أول يرعى، فالمعنى: ماذا قال من أول وقت يقرب منا.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ الضمير الذي في ﴿زَادَهُمْ﴾ يجوز أن يكون فيه أحد ثلاثة أوجه، فأجودها -والله أعلم- أن يكون فيه ذكر الله، فيكون المعنى: مردوداً على قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ

﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾، ويجوز أن يكون الضمير في زادهم قول الرسول ﷺ؛ فيكون المعنى: والذين اهتدوا زادهم مما قال رسول الله ﷺ هدى، ويجوز أن يكون زادهم إعراض المنافقين واستهزاءهم هدى.

قوله: ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾؛ يجوز أن يكون وألهمهم تقواهم، كما قال -عز وجل-: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[الفتح: ٢٦]، ويجوز أن يكون -والله أعلم- وأتاهم ثواب تقواهم.

وقوله-عز وجل-: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ ويقرأ ﴿إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ بغير ياء، والأولى أجود لموافقة المصحف.

وموضع «أن» نصب على البدل من الساعة؛ المعنى: فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة، وهذا من البدل المشتمل على الأول في المعنى: وهو نحو قوله: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ﴾[الفتح: ٢٥]؛ المعنى: لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات.

ومعنى ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظرون واحد.

ومن قرأ: ﴿أَن تَأْتِهِم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ فعلى الشرط والجزاء، و﴿أَشْرَاطُهَا﴾: أعلامها.

﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾؛ المعنى: فمن أين لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة، و﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ في موضع رفع بقوله: ﴿فَأَنَّى﴾.

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ هذه الفاء جاءت للجزاء،؛ المعنى: قد بينا ما يدل على أن الله واحد فأعلم الله أنه لا إله إلا الله، والنبي -عليه السلام- قد علم ذلك خطاب يدخل الناس فيه مع النبي ﷺ كما قال الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[الطلاق: ١]؛ والمعنى: من علم فليقم على ذلك العلم، كما قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦] أي: ثبتنا على الهداية.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم متصرفاتكم ويعلم مثواكم، أي: يعلم أين مقامكم في الدنيا والآخرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾؛ كان المؤمنون -رحمهم الله- يأنسون بالوحي ويستوحشون لإبطائه فلذلك قالوا: ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾؛ ومعنى ﴿مُحْكَمَةٌ﴾: غير منسوخة فإذا

ذكر فيها فرض القتال ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾: يعني المنافقين.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ﴾ لأنهم منافقون يكرهون القتال لأنهم إذا قعدوا عنه ظهر نفاقهم فخافوا على أنفسهم القتل.

﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ وعيد وتهديد؛ المعنى: وليهم المكروه.

وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾؛ قال سيبويه والخليل: المعنى: طاعة وقول معروف أمثل، وقيل: إنهم كان قولهم أولاً طاعة وقول معروف.

ويجوز -والله أعلم- أن يكون المعنى: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة أي: يؤمر فيها بالطاعة، وقول معروف، فيكون المعنى: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة وقول معروف.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾؛ المعنى: فإذا جد الأمر ولزم فرض القتال.

فلو صدقوا الله فآمنوا بالنبي وعملوا بما نزل عليه وما أمروا به من فرض القتال لكان خيراً لهم. المعنى: لكان صدقهم الله بإيمانهم خيراً لهم.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ وقرأ نافع ﴿فَهَلْ عَسِيتُمْ﴾، واللغة الجيدة البالغة ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بفتح السين، ولو جاز ﴿عَسِيتُمْ﴾ لجاز أن تقول: «عَسِي ربكم أن يرحمكم».

ويقرأ: ﴿أَن تَوَلَّيْتُمْ﴾، و﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ بضم التاء وفتحها.

﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾؛ فمن قرأ ﴿أَن تَوَلَّيْتُمْ﴾ -بالفتح- ففيها وجهان؛ أحدهما: أن يكون المعنى: لعلكم إن توليتم عما جاءكم به النبي أن تعودوا إلى أمر الجاهلية، فتفسدوا ويقتل بعضكم بعضاً، ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، أي: تئدوا البنات، أي: تدفنوهن أحياء، ويجوز أن يكون فلعلكم إن توليتم الأمر أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، ويقتل قريش بني هاشم، وبنو هاشم قريشاً، وكذلك إن توليتم.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى﴾؛ المعنى: رجعوا بعد سماع الهدى وتبينه إلى الكفر.

وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾؛ معنى ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين لهم ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أملى الله لهم كما قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾[آل عمران: ١٧٨] معناه: إنما نؤخرهم.

وقد قرئت: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأُمْلَى لَهُمْ﴾ على الإخبار عن الله -عز وجل-؛

المعنى: وأنا أملي، وقرئت «وأملي لهم» بفتح الياء على ما لم يسم فاعله.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾؛ المعنى: -والله أعلم- الأمر ذلك أي: ذلك الإضلال بقولهم للذين كرهوا ما نزل الله.

وجاء التفسير: أنهم اليهود، قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر، أي: سنطيعكم في التظاهر على عداوة النبي ﷺ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ و ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾ قرىء بهما جميعاً فمن قرأ بالفتح فهو جمع سر وأسرار، مثل: حمل وأحمال، ومن قرأ ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ فهو مصدر أسررت إسراراً.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾؛ يفعلون بهم ذلك في نار جهنم -والله أعلم- ويكون المعنى: فكيف يكون حالهم إذا توفتهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم.

قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾؛ المعنى: -والله أعلم- ذلك جزاؤهم بأنهم اتبعوا الذي أسخط الله وكرهوا رضوانه، أي: اتبعوا من خالف النبي ﷺ ومن خالف الشريعة وكرهوا الإيمان بالنبي ﷺ واتباع شريعته.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: ما كان من عمل خير نحو صلة رحم أو بر أو صدقة، أحبط الله ذلك بكفرهم بما أتى النبي ﷺ.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَن لَن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾:

﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ المنافقون أي: لن يبدي الله عداوتهم لرسوله عليه السلام ويظهره على نفاقهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ﴾؛ معنى ﴿لأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرفناكهم تقول: «قد أريتك هذا الأمر» أي: عرفتك إياه؛ المعنى: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة وهي «السيماء».

﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾ أي: تلك العلامة ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ﴾ أي: في نحو القول.

فدل بهذا -والله أعلم- أن قول القائل وفعله قد يدل على نيته، وقول الناس: قد لحن فلان في ناحية عن الصواب عدل عن الصواب إليها وقول الشاعر[1] [من الخفيف]:

---

(١) هو: مالك بن أسماء الفزاري.

مَنْطِقٌ صائِبٌ وتَلْحَنُ أَحْيا ناً وخَيْرُ الحَديثِ ما كان لَحْنا

تأويله: خير الحديث من مثل هذه ما كان لا يعرفه كل أحد، إنما يعرف أمرها في أنحاء قولها.

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾؛ معنى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: لنختبرنكم بالحرب.

﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾؛ وهو -عز وجل- قد علم قبل خلقه المجاهدين منهم والصابرين، ولكنه أراد العلم الذي يقع به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم على أعمالهم؛ فتأويله: حتى يعلم المجاهدين علم الشهادة، وقد علم -عز وجل- الغيب ولكن الجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم شهادة.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ أعلم -عز وجل- أنه لا يغفر لمن مات على الكفر.

وقوله: ﴿فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾؛ والسلم معناه: الصلح، يقال للصلح: «هو السَّلْم، والسِّلْم، والسَّلَم»، ومعنى ﴿فَلاَ تَهِنُوا﴾ لا تضعفوا، يقال: «وَهَن يَهِن»، إذا ضعف، فمنع الله المسلمين أن يدعوا الكافرين إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ تأويله: أنتم الأعلون في الحجة، ومعكم النبي ﷺ وما أتى به من الآيات التي تدل على نبوته.

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: ناصركم.

وقوله -عز وجل- ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: لن ينقصكم شيئاً من ثوابكم.

وقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾؛ وقد عرفهم أن أجورهم الجنة.

﴿وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾؛ أي: أن يجهدكم بالمسألة.

﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾؛ و«نخرج أضغانكم»، قرئ بهما جميعاً.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾؛ جاء في التفسير: إن تولى العباد استبدل الله بهم الملائكة.

وجاء أيضاً: إن تولى أهل مكة استبدل الله بهم أهل المدينة، وجاء أيضاً: يستبدل قوماً من أهل فارس.

فأما ما جاء أنه يستبدل بهم الملائكة فهو في اللغة على ما أَتَوَهَم فيه بُعْد لأنه لا يقال للملائكة: ((قوم))، إنما يقال قوم للآدميين.

والمعنى: -والله أعلم- وإن تتولوا يستبدل قوماً أطوع منكم، كما قال-عز وجل- ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ﴾ إلى آخر القصة، فلم يَتَولَّ جميع الناس-والله أعلم.

* * *

سورة الفتح

مدنية كلها بإجماع

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله – عز وجل-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾.

جاء في التفسير: أنه فتح الحديبية، وكان هذا الفتح عن غير قتال، قيل: إنه كان عن تراض بين القوم.

والحديبية: بئر؛ فسمي المكان باسم البئر. والفتح: إنما هو الظفر بالمكان والمدينة والقرية، كان بحرب أو بغير حرب، أو كان دخول عنوة أو صلح، فهو فتح لأن الموضع إنما يكون منغلقاً فإذا صار في اليد فهو فتح.

ومعنى ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ -والله أعلم- هو الهداية إلى الإسلام.

وجاء في التفسير: قضينا لك قضاء مبيناً، أي: حكمنا لك بإظهار دين الإسلام والنصرة على عدوك.

وأكثر ما جاء في التفسير: أنه فتح الحديبية، وكافٍ في فتح الحديبية آية عظيمة من آيات النبي ﷺ، وذلك أنها بئر فاستقى جميع ما فيها من الماء حتى نزحت ولم يبق فيها ماء، فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان مع النبي ﷺ، وليس يخرج هذا من معنى ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ أنه يعنى به الهداية إلى الإسلام، ودليل ذلك قوله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾.

فالمعنى: فتحنا لك فتحاً في الدين لتهتدي به أنت والمسلمون.

ومعنى﴿نَصْراً عَزِيزاً﴾ نصراً ذا عز لا يقع معه ذل.

ثم أعلم أنه من فتح الدين على نبيه عليه السلام فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: أسكن قلوبهم التعظيم لله ولرسوله والوقار.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾:

تأويله -والله أعلم-: أن جميع ما خلق الله في السماوات والأرض جنود له، لأن ذلك كله يدل على أنه واحد وأنه لا يقدر أحد أن يأتي بمثل شيء واحد مما خلق الله في

السماوات والأرض. ومن الدليل أيضاً على أن معنى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ أي: إنا أرشدناك إلى الإسلام وفتحنا لك أمر الدين.

قوله -عز وجل-: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾:

كانوا يظنون أنه لن يعود الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبهم، فجعل الله دائرة السوء عليهم.

ومن قرأ﴿ظَنَّ السُّوءِ﴾ فهو كما ترى أيضاً.

قال أبو إسحاق: ولا أعلم أحداً قرأ بها، وقد قيل أيضاً: إنه قرئ به، وزعم الخليل وسيبويه أن معنى «السوء» ههنا الفساد؛ والمعنى: الظانين بالله ظن الفساد، وهو ما ظنوا أن الرسول عليه السلام ومن معه لا يرجعون.

قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: الفساد والهلاك يقع بهم.

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تفسيره مثل الأول.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ عالماً حكيماً فيما دبره.

وقوله -عز وجل-﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ أي: شاهداً على أمتك يوم القيامة، وهذه حال مقدرة أي: مبشراً بالجنة من عمل خيراً ومنذراً من عمل شراً بالنار.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وخطاب للناس ولأمته؛ والمعنى: يدل على ذلك، ويجوز ليؤمنوا بالله ورسوله، وقد قرئ بهما جميعاً.

وجائز أن يكون ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ خطاباً للمؤمنين وللنبي جميعاً، لأن النبيﷺ قد آمن بالله وبآياته وكتبه ورسله.

فقوله ﴿شَاهِداً﴾حال مقدرة، أي: يكون يوم القيامة، والبشارة والإنذار حال يكون النبي ﷺ ملابساً لها في الدنيا لمن شاهده فيها من أمته، وحال مقدرة لمن يأتي بعده من أمته إلى يوم القيامة ممن لم يشاهده، يعنى بقوله: «مقدرة» أن الحال عنده في وقت الاختبار على ضربين: «حال ملابسة» يكون المخبر ملابساً لها في حين إخباره، و«حال مقدرة» لأن تلابس في ثان من الزمان.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾:

معنى﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تنصروه، يقال: «عَزَرْتُه أَعْزِرُه»، أي: نصرته مرة بعد مرة.

وجاء في التفسير: لتنصروه بالسيف، ويجوز: «ولتعزروه»، يقال: «عَزَرْتُه أَعْزُره عَزْراً»، و«عَزَّرْتُه أُعَزِّرُهُ عَزْراً وتَعْزِيراً»، ونصرة النبي ﷺ هي نصرة الله -عز وجل-.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ فهذه الهاء ترجع على الله -عز وجل-، ومعنى يسبحون الله، أي: يصلون له.

والتسبيح في اللغة: تعظيم الله وتنزيهه عن السوء.

وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: أخذك عليهم البيعة عقد لله -عز وجل- عليهم.

ومعنى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه؛ منها وجهان جاء في التفسير، أحدهما: يد الله في الوفاء فوق أيديهم، وجاء أيضاً: يد الله في الثواب فوق أيديهم. والتفسير – والله أعلم – يد الله في المنة عليهم فوق أيديهم في الطاعة.

وقوله: ﴿فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ والنكث في اللغة: نقض ما تعقده، وما تصلحه.

وجاء في التفسير: ثلاثة أشياء ترجع على أهلها، أحدها: النكث، والبغي، والمكر، قال الله -عز وجل- ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾[يونس: ٢٣]، والمكر؛ قال الله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[فاطر: ٤٣].

وقوله: ﴿فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾:

ويقرأ ﴿فَسَنُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾و يقرأ: ﴿عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ و﴿عَلَيْهِ اللَّهَ﴾ وقد فسرنا مثل هذا فيما سلف.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ بإظهار الراء عند اللام، وقد رويت عن أبي عمرو «فَاسْتَغْفِلَّنَا» بالإدغام، وكذلك في قوله: «يَغْفِلَّكُم».

ولا يجيز سيبويه والخليل إدغام الراء في اللام، ولا يحكون هذه اللغة عن أحد من العرب، ويذكرون: أن إدغام الراء في اللام غير جائز، لأن الراء عندهم حرف مكرر، فإذا

أدغم في اللام بطل هذا الإشباع الذي فيه.

وأعلم الله -عز وجل- أن هؤلاء منافقون فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وأعلم الله -عز وجل- أنهم خلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ بظنهم ظن السوء، فأطلع الله نبيه على ذلك قال الله -عز وجل-: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي: ظن الفساد.

﴿وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴾؛ أي: هالكين عند الله -عز وجل- فاسدين في علمه.

وقوله -عز وجل-: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا﴾ أي: ليس لنا من يقوم بها.

﴿وَأَهْلُونَا﴾؛ أي: وشغلتنا أهلونا، ليس لنا من يخلفنا فيهم، ويجوز: «وأهلنا»، ولكن القراءة المشهورة بالواو، فمن قال ﴿وَأَهْلُونَا﴾ فهو جمع: «أهل وأهلون»، ومن قال: «وأهلنا» فهو يتضمن الجماعة كلها.

وقوله جل وعز ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾؛ يعنى بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قوله -عز وجل-: ﴿قُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُواً﴾[التوبة: ٨٣]، فأرادوا أن يأتوا بما ينقض هذا، فأعلم الله -عز وجل- أنهم لا يعقلون ولا يقدرون على ذلك فقال: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ ولو كان الكلام نهياً لقال: «قل لا تتبعونا».

وقرئت: «يريدون أن يبدلوا كلم الله» فالكلم: جمع «كلمة»، والكلام: في موضع «التكليم».

وقوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ وقد قرئت: «أو يسلموا»؛ فالمعنى: تقاتلونهم حتى يسلموا، وإلا أن يسلموا.

فإن قال قائل: قد قال رسول الله ﷺ لهم: ﴿لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُواً﴾ فكيف جاز أن يقول: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ﴾؟

فإنما قال ﷺ ذلك لأن الله أعلمه أنهم منافقون، وأعلمه مع ذلك أنهم لا يقاتلون معه.

وجاء في التفسير: أنه عني بقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ﴾ بنو حنيفة، وأبو بكر -رحمه الله-، قاتلهم في أيام مسيلمة. وجاء أيضاً: هوازن؛

والمعنى: أن كل من ظاهره الإسلام فعلى أصحاب النبي ﷺ أن يدعوهم إلى الجهاد.

والصحابة لم يطلعوا في وقت الجهاد على من يقاتل ومن لا يقاتل، ولا على من ينافق ومن لا ينافق، لأن الإظهار على ذلك من آيات الأنبياء عليهم السلام.

وقد قيل: ﴿إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ﴾ أي: إلى فارس والروم، وذلك في أيام أبي بكر وعمر -رحمة الله عليهما ومن بعدهم-.

﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً﴾ أي: إن تبتم وتركتم النفاق وجاهدتم.

﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾؛ أي: إن قمتم على تقاكم وتوليتم عن الإيمان والجهاد كما توليتم على عهد رسول الله ﷺ يعذبكم عذاباً أليماً.

ثم أعلم -عز وجل- بخبر من أخلص نيته فقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: علم أنهم مخلصون.

وجاء في التفسير: أن الذين بايعوا تحت الشجرة كانوا ألفاً وأربعمائة، وقيل: ألفاً وخمسمائة، وقيل: ألفاً وثلاثمائة، وكانوا بايعوا النبي ﷺ على أن لا يولوا في القتال ولا يهربوا، وسميت بيعة الرضوان لقوله -تعالى-: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وكانت الشجرة: ((سَمُرَة)).

﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ قيل: إنه فتح خيبر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾:

وهذا التكرير في الوعد، أي: فجعل هذه يعني: خيبر.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كف أيدي الناس عنهم لما خرجوا وخلفوا عيالهم بالمدينة حفظ الله عيالهم وبيضتهم، وقد همت اليهود بهم فمنعهم الله ذلك.

﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾.؛ والمعنى: وعدكم الله مغانم أخرى.

﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾؛ قد علمها الله، وهو ما يغتم المسلمون أن لا يقاتلهم أحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾:

المعنى: لو قاتلك من لم يقاتلك لنصرت عليهم، لأن سنة الله النصر لأوليائه وحزبه.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾؛ وسنة الله: منصوبة على المصدر، لأن قوله ﴿لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ﴾ معناه: سن الله خذلانهم سنة، وقد مر مثل هذا في قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[النساء: ٢٤]، وفي قوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾[النمل: ٨٨].

ولو قرئت: «سُنَّةُ الله التي قد خلت من قبل» لكان جيداً في العربية؛ المعنى: تلك سنة الله التي قد خلت من قبل، ولكن لا أعلم أحداً قرأ بها فلا تقرأن بها.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾:

﴿مَكَّةَ﴾ لا تنصرف لأنها مؤنثة وهي معرفة.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾:

جاء في التفسير: أن رسول الله ﷺ أتى باثني عشر رجلاً أخذوا بلا عهد ولا عقد، فخلاهم النبي ﷺ ومَنَّ عليهم، وكان عاقبة ذلك أن سَلِم للرجل من بينه وبينه قرابة ومن هو مؤمن أن يصاب، قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِنْهُم مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وموضع «أن» رفع بدل من رجال؛ المعنى: لولا أن تطأوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات.

ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾؛ أي: لو تميز الكافرون من المسلمين لأنزلنا بالكافرين ما يكون عذاباً لهم في الدنيا.

ومعنى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِنْهُم مَعَرَّةٌ﴾:

قيل: لولا أن يقتلوا منهم مؤمنين خطأ فتلزمكم الديات؛ والمعنى: -والله أعلم- لولا كراهة أن يلحقكم عيب بأن قتلتم من هو على دينكم إذ أنتم مختلطون بهم لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً.

وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾:

﴿وَالْهَدْيَ﴾ منصوب سبق على الكاف والميم؛ المعنى: وصدوا الهدي.

و﴿مَعْكُوفاً﴾ محبوساً أن يبلغ محله.

﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾؛ كما وصفنا لنصرناكم عليهم، ولكن الذي منع عن ذلك كراهة وطء المؤمنين بالمكروه والقتل.

وموضع ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ منصوب على معنى: وصدوا الهدي محبوساً عن أن يبلغ محله.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أنزل الله عليهم الوقار والهيبة.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾:

وجاء في التفسير: أن شعارهم: «لا إله إلا الله»، وكلمة التقوى توحيد الله والإيمان برسوله -عليه السلام-.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: كانوا أحق بها من غيرهم، لأن الله -عز وجل- اختار لنبيه ولدينه أهل الخير ومستحقيه، ومن هو أولى بالهداية من غيره.

وقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾:

رأى الرسول ﷺ في منامه كأنه وأصحابه -رحمهم الله- يدخلون مكة محلقين ومقصرين، فصدق الله رسوله الرؤيا فدخلوا على ما رأى. وكانوا قد استبطأوا الدخول.

ومعنى ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ يخرج على وجهين؛ أحدهما: لتدخلن أن أمركم الله. ويجوز وهو حسن أن يكون ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ جرى على ما أمر الله به في كل ما يفعل متوقعاً، فقال ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الكهف: ٢٣، ٢٤].

وقوله -عز وجل-: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾:

وصفهم الله بأن بعضهم متحنن على بعض، وأن عليهم السكينة والوقار، وبعضهم يخلص المودة لبعض، وهم أشد على الكفار.

﴿أَشِدَّاءُ﴾: جمع: «شديد»، والأصل: أشدداء، نحو نصيب وأنصباء، ولكن الدالين تحركتا فأدغمت الأولى في الثانية، ومثل هذا قوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾؛ أي: في وجوههم علامة السجود، وهي علامة الخاشعين لله المصلين وقيل: يبعثون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الطهور، وهذا يجعله الله لهم يوم القيامة علامة وهي السيماء يبين بها فضلهم على غيرهم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾؛ أي: ذلك صفة محمد ﷺ وأصحابه في التوراة.

ثم أعلم أن صفتهم في الإنجيل أيضاً: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾.

معنى ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أخرج نباته.

﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ﴾؛ أي: فآزر الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض.

﴿عَلَى سُوقِهِ﴾ جمع: ساق.

وقوله: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾:

﴿الزُّرَّاعَ﴾ محمد عليه السلام والدعاة إلى الإسلام وهم أصحابه.

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾:

﴿مِنْهُم﴾ فيه قولان: أن تكون ﴿مِنْهُم﴾ ههنا تخليصاً للجنس من غيره كما تقول: «أنفق نفقتك من الدراهم لا من الدنانير»؛ المعنى: اجعل نفقتك من هذا الجنس، وكما قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[الحج: ٣٠]، لا يريد أن بعضها رجس، وبعضها غير رجس، ولكن المعنى: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان.

فالمعنى: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أصحاب النبي ﷺ المؤمنين أجراً عظيماً وفضلهم الله على غيرهم لسابقتهم وعظم أجرهم.

والوجه الثاني: أن يكون المعنى: وعد الله الذين أقاموا منهم على الإيمان والعمل الصالح مغفرة وأجراً عظيماً.

* * *

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ وقد قرئت: ((لا تقدموا)) بفتح التاء والدال.

والمعنى: إذا أمرتم بأمر فلا تفعلوه قبل الوقت الذي أمرتم أن تفعلوه فيه.

وجاء في التفسير: أن رجلاً ذبح يوم الأضحى قبل صلاة الأضحى فتقدم قبل الوقت فأعلم الله أن ذلك غير جائز.

ففي هذا دليل أنه لا يجوز أن يؤدي فرض قبل وقته ولا تطوع قبل وقته مما جاءت به السنة، وفي هذا الدليل أن تقديم الزكاة قبل وقتها لا ينبغي أن يجوز.

فأما ما يروى أن النبي ﷺ استسلف من العباس شيئاً من الزكاة، فلا أعلم أن أحداً ممن أجاز تقديم الزكاة احتج إلا بهذا الحديث.

وهذا إن صح فهو على ضربين:

أحدهما: أن يكون مخصوصاً، والآخر: أن تكون الحاجة اشتدت فوقع اضطرار إلى استسلاف الزكاة.

والإجماع أن إعطاءها في وقتها هو الحق، وهو الفضل إن شاء الله.

ومن قرأ: ﴿لاَ تُقَدِّمُوا﴾ فمعناه: كمعنى ((لا تقدموا)).

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾:

أمرهم الله -عز وجل- بتبجيل النبي -عليه السلام-، وأن يغضوا أصواتهم وأن يخاطبوه بالسكينة والوقار، وأن يفضلوه في المخاطبة، وذلك مما كانوا يفعلونه في تعظيم ساداتهم وكبرائهم.

ومعنى﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تنزلوه منزلة بعضكم من بعض فتقولوا: يا محمد خاطبوه بالنبوة، والسكينة والإعظام.

وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ معناه: لا تفعلوا ذلك فتحبط أعمالكم.

والمعنى: لئلا تحبط أعمالكم؛ فالمعنى معنى اللام في أن وهذه اللام ((لام الصيرورة)) وهي كاللام في قوله: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً فَالْتَقَطَهُ آلُ

﴿فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً﴾[القصص: ٨]؛ والمعنى: فالتقطه آل فرعون ليصير أمرهم إلى ذلك، لا أنهم قصدوا أن يصير إلى ذلك، ولكنه في المقدار فيما سبق من علم الله أن سبب الصير التقاطهم إياه.

وكذلك ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ فيكون ذلك سبباً لأن تحبط أعمالكم.

﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾؛ هذا إعلام أن النبي ﷺ ينبغي أن يجل ويعظم غاية الإجلال، وأنه قد يفعل الشيء مما لا يشعر به من أمر النبي ﷺ فيكون ذلك مهلكاً لفاعله أو لقائله، ولذلك قال بعض الفقهاء: من قال: «إن زِرَّ رسول الله ﷺ وسخ يريد به النقص منه وجب قتله»، هذا مذهب مالك وأصحابه.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾؛ أخلص قلوبهم، و«هُمْ» يخرج على تفسير حقيقة اللغة.

والمعنى: اختبر الله قلوبهم فوجدهم مخلصين، كما تقول: «قد امتحنت هذا الذهب وهذه الفضة»؛ تأويله: قد اختبرتهما بأن أذبتهما حتى خلصت الذهب والفضة فعلمت حقيقة كل واحد منهما.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾؛ يقرأ بضم الحاء والجيم، و﴿الْحُجَرَاتِ﴾ بفتح الجيم، ويجوز في اللغة: «الحجْرات» بتسكين الجيم ولا أعلم أحداً قرأ بالتسكين وقد فسرنا هذا الجمع فيما تقدم من الكتاب.

وواحد «الحجرات: حجرة»، ويجوز أن تكون الحجرات جمع: «حُجَر وحُجراتٍ»، والأجود أن تكون «الحجرات» جمع «حُجرة»، وأن الفتح جاز بدلاً من الضمة لثقل الضمتين.

وهؤلاء قوم جاؤوا إلى النبي ﷺ من بني تميم فنادوه من وراء الحجرات. ولهم في التفسير حديث فيه طول، وجملته: أنهم جاؤوا يفاخرون النبي وأنهم لم يلقوه بما يجب له -عليه السلام-.

قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: من تاب بعد هذا الفعل فالله غفور رحيم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا﴾؛ ويقرأ ﴿فَتَثَبَّتُوا أَن تُصِيبُوا﴾.

﴿قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾؛ جاء في التفسير أنها نزلت بسبب الوليد بن عقبة، كان رسول الله ﷺ

بعثه ساعياً يجبي صدقات «بني المصطلق»، وكان بينه وبينهم «إحنة» أي: عداوة.

فلما اتصل بهم خبره وقد خرج نحوهم قال بعضهم لبعض: «قد علمتم ما بيننا وبين هذا الرجل»، فامنعوه صدقاتكم، فاتصل به ذلك، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره أنهم منعوه الصدقة وأنهم ارتدوا، وأعدوا السلاح للحرب، فوجه رسول الله ﷺ بخالد بن الوليد ومعه جيش، وتقدم إليه أن ينزل بعقوتهم ليلاً، فإن رأى ما يدل على إقامتهم على الإسلام من الأذان والصلاة والتهجد أمسك عن محاربتهم، وطالبهم بصدقاتهم فلما صار خالد إليهم ليلاً سمع النداء بالصلاة، ورآهم يصلون ويتهجدون، وقالوا له: «قد استبطأنا رسالة رسول الله ﷺ في الصدقات»، وسلموها إليه، فأنزل الله -عز وجل- ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أي: بخبر.

﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا بِجَهَالَةٍ﴾ أي: كراهة أن تصيبوا قوماً بجهالة وهذا دليل على أنه لا يجوز أن يقبل خبر من فاسق وإن تبين وأن الثقة يجوز قبول خبره، والثقة من لم تجرب عليه شهادة زور ولا يعرف بفسق ولا جلد من حد وهو مع ذلك صحيح التمييز.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؛ أي: لو أطاع مثل هذا المخبر الذي أخبره بما لا أصل له لوقعتم في عنت.

والعنت: الفساد والهلاك.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾؛ هذا يعنى به المؤمنون المخلصون.

﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ ويحتمل في قلوبكم وجهين:

أحدهما: أنه دلهم عليه بالحجج القاطعة البينة، والآيات التي أتى بها النبي ﷺ المعجزة، والثاني: أنه زينه في قلوبهم بتوفيقه إياهم.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾؛ وذلك أيضاً تبيينه ما عليهم في الكفر وتوفيقه إياهم أن اجتنبوه.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾أي: هؤلاء الذين وفقهم الله-عز وجل- بتحبيب الإيمان إليهم وتكريه الكفر أولئك هم الراشدون.

﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ منصوب مفعول له؛ المعنى: فعل الله ذلك من الله ونعمة.

المعنى: ذلك فضل من الله ونعمة.

وقوله -عز وجل- ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ

إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا التِي تَبْغِي﴾.

والباغية: التي تعدل عن الحق وما عليه أئمة المسلمين وجماعتهم.

﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ حتى ترجع إلى أمر الله.

﴿فَإِن فَاءَتْ﴾: فإن رجعت.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾؛ أي: واعدلوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ وهذا قيل: نزلت بسبب جمعين من الأنصار كان بينهم قتال ولم يكن ذلك بسيوف و لا أسلحة.

جاء في التفسير أنه كان بينهم قتال بالأيدي والنعال وترام بالحجارة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾؛ ويقرأ: «بين إِخْوَانكم»، و«بين إِخْوَاتِكم»، و«بين أَخْوَتكم».

فأعلم الله -عز وجل- أن الدين يجمعهم وأنهم أخوة إذا كانوا متفقين في دينهم فرجعوا في الاتفاق في الدين إلى أصل النسب، لأنهم لآدم وحواء، ولو اختلفت أديانهم لافترقوا في النسب، وإن كان في الأصل أنهم لأب وأم، ألا ترى أنه لا يرث الولد المؤمن الأب الكافر ولا الحميم المؤمن نسيبه الكافر.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ﴾؛ عسى أن يكون المسخور منه خيراً من الساخرين، وكذلك عسى أن يكون النساء المسخور منهن خيراً من النساء الساخرات.

فنهى الله -عز وجل- أن يسخر المؤمنون من المؤمنين، والمؤمنات من المؤمنات.

﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ واللمز والهمز العيب والعض من الإنسان.

فأعلم الله أن عيب بعضهم بعضاً، يلزم العائب عيب المعيب.

﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾؛ والنبز واللقب في معنى واحد، لا يقول المسلم لمن كان يهودياً أو نصرانياً فأسلم لقباً يعيره فيه بأنه كان نصرانياً أو يهودياً.

﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾، أي: بئس الاسم أن يقول له: يا يهودي ويا نصراني وقد آمن.

ويحتمل أن يكون في كل لقب يكرهه الإنسان لأنه إنما يجب أن يخاطب المؤمن أخاه بأحب الأسماء إليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

أمر الله -عز وجل- باجتناب منهم الظن، وهو أن تظن بأهل الخير سوءاً إذا كنا نعلم أن الذي ظهر منهم خير، فأما أهل السوء والفسق فلنا أن نظن بهم مثل الذي ظهر منهم.

وقوله: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً﴾؛ والغيبة: أن يذكر الإنسان من خلفه بسوء وإن كان فيه السوء، فأما ذكره بما ليس فيه فذلك «البهت والبهتان» كذلك جاء عن النبي ﷺ.

وقوله -عز وجل--: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾؛ ويجوز «مَيِّتاً».

وتأويله: أن ذكرك بسوء من لم يحضرك بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس هو بذلك، وكذلك تقول للمغتاب فلان يأكل لحوم الناس.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ويقرأ «وكرهتموه».

فتأويله: كما تكرهون أكل لحمه ميتاً كذلك تجنبوا ذكره بالسوء غائباً.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾؛ خلقناكم من آدم وحواء، وكلكم بنو أب واحد وأم واحدة إليهما ترجعون.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾؛ والشعب: أعظم من القبيلة.

أي: يجعلكم شعوباً وقبائل لتفاخروا وإنما جعلناكم كذلك لتعارفوا.

ثم أعلمهم الله-عز وجل- أن أرفعهم عنده منزلة أتقاهم فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

ولو قرئت: «أن أكرمكم عند الله أتقاكم» جاز ذلك على معنى: وجعلناكم شعوباً ليعرف بعضكم بعضاً لأن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وقوله-عز وجل- ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

وهذا موضع يحتاج الناس إلى فهمه، وأين ينفصل المؤمن من المسلم؟ وأين يستويان؟ والإسلام: إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي ﷺ وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان الذي من هو صفته فهو مؤمن مسلم، وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شاك، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه، وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه لا يدخله في ذلك ريب، فهو المؤمن والمسلم حقاً، كما قال -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ

يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

أي: إذا قالوا: «إنا مؤمنون» فهم الصادقون، فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم، وباطنه غير مصدق فذلك الذي يقول: «أسلمت» لأن الإيمان لابد من أن يكون صاحبه صديقاً، لأن قولك: «آمنت بكذا وكذا» معناه: صدقت به، فأخرج الله هؤلاء من الإيمان فقال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: لم تصدقوا، إنما أسلمتم تعوذاً من القتل، فالمؤمن مبطن من التصديق ممثل ما يظهر، والمسلم التام الإسلام وهو مظهر الطاعة مع ذلك مؤمن بها، والمسلم الذي أظهر الإسلام تعوذاً غير مؤمن في الحقيقة، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ قيل: إن هذه نزلت في غير المنافقين.

فاعلموا أنكم إن كنتم صادقين فإنكم قد أسلمتم فلله المن عليكم لإخراجه إياكم من الضلالة إلى الهدى.

وقد قيل: إنها نزلت في غير المنافقين، في قوم من المسلمين قالوا: آمنا وهاجرنا وفعلنا وصنعنا فمنوا على رسول الله بذلك.

والأشبه -والله أعلم- أن يكون في قوم من المنافقين.

وقوله -عز وجل- ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾؛ ويقرأ «لا يألتكم»، فمن قرأ «يألتكم» لا ينقصكم، ومن قرأ ﴿لاَ يَلِتْكُم﴾ فهو من «لات يليت»، يقال: «لاَتَه يَلِيتُه، وأَلاتَه يُليتُه» إذا نقصه أيضاً، والمعنى: فيهما واحد. أعني «يألتكم ويلتكم»، والقراءة ﴿لاَ يَلِتْكُم﴾ أكثر، والأخرى أعني «يألتكم» جيدة بالغة، ودليلها في القرآن على ما وصفنا.

* * *

سورة ق

خمسة وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل- ﴿ق وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ﴾ أكثر أهل اللغة وما جاء في التفسير أن مجاز ﴿ق﴾ مجاز الحروف التي تكون في أوائل السور نحو ﴿ن﴾، و﴿الم﴾، و﴿ص﴾ وقد فسرنا ذلك.

ويجوز أن يكون معنى «قاف» معنى قضي الأمر، كما قيل: ﴿حم﴾ حم الأمر واحتج الذين قالوا من أهل اللغة أن معنى ﴿ق﴾ بمعنى قضي الأمر بقول الشاعر:

قُلْنَا لَهَا قِفِي قَالَتْ قَافِ ... لاَ تَحْسَبِي أَنَّا نَسِينَا الإِيجَافِ

معناها: فقالت: أقف.

ومذهب الناس أن قاف ابتداء للسورة على ما وصفنا، وقد جاء في بعض التفسير: أن «قاف» جبل محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء وأن السماء بيضاء وإنما اخضرت من خضرته والله أعلم.

وجواب القسم في ﴿ق وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ﴾ محذوف، يدل عليه ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً﴾؛ المعنى -والله اعلم-: والقرآن المجيد إنكم لمبعوثون.

فعجبوا فقالوا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً﴾ أي: أنبعث إذا متنا وكنا تراباً ولو لم يكن لـ«إذا» متعلق لم يكن في الكلام فائدة.

وقوله ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: يبعد عندنا أن نبعث بعد الموت، ويجوز أن يكون الجواب ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ فيكون المعنى: ق والقرآن المجيد لقد علمنا ما تنقص الأرض منهم، وحذفت اللام لأن ما قبلها عوض منها كما قال ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾[الشمس: ١] إلى قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[الشمس: ٩]؛ المعنى: لقد أفلح من زكاها.

والمعنى: ﴿مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما تأخذه الأرض من لحومهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مرِيجٍ﴾؛ ﴿مرِيجٍ﴾: مختلف ملتبس عليهم مرة يقولون للنبي: «شاعر»، ومره: «ساحر» ومرة: «معلم».

فهذا دليل على أن أمرهم مريج ملتبس عليهم.

ثم دلهم -عز وجل- على قدرته على بعثهم بعد الموت بعظيم خلقه الذي يدل على وحدانيته وأنه على كل شيء قدير فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ وأن الله -عز وجل- ممسكها بغير عمد من أن تقع على الأرض.

﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ لا صدع فيها ولا فرجة.

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾؛ والرواسي: الجبال.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾؛ أي: فعلنا ذلك لنبصر به وندل على القدرة.

ثم قال ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي: لكل عبد يرجع إلى الله ويفكر في قدرته.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾؛ أي: وأنبتنا فيها حب الحصيد، فجمع بذلك جميع ما يقتات به من حب الحنطة والشعير وكل ما حُصِد.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾؛ بسوقها: طولها؛ المعنى: وأنبتنا فيها هذه الأشياء.

وقوله ﴿رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾ ينصب على وجهين:

أحدهما: على معنى رزقناهم رزقاً، لأن إنباته هذه الأشياء رزق، ويجوز: أن يكون مفعولا له؛ المعنى: فأنبتنا هذه الأشياء للرزق.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي: كما خلقنا هذه الأشياء نبعثكم.

وقوله -عز وجل- ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ أي: فحقت عليه كلمة العذاب، والوعيد للمكذبين بالرسل، وكذلك قوله ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[الليل: ١٤ - ١٦].

وقوله ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾؛ هذا تقرير لأنهم اعترفوا بأن الله -عز وجل- الخالق، وأنكروا البعث.

فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ يقال: عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه وأعييت: إذا تعبت.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بل هم في لبس من البعث.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾؛ أي: نعلم ما يخفي وما يكنه في نفسه.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؛ والوريد: عرق في باطن العنق، وهما وريدان قال الشاعر[1] [من الرجز]:

* كَأَن وَرِيدَيْهِ رِشاءُ خُلُب *

يعني من ليف.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ما يعمله فيثبتانه؛ المعنى: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فدل أحدهما على الآخر، فحذف المدلول عليه ومثله قول الشاعر[2] [من المنسرح]:

نَحنُ بِما عِندِنا وَأَنتَ بِما عِندَكَ راضٍ وَالرَّأيُ مُختَلِفُ

أي: نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض، ومثله أيضاً [من الطويل][3]:

رَماني بِأَمرٍ كُنتُ مِنهُ وَوالِدي بَرِيّاً وَمِن أَجلِ الطَوِيِّ رَماني

المعنى: رماني بأمر كنت منه بريئاً، ووالدي بريئاً منه.

وقوله ﴿عَتِيدٌ﴾ أي: ثابت لازم.

وقوله ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: جاءت السكرة التي تدل الإنسان على أنه ميت.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالموت الذي خلق له.

وقال بعضهم: وجاءت سكرة الحق بالموت، ورويت عن أبي بكر -رحمة الله-، والمعنى واحد، وقيل: «الحق» ههنا الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾:

قيل: في التفسير: ﴿سَائِقٌ﴾ يسوقها إلى محشرها، ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بعملها.

وقيل: ﴿وَشَهِيدٌ﴾ هو العمل نفسه.

وقوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾؛ وهذا مثلٌ؛ المعنى: كنت بمنزلة من عليه غطاء وعلى قلبه غشاوة.

---

(١) هو: رؤبة بن العجاج.

(٢) هو: أحيحة بن الحلاج.

(٣) البيت لعمرو بن أحمد الباهلي.

﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾؛ أي: فعلمك بما أنت فيه نافذ، ليس يراد بهذا البصر من - بصر العين- كما تقول: فلان بصير بالنحو والفقه، تريد عالماً بهما ولم ترد بصر العين.

وقوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾؛ ﴿مَا﴾ رفع بهذا و﴿عَتِيدٌ﴾ صفة لـ﴿مَا﴾ فيمن جعل ﴿مَا﴾ في مذهب النكرة.

المعنى: هذا شيء لدي عتيد، ويجوز أن يكون رفعه على وجهين غير هذا الوجه، على أن يرفع ﴿عَتِيدٌ﴾ بإضمار كأنك قلت: «هذا شيء لدي هو عتيد»، ويجوز أن ترفعه على أنه خبر بعد خبر، كما تقول: «هذا حلو حامض»، فيكون المعنى: هذا شيء لدي عتيد، ويجوز أن يكون رفعه على البدل من «ما» فيكون المعنى: هذا عتيد.

وقوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: عند عن الحق.

وقوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ الوجه عندي -والله أعلم- أن يكون أمر الملكين، لأن ﴿أَلْقِيَا﴾ للاثنين.

وقال بعض النحويين: إن العرب تأمر الواحد بلفظ الاثنين، فتقول: «قوما واضربا زيداً يا رجل»، ورووا: أن الحجاج كان يقول: «يا حرسي اضربا عنقه»، وقالوا: إنما قيل ذلك لأن أكثر ما يتكلم به العرب فيمن تأمره بلفظ الاثنين، نحو:

[من الطويل]

* خَليلَيَّ مُرّا بي عَلى أُمِّ جُندَبِ(١) *

[من الطويل]

* قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ(٢) *

وقال محمد بن يزيد: هذا فعل مثنى توكيداً، كأنه لما قال: ﴿أَلْقِيَا﴾ ناب عن قوله: «ألق ألق»، وكذلك عنده «قفا» معناه عنده: «قف قف»، فناب عن فعلين فبني، وهذا قول صالح وأنا اعتقد أنه أمر الاثنين -والله أعلم-.

وقوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾؛ المعنى: إنما طغى وهو بضلالة وإنما دعوته فاستجاب كما قال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ

---

(١) الشطر الأول من أول قصيدة لامرئ القيس، والشطر الثاني: «نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ».

(٢) شطر من البيت الأول من معلقة امرئ القيس وتمامه: «بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ».

﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾؛ أي: من عمل حسنة فله عشر أمثالها، ومن عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ﴾؛ وقرئت: «يوم يقول لجهنم»، نصب يوم على وجهين؛ على معنى: ما يبدل القول لدي في ذلك اليوم، وعلى معنى: أنذرهم يوم نقول لجهنم، كما قال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ﴾[مريم: ٣٩].

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾ أي: أم لم تمتلئ، وإنما السؤال توبيخ لمن دخلها، وزيادة في مكروهه، ودليل على تصديق قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: ٨٥].

فأما قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ﴾؛ ففيه وجهان عند أهل اللغة:

أحدهما: أنها تقول ذلك بعد امتلائها فتقول: ﴿هَلْ مِن مَزِيدٍ﴾، أي: هل بقي في موضع لم يمتلئ أي: قد امتلأت، ووجه آخر: تقول: ﴿هَلْ مِن مَزِيدٍ﴾ تغيظاً على من عصى كما قال -عز وجل-: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾[الفرقان: ١٢].

فأما قولها هذا ومخاطبتها فالله -عز وجل- جعل فيها ما به تميز وتخاطب، كما جعل فيما خلق أن يسبح بحمده، وكما جعل في النملة أن قالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[النمل: ١٨].

وقد زعم قوم: أنها امتلأت فصارت صورتها صورة من لو ميز لقال: ﴿هَلْ مِن مَزِيدٍ﴾ كما قال الشاعر [من الرجز]:

امْتَلأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي ... مَهْلاً رُوَيْداً قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي[1]

وليس هناك قول. وهذا ليس يشبه ذاك لأن الله -عز وجل- قد أعلمنا أن المخلوقات تسبح وأننا لا نفقه تسبيحها فلو كان إنما هو أن يدل على أنها مخلوقة كنا نفقه تسبيحها.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ المعنى: لهم فيها ما يشاؤون ولدينا مزيد مما لم يخطر على قلوبهم.

---

(١) لهذا البيت ذكر في كتب النحويين ولم يعلم قائله، يذكرونه في باب: ((اسم الفاعل)) انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف (١/١٣٠)، والخصائص (١/٢٣)، مسائل خلافية في النحو (١/٣٨)، وراجع أيضاً: كتاب الأفعال (ص: ٣٤٩)، وكتاب اللامات (ص: ١٤٠).

وجاء في التفسير: أن السحاب يمر بأهل الجنة فيمطر لهم الحور، فيقول الحور: «نحن الذين قال الله -عز وجل- فيهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾».

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً﴾؛ اختلف الناس في «القرن» فقال قوم: القرن عشر سنين، وقال قوم: ثلاثون سنة، وقال قوم: سبعون سنة، وقالوا: مائة سنة، وقال قوم: مائة وعشرون سنة.

والقرن -والله أعلم- مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان، فالقرن في قوم نوح على مقدار أعمارهم.

واشتقاقه من الاقتران فكأنه المقدار الذي هو أكبر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان في بقائهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَنَقَّبُوا فِي البِلادِ هَلْ مِن مَحِيصٍ﴾؛ وقرئت ﴿فَنَقَّبُوا﴾ بالتشديد والتخفيف.

المعنى: طوقوا وفتشوا فلم يروا محيصاً من الموت، قال امرؤ القيس [من الوافر]:

وقد نقّبت في الآفاق حتّى رضيت من الغنيمة بالإياب

وتقرأ: «فنقبوا في البلاد» أي: فتشوا ونظروا، ومن هذا نقيب القوم للذي يعرف أمرهم، مثل: العريف.

قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ وقرئت: «أو أُلْقِيَ السمع».

ومعنى ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: من صرف قلبه إلى التفهم، ألا ترى أن: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[البقرة: ١٨] أنهم لم يستمعوا استماع متفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر:

* أصم عما ساءه سميع *

ومعنى ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يسمع والعرب تقول: «ألق إلي سمعك» أي: استمع مني.

ومعنى ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: وقلبه فيما يسمع.

وجاء في التفسير: أنه يعنى به أهل الكتاب الذين كانت عندهم صفة النبي ﷺ؛ فالمعنى على هذا التفسير: أو ألقى السمع وهو شهيد أن صفة النبي -عليه السلام- في كتابه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ﴾.

اللغوب: التعب والإعياء، يقال: لَغَبَ يَلْغُبُ لُغُوباً، وهذا فيما ذكر أن اليهود -لُعنت- قالت: «خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت»، فأعلم الله -عز وجل- أنه خلقها في ستة أيام وسبحانه وتعالى أن يوصف بتعب أو نصب.

ثم قال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾؛ يعني ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الفجر، ﴿وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ صلاة العصر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ صلاة المغرب.

﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ الركعتان بعد صلاة المغرب، على هذا يجوز أن يكون الأمر بالتسبيح بعد الفراغ من الصلاة.

ويقرأ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾، ﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾ فمن قرأ ﴿وَأَدْبَارَ﴾ بفتح الألف فهو جمع: «دبر»، ومن قرأ ﴿وَإِدْبَارَ﴾ فهو على مصدر: «أدبر يدبر إدباراً».

وقوله -تعالى-: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾:

جاء في التفسير: أنه يعنى به أنه ينادى بالحشر من مكان قريب، وقيل: هي الصخرة التي في بيت المقدس، ويقال: إنها في وسط الأرض.

قوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ﴾؛ أي: يوم يبعثون ويخرجون.

ومثله ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾[القمر: ٦، ٧] والأجداث: القبور.

وقال أبو عبيدة: ﴿يَوْمُ الخُرُوجِ﴾ من أسماء يوم القيامة، واستشهد بقول العجاج [من الرجز]:

أَلَيسَ يومٌ سُمِّيَ الخُرُوجا أَعظَمَ يومٍ رَجَّةً رَجُوجا

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ هذا كما قال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾[الغاشية: ٢٢] وهذا قبل أن يؤمر النبي ﷺ بالحرب لأن سورة ﴿ق﴾ مكية.

* * *

سورة الذاريات

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾:

جاء في التفسير عن علي ﷺ: أن الكواء سأله عن ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾ فقال علي: ((هي الرياح)) قال: ﴿فَالْحَامِلاتِ وَقْراً﴾ قال: ((السحاب)) قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ قال: ((الفلك))، قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ قال: ((الملائكة)).

والمفسرون جميعاً يقولون بقول علي في هذا.

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ مجرور على القسم؛ المعنى: أحلف بالذاريات وبهذه الأشياء، والجواب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾.

وقال قوم: المعنى: ورب الذاريات ذرواً كما قال -عز وجل-: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[الذاريات: ٢٣].

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ من ذرت الريح تذرو إذا فرقت التراب وغيره، يقال: ((ذرت الريح وأذرت)) بمعنى واحد، ذرت فهي ذاريةٌ وهن ذاريات وأذرت فهي مذرية ومذريات للجماعة، وذاريات أيضاً.

والمعنى: ورب الرياح الذاريات ورب السفن الجاريات، ورب الملائكة المقسمات إن ما توعدون لصادق.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾أي: إن المجازاة على أعمالكم لواقعة.

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾:

جاء في التفسير: أنها ذات الخلق الحسن، وأهل اللغة يقولون: ذات الحبك: ذات الطرائق الحسنة، والمحبوك في اللغة: ما أجيد عمله وكل ما تراه من الطرائق في الماء وفي الرمل إذا أصابته الريح فهو حبك، وواحدها: ((حباك))، مثل: ((مثال ومثل))، وتكون واحدتها أيضاً: ((حبيكة)) مثل: ((طريقة، وطرق)).

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أي: في أمر النبي ﷺ.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عنه من صرف.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُتِلَ الخَرَّاصُونَ﴾؛ هم الكذابون.

تقول: قد تخرص على فلان الباطل، ويجوز أن يكون الخراصون الذين يظنون الشيء لا يحقونه، فيعلمون بما لا يدرون صحته.

وقوله -عز وجل- ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ ويجوز: «﴿أَيَّانَ﴾ بكسر الهمزة وفتحها، أي: يقولون: متى يوم الجزاء.

وقوله ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ بنصب ﴿يَوْمَ﴾.

ويجوز: «يومُ هم على النار يفتنون»، فمن نصب فهو على وجهين؛ أحدهما: على معنى يقع الجزاء يوم هم على النار يفتنون، ويجوز أن يكون لفظه نصب ومعناه معنى رفع، لأنه مضاف إلى جملة كلام، تقول: «يعجبني يومَ أنت قائم، ويومُ أنت قائم، ويومُ أنت تقوم»، وإن شئت فتحت، وهو في موضع رفع كما قال الشاعر[1]:

لم يمنع الشرب منها غَيْرَ أن نطقت حمامة في غُصُون ذَاتُ أو قَال

وقد رويت: «غَيْرُ أن نطقت»، لما أضاف «غير» إلى «أن» وليست بِمُتَمَكِّنةٍ فتح، وكذلك لما أضاف «يوم» إلى ﴿هُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فتح، وكما قرئت: ﴿خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾[هود: ٦٦] ففتحت «يوم» و«هم» في موضع خفض لأنك أضفته إلى غير متمكن.

ومعنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون ويعذبون ومن ذلك يقال للحجارة السود التي كأنها قد أحرقت بالنور: «الفتين».

وقوله -عز وجل- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾:

أعلم -عز وجل- ما لأهل النار، ثم أعلم ما لأهل الجنة لأنه لما قال: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أعلم جزاء أهل الجنة، وجزاء أهل النار.

وقوله: ﴿آخِذِينَ﴾ نصب على الحال؛ المعنى: أن المتقين في جنات وعيون في حال أخذ ما آتاهم ربهم ولو كان في غير القرآن لجاز «آخذون» ولكن المصحف لا يخالف، ويكون المعنى: إن المتقين آخذون ما أتاهم ربهم في جنات وعيون والوجه الأول أجود في المعنى، وعليه القراءة.

وقوله -عز وجل- ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾؛ المعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل، أي: كانوا ينامون قليلاً من الليل.

---

(١) هو: قيس بن رفاعة.

ثم أعلم الله -عز وجل- في أي شيء كان سهرهم فقال ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وجائز أن يكون ﴿مَا﴾ مؤكدة لغواً وجائز أن تكون ﴿مَا﴾ مع ما بعدها مصدراً، يكون المعنى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾:

«المحروم» جاء في التفسير الذي لا ينمو له مال، والأكثر في اللغة: لا ينمى له مال، وجاء أيضاً: إنه المجازف الذي لا يكاد يكتسب.

قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي: إن ما أتى به النبي ﷺ حق، وأن قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ حق.

فالمعنى: إن هذا الذي ذكرنا في الآيات والرزق وأمر النبي حق.

﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾؛ وقرئت: ﴿مِثْلُ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، وهذا كما تقول في الكلام: «إن هذا لحق كما أنك متكلمٌ»، فمن رفع «مثل» فهي من صفة الحق؛ المعنى: إنه لحق مثل نطقكم، ومن نصب فعلى ضربين:

أحدهما: أن يكون في موضوع رفع إلا أنه لما أضيف إلى «أن» فتح، ويجوز أن يكون منصوباً على التوكيد، على معنى: إنه لحق حقاً مثل نطقكم.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾:

جاء في التفسير: أنه لما أتته الملائكة أكرمهم بالعجل، وقيل: أكرمهم بأنه خدمهم -صلوات الله عليه وعليهم-.

﴿فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سِلْمٌ﴾ وقرئت: ﴿قَالَ سَلامٌ﴾ فنصب الأولى على معنى السلام عليكم سلاماً وسلمنا عليك سلاماً، ومن قرأ ﴿قَالَ سَلامٌ﴾ فهو على وجهين على معنى: قال سلام عليكم، ويجوز أن يكون على معنى: أَمْرُنا سلام، ومن قرأ ﴿سِلْمٌ﴾ فالمعنى: قال سلم أي: أمري سلم وأمرنا سلم أي: لا بأس علينا.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾؛ رفعه على معنى: أنتم قوم منكرون.

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾:

معنى ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ عدل إليهم من حيث لا يعلمون لأي شيء عدل وكذلك يقول: راغ فلان عنا إذا عدل عنهم من حيث لا يعلمون.

وقوله: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾؛ المعنى: فقربه إليهم ليأكلوا منه فلم يأكلوا.

﴿قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ على النكير أي: أمركم ترك الأكل مما أنكره.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ﴾:

معنى ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وقع في نفسه الخوف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ معنى ﴿عَلِيمٍ﴾ أنه يبلغ ويعلم.

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾؛ والصرة: شدة الصياح ههنا.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمت وجهها.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ المعنى: وقالت: أنا عجوز عقيم، وكيف ألد ودليل ذلك قوله في موضع آخر: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾[هود: ٧٢].

﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: كما قلنا قال ربك، أي: إنما نخبرك عن الله -عز وجل- والله حكيم عليم، يقدر أن يجعل العقيم ولوداً، والعجوز كذلك فعلم إبراهيم أنهم رسل وأنهم ملائكة.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم وفيم أرسلتم.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ﴾:

أي: إنا أرسلنا إلى قوم لنهلكهم بكفرهم.

﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: معلمة على كل حجر منها اسم من جعل إهلاكه به، والمسومة: المعلمة أخذ من السومة وهي العلامة.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾؛ أي: تركنا في مدينة قوم لوط علامة للخائفين تدلهم على أن الله أهلكهم لينكل غيرهم عن فعلهم.

وقوله: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ هذا عطف على قوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾، وعلى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

وقوله: ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة.

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾: أي: تولى بما كان يتقوى به من جنده وملكه.

﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾؛ المعنى: وقال هذا ساحر أو مجنون.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾:

﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ وركنه الذي يتقوى به ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾؛ واليم: البحر.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: اللائمة لازمة له، أي: ليس ذلك الذي فُعل به بكفارة له.

والمليم في اللغة: الذي يأتي بما يجب أن يلام عليه، ومعنى «نبذناهم» ألقيناهم، وكل شيء ألقيته تقول فيه: «قد نبذته»، ومن ذلك: «نبذت النبيذ»، ومن ذلك تقول للملقوط لأنه قد رمي به.

وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾؛ أي: وفي عاد أيضاً آية على ما شرحنا في قوله: ﴿وَفِي مُوسَى﴾.

والريح العقيم: التي لا يكون معها لقح، أي: لا تأتي بمطر، وإنما هي ريح لا هلاك.

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾؛ والرميم: الورق الجاف المتحطم، مثل: الهشيم، كما قال: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[القمر: ٣١].

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وفي ثمود أيضاً آية.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ﴾.

قرئت: ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ﴾ بالخفض، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ بالنصب، فمن خفض فالمعنى: في قوم نوح، ومن نصب: فهو عطف على معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

ومعنى «أخذتهم الصاعقة»: أهلكناهم، فالمعنى: فأهلكناهم وأهلكنا قوم نوح من قبل، والأحسن -والله أعلم- أن يكون محمولاً على قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ لأن المعنى: فأغرقناه وجنوده وأغرقنا قوم نوح من قبل.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾؛ أي: بقوة.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾؛ جعلنا بينها وبين الأرض سعة.

﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾؛ عطف على ما قبله منصوب بفعل مضمر؛ المعنى: وفرشنا الأرض فرشناها.

ومعنى ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ نحن، ولكن اللفظ بقوله ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ يدل على المضمر المحذوف.

وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ المعنى: -والله أعلم- على الحيوان لأن الذكر والأنثى يقال لهما: «زوجان» ومثله ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾[النجم: ٤٥]، ويجوز أن يكون الزوجان من كل شيء، ويكون المعنى: في كل شيء في الحيوان الذكر

والأنثى ويكون في غيره صنفان أصل كل حيوان ومَوَاتٍ -والله أعلم-.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾؛ المعنى: ففروا إلى الله من الشرك بالله ومن معاصيه إليه.

﴿إِنِّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، أي: أنذركم عذابه وعقابه.

وقوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِن رَسُولٍ﴾؛ المعنى: الأمر كذلك، أي: كما فعل من قبلهم في تكذيب الرسل.

﴿إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾؛ أي: إلا قالوا هذا ساحر، ارتفع ﴿سَاحِرٌ﴾ بإضمار: «هو».

وقوله: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾؛ معناه: أوصى أولهم آخرهم، وهذه ألف التوبيخ وألف الاستفهام.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أي: لا لوم عليك إذا أديت الرسالة.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ذكرهم بأيام الله وعذابه وعقابه ورحمته.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾؛ الله -عز وجل- قد علم من قبل أن يخلق الجن والإنس من يعبده ممن يكفر به، فلو كان إنما خلقهم ليجبرهم على عبادته لكانوا كلهم عباداً مؤمنين ولم يكن منهم ضلال كافرون.

فالمعنى: وما خلقت الجن والإنس إلا لأدعوهم إلى عبادتي وأنا مريد العبادة منهم، يعني من أهلها.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾؛ أي: ما أريد أن يرزقوا أحداً من عبادي، وما أريد أن يطعموه لأني أنا الرزاق المطعم.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾؛ والقراءة الرفع وهو في العربية أحسن بكون رفع ﴿المَتِينُ﴾ صفة لله -عز وجل-، ومن قرأ: ﴿ذُو القُوَّةِ المَتِينِ﴾ جعل ﴿المَتِينِ﴾ صفة للقوة لأن تأنيث القوة كتأنيث الموعظة، كما قال ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾[البقرة: ٢٧٥]؛ المعنى: فمن جاءه وعظ.

ومعنى ﴿ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ ذو الاقتداء الشديد.

وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾؛ الذنوب في اللغة: النصيب والدلو يقال لها: «الذنوب».

المعنى: فإن للذين ظلموا نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم الذين أهلكوا نحو عاد وثمود وقوم لوط.

﴿فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ﴾؛ أي: إن أخروا إلى يوم القيامة.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: من يوم القيامة.

* * *

سورة الطور

مكية

قوله: ﴿وَالطُّورِ﴾؛ قسم، والطور: الجبل.

وجاء في التفسير: أنه الجبل الذي كلم الله عليه موسى -عليه السلام-.

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ الكتاب ههنا: ما أثبت على بني آدم من أعمالهم.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾؛ في التفسير: أنه بيت في السماء بإزاء الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم يخرجون منه ولا يعودون إليه.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ جواب القسم أي: وهذه الأشياء إن عذاب ربك، وجائز أن يكون المعنى: -والله أعلم- ورب هذه الأشياء ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾:

﴿تَمُورُ﴾ تدور، و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الويل: كلمة يقولها العرب لكل من وقع في هلكة.

قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يُشَاغِلهم بكفرهم لعب عاقبته العذاب.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً﴾ أي: يوم يزعجون إليها إزعاجاً شديداً، ويدفعون دفعاً عنيفاً، ومن هذا قوله: ﴿الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[الماعون: ٢] أي: يدفعه عما يجب له.

وقوله: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ المعنى فيقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾؛ جاء في التفسير: إن البحر يسجر فيكون نار جهنم.

وأما أهل اللغة فقالوا: «البحر المسجور»: المملوء، وأنشدوا [من المتقارب]:

إذا شاءَ طالَعَ مَسجورَةً تَرى حَولَها النبعَ وَالساسَما[١]

يعني ترى حولها عيناً مملوءة بالماء.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾؛ لفظ هذه الألف لفظ استفهام ومعناها ههنا التوبيخ والتقريع، أي: أتصدقون الآن أن عذاب الله واقع.

---

(١) البيت للنمر بن تولب.

وقوله -عز وجل- ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾:

﴿سَوَاءٌ﴾ مرفوع بالابتداء والخبر محذوف؛ والمعنى: سواء عليكم الصبر والجزع.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ معنى ﴿إِنَّمَا﴾ هنا ما تجزون إلا ما كنتم تعملون، أي: الأمر جار عليكم على العدل، ما جوزيتم إلا بأعمالكم.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ و﴿فَكِهِينَ﴾ جميعاً، والنصب على الحال.

ومعنى ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: معجبين بما آتاهم ربهم.

﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: غفر لهم ذنوبهم التي توجب النار بإسلامهم وتوبتهم.

وقوله -عز وجل- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ المعنى: يقال لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً﴾.

و ﴿هَنِيئاً﴾ منصوب وهو صفة في موضع المصدر؛ المعنى: كلوا واشربوا هنئتم هنيئاً وليهنكم ما صرتم إليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لا لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾:

معنى ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ يتعاطون فيها كأساً، يتناول هذا الكأس من يد هذا وهذا من يد هذا.

وقوله: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾؛ معناه: لا يجري بينهم ما يلغي، أي: لا يجري بينهم باطل ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا لشربه الخمر.

والكأس في اللغة: الإناء المملوء، فإذا كان فارغاً فليس بكأس.

وتقرأ: «لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ» بالنصب، فمن رفع ضربين، على الرفع بالابتداء، و﴿فِيهَا﴾ هو الخبر، وعلى أن تكون ﴿لاَ﴾ في مذهب «ليس» رافعة.

أنشد سيبويه وغيره [من مجزوء الكامل]:

مَن صَدَّ عَن نيرانِها فَأَنا ابنُ قَيسٍ لا بَراحُ[1]

ومن نصب فعلى النفي والتبرية كما قال في قوله: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة: ٢]، إلا أن

---

(١) البيت لسعد بن مالك البكري.

الاختيار عند النحويين إذا كررت «لا» في هذا الموضع الرفع، والنصب عند جميعهم جائز حسن.

وقوله -عز وجل-:﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: مشفقين من المصير إلى عذاب الله -عز وجل- فعملنا بطاعته ثم قرنوا الجواب مع ذلك الإخلاص والتوحيد بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: نوحده ولا ندعو إلهاً غيره.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾؛ أي: عذاب سموم جهنم.

وقوله: -عز وجل-: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ أي: ذكرهم بما أعتدنا للمتقين المؤمنين، والضلال للكافرين.

﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾؛ أي: لست تقول ما تقوله كهانة، ولا تنطق إلا بوحي من الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾:

﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ فجاء في التفسير: أن هؤلاء الذين قالوا هذا -وكان فيهم أبو جهل- هلكوا كلهم قبل وفاة رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا﴾ أي: تأمرهم أحلامهم بترك القبول ممن يدعوهم إلى التوحيد وتأتيهم على ذلك بالدلائل، ويَعْمَلُون أحجاراً ويعبدوها.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي: أم هم يكفرون طغياناً وقد ظهر لهم الحق.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾؛ أي: إذا قالوا: إن النبي ﷺ تقوله فقد زعموا أنه من قول البشر، فليقولوا مثله فما رام أحد منهم أن يقول مثل عشر سور ولا مثل سورة.

وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ﴾؛ معناه: بل أخلقوا من غير شيء.

وفي هذه الآية قولان وهي من أصعب ما في هذه السورة.

قال بعض أهل اللغة: ليس هم بأشد خلقاً من خلق السماوات والأرض، لأن السماوات والأرض خلقتا من غير شيء وهم خلقوا من آدم وآدم من تراب.

وقيل فيها قول آخر: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أم خلقوا لغير شيء أي: خلقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وقرئت ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتَهُمْ﴾ وقرئت: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُم﴾، وكلا الوجهين جائز.

الذرية: تقع على الجماعة، والذُّريَّات جمع، وذرية على التوحيد أكثر.

وتأويل الآية: أن الأبناء إذا كانوا مؤمنين وكانت مراتب آبائهم في الجنة أعلى من مراتبهم ألحق الأبناء بالآباء، ولم ينقص الآباء من عملهم شيئاً، وكذلك إن كان عمل الآباء أنقص، ألحق الآباء بالأبناء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عَمَلِهِم مِن شَيْءٍ﴾؛ معناها: ما أنقصناهم، يقال: «ألته يألته ألتاً» إذا نقصه، قال الشاعر[1] [من البسيط]:

أبلغ بني ثعل مغلغلة جهد الرسالة لا ألتاً ولا كذبا

ويقال لأته يليته ليتاً إذا نقصه وصرفه عن الشيء قال الشاعر:

أَبلِغ بَني ثُعَلٍ عَنّي مُغلَغَلَةً جَهدَ الرِسالَةِ لا أَلتاً وَلا كَذِبَا

وقوله -عز وجل- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾؛ الأرباب المتسلطون.

يقال: «قد يسيطر علينا وتسيطر وتصيطر» بالسين والصاد، والأصل السين، وكل سين بعدها طاء يجوز أن تقلب صاداً، تقول: «سيطر وصيطر، وسطا وصطاً».

وتفسير ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾؛ أي: عندهم ما في خزائن ربك من العلم، وقيل في ﴿خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي: رزق ربك.

وقوله -عز وجل- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾؛ وقال أهل اللغة: معنى ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، يستمعون عليه، ومثله: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل.

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: حجة واضحة.

والمعنى: -والله أعلم- أنهم كجبريل الذي يأتي النبي ﷺ بالوحي ويبين تبيينه عن الله، ما كان وما يكون.

ثم سفر أحلامهم في جعلهم البنات لله فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ أي: أنتم تجعلون لله ما تكرهون وأنتم الحكماء عند أنفسكم.

---

(١) وهو: حاتم الطائي.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾؛ المعنى: أن الحجة واجبة عليهم من كل جهة، لأنك آتيتهم بالبيان والبرهان ولم تسألهم عن ذلك أجراً.

وقوله جل وعلا: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾؛ أي: أم يريدون بكفرهم وطغيانهم كيداً فالله -عز وجل- يكيدهم ويجزيهم بكيدهم العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾؛ المعنى: بل ألهم إله غير الله.

فإن قال قائل: هم يزعمون أن الأصنام آلهتهم، فكيف قيل لهم: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ فالجواب في ذلك: ألهم إله غير الله يخلق ويرزق ويفعل ما يعجز عنه المخلوقون، فمن يفعل ذلك إلا الله -عز وجل-.

ثم نزه نفسه -عز وجل- فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

جاء في التفسير وفي اللغة: أن معناه: تنزيه الله عما يشركون، أي: عمن يجعلون شريكاً لله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾؛ أي: وإن يروا قطعة من العذاب يقولوا لشدة طغيانهم وكفرهم: «هذا سحاب مركوم».

ومركوم: قد ركم بعضه على بعض، وهذا في قوم من أئمة الكفر وهم الذين قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾[الحجر: ١٤،١٥].

فأعلم الله -عز وجل- أن هؤلاء لا يعتبرون ولا يوقنون ولا يؤمنون بأبهر ما يكون من الآيات.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾؛ وقرئت: ﴿يَصْعَقُونَ﴾؛ أي: فذرهم إلى يوم القيامة.

ثم أعلم أنه يجعل لهم العذاب في الدنيا فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

المعنى: وإن للذين ظلموا عذاباً دون عذاب الآخرة، يعني من القتل والأسر وسبي الذراري الذي نزل بهم.

وأعلم الله-عز وجل- أنه ناصر دينه ومهلك من عادى نبيه، ثم أمره بالصبر إلى أن

يقع العذاب بهم فقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: فإنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك ولا يصلون إلى مكروهك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ أي: حين تقوم من منامك.

وقيل: حين تقوم في صلاتك، وهو ما يقال مع التكبير: «سبحانك اللهم وبحمدك».

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾؛ وقرئت ﴿وَأَدْبَارَ النُّجُومِ﴾ فمن قرأ: «إدبار» بالكسر فعلى المصدر: «أدبرت إدباراً»، ومن قرأ «أدبار» بالفتح فهو جمع: «دبر».

وأجمعوا في التفسير أن معنى «أدبار السجود»، معناه: صلاة الركعتين بعد المغرب، وأن أدبار النجوم صلاة ركعتي الغداة.

* * *

سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾؛ أقسم الله -عز وجل- بالنجم.

وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ جواب القسم.

وجاء في التفسير: أن «النجم» الثريا، وكذلك يسميها العرب.

وجاء أيضاً في التفسير: أن النجم نزول القرآن نجماً بعد نجم، وكان ينزل منه الآية والآيتان، وكان بين أول نزوله إلى استتمامه عشرون سنة.

وقال بعض أهل اللغة: «النجم» بمعنى النجوم وأنشدوا [من الطويل]:

فظلت تعد النجم في مُسْتَحِيرَةٍ ... سريع بأيدي الآكلين جمودها

يصف قِدْراً كثيرة الدسم، ومعنى «تعد النجم» أي: من صفاء دسمها ترى النجوم فيه، والمستحيرة: القدر، فقال: يجمد على الأيدي الدسم من كثرته، وقالوا مثله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[الواقعة: ٧٥].

ومعنى: ﴿إِذَا هَوَى﴾؛ إذا سقط، وإذا كان معناه: نزول القرآن فالمعنى في ﴿إِذَا هَوَى﴾ إذا نزل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: يعني النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى﴾، أي: الذي يأتيكم به مما قاله بهواه.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾؛ ﴿إِنْ﴾ بمعنى «ما».

المعنى: ما هو إلا وحي.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى﴾؛ يعني جبريل -عليه السلام-.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾؛ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ من نعت قوله: ﴿شَدِيدُ القُوَى﴾، والمرة: القوة، ﴿عَلَّمَهُ﴾ علم النبي ﷺ.

وقوله: ﴿فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾؛ قال بعض أهل اللغة: «هو» ههنا يعنى به النبي -عليه السلام-.

المعنى: فاستوى جبريل والنبي ﷺ بالأفق الأعلى، وهذا عند أهل اللغة لا يجوز مثله إلا في الشعر إلا أن يكون مثل قولك: «استويت أنا وزيد»، ويستقبحون «استويت وزيد»، وإنما المعنى: استوى جبريل وهو بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية، لأنه كان يتمثل

للنبي ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل، فأحب رسول الله أن يراه على حقيقته فاستوى في أفق المشرق فملأ الأفق.

فالمعنى -والله أعلم- فاستوى جبريل في الأفق الأعلى على صورته.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾؛ ومعنى ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ واحد، لأن المعنى: أنه قرب، وتدلى زاد في القرب، كما تقول: قد دنا فلان مني وقرب، ولو قلت: «قد قرب فلان مني ودنا» جاز.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾؛ المعنى: كان ما بينه وبين رسول الله مقدار قوسين من القسي العربي أو أقرب.

وهذا الموضع يحتاج إلى شرح لأن القائل قد يقول: ليس تخلو «أو» من أن تكون للشك أو لغير الشك، فإن كانت للشك فمحال أن يكون موضع شك، وإن كان معناها: بل أدنى، بل أقرب؛ فما كانت الحاجة إلى أن يقول: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، كان ينبغي أن يكون: كان أدنى من قاب قوسين؟

والجواب في هذا -والله أعلم- أن العباد خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم، وقيل لهم في هذا ما يقال للذي يحرز، فالمعنى فكان على ما تقدرونه أنتم كقدر قوسين أو أقل من ذلك، كما تقول في الذي تقدره: هذا قدر رمحين أو أنقص من رمحين أو أرجح. وقد مر مثل هذا في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[الصافات: ١٤٧].

﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾؛ أي: فأوحى جبريل -عليه السلام- إلى النبي -عليه السلام- ما أوحى.

قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾؛ وقرئت: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ بتشديد الذال.

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾؛ جاء في التفسير: أن النبي ﷺ رأى ربه -عز وجل- بقلبه وأنه فضل خص به كما خص إبراهيم -عليه السلام- بالخلة.

وقيل: رأى أمراً عظيماً، وتفسيره ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.

وقوله-عز وجل-: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾؛ و﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾ وقرئت بالوجهين جميعاً.

فمن قرأ ﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾فالمعنى: أفتجحدونه، ومن قرأ: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾ فمعناه: أتجادلونه في أنه رأى الله -عز وجل- بقلبه، وأنه رأى الكبرى من آياته.

وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾؛ أي: ما زاغ بصر رسول الله ﷺ وما طغى، ما

عدل ولا جاوز القصد في رؤيته جبريل قد ملأ الأفق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾؛ أي: رآه مرة أخرى عند سدرة المنتهى.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾؛ جاء في التفسير: أنها جنة تسير إليها أرواح الشهداء.

فلما قص هذه الأقاصيص وأعلم-عز وجل- كيف قصة جبريل، وأن النبي ﷺ يأتيه ذلك من عند الله الذي ليس كمثله شيء قيل لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾. •

كأن المعنى -والله أعلم- أخبرونا عن هذه الآلهة التي لكم تعبدونها من دون الله -عز وجل- هل لها من القدرة والعظمة التي وُصِفَ بها رب العزة-جل وعز- شيء.

وجاء في التفسير: أن «اللات» صنم كان لثقيف يعبدونه، وأن «العزى» سمرة، وهي شجرة كانت لغطفان يعبدونها، وأن «مناة» صخرة كانت لهذيل وخزاعة يعبدونها من دون الله.

فقيل لهم: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها وتعبدون معها الملائكة، تزعمون أن الملائكة وهذه بنات الله، فوبخهم الله فقال: أرأيتم هذه الأناث أَللهِ هي وأنتم تختارون الذكران، وذلك قوله ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾.

ومن قرأ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ بتشديد التاء، فزعموا أن رجلا كان يلت السويق ويبيعه عند ذلك الصنم فسمي الصنم اللات -بتشديد التاء- والأكثر ﴿اللاَّتَ﴾ بتخفيف التاء.

وكان الكسائي يقف عليها بالهاء، يقول: «اللاه» وهذا قياس، والأجود في هذا اتباع المصحف والوقف عليها بالتاء.

وقرئت ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ بالهاء، والأجود ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ لأنه في التفسير كما ذكرنا أنه يحل فيها أرواح الشهداء.

وقوله -عز وجل-: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾؛ أي: جعلكم لله البنات ولكم البنين.

و«الضيزى» في كلام العرب: الناقصة الجائرة، يقال: «ضَازَه يُضِيزه» إذا نقصه حقه، ويقال: «ضَأَزه يَضْأَزه» بالهمز.

وأجمع النحويون أن أصل: «ضيزى»: «ضوزى» وحجتهم أنها نقلت من «فُعْلى إلى

فِعلى» أي: من «ضوزى» إلى: «ضيزى» لتسلم الياء، كما قالوا: «أبيض وبيض»، فهو مثل: «أحمر وحمرة، وأصله: «بُيْضٌ» فنقلت الضمة إلى الكسرة.

وقرئت على بعض العلماء باللغة في ضيزى لغات قال: يقال: «ضِيزى وضُوزَى وضُؤْزى» بالهمز، و «ضَأْزى» على «فَعلى» مفتوحة، ولا يجوز من هذا في القرآن إلا ما قرأ به وهو ﴿ضِيزَى﴾ بالياء غير مهموز.

وإنما لم يقل النحويون: إنها على أصلها لأنهم لا يعرفون في الكلام «فُعْلى» صفة، إنما يعرفون الصفات على «فَعْلى» بالفتح نحو: «سَكْرى وغَضْبى»، أو بالضم نحو: «حُبلى والفُضلى» وكذلك قالوا: «مشية حُيْكى»، وهي مشية يحيك فيها صاحبها، يقال: «حاك يحيك» إذا تبختر، فحُيْكى عندهم: «فُعْلى» أيضاً.

قوله -عز وجل-: ﴿وَكَم مِن مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾؛ جاءت ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ واللفظ لفظ واحد.

ولو قيل: «شفاعته» لجاز ولكن المعنى معنى جماعة، لأن «كم» سؤال عن عدد وإخبار بعدد كثير، لأن «رب» للقلة و «كم» للكثرة.

ومعنى ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ هاهنا يفسرها قوله: -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾[غافر: ٧]، إلى قوله: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[غافر: ٩].

فأعلم الله -عز وجل-: أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى.

فهذا تأويل قوله: ﴿لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: يقولون: إن الملائكة بنات الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ لأنه وصفهم بأنهم لا يريدون إلا الحياة الدنيا فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ الْعِلْمِ﴾.

إنما يعملون ما يحتاجون إليه في معاشهم، فقد نبذوا أمر الآخرة وراء ظهورهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾؛ قيل: إن اللمم نحو القبلة والنظرة وما شابه ذلك.

وقيل: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ إلا أن يكون العبد قد ألم بفاحشة ثم تاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾؛ يدل هذا على أن اللمم هو أن يكون الإنسان قد ألم بالمعصية ولم يصر ولم يقم على ذلك، وإنما الإلمام في اللغة: يوجب أنك تأتي الشيء الوقت ولا تقيم عليه، فهذا -والله أعلم- معنى «اللمم» في هذا الموضع.

وقوله -عز وجل- ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾؛ معنى «أكدى» قطع، وأصله من الحفر في البئر يقال للحافر إذا حفر البئر فبلغ إلى حجر لا يمكنه معه الحفر: قد بلغ إلى الكدية، فعند ذلك يقطع الحفر.

وقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾؛ معناه: فهو يعلم.

والرؤية على ضربين، أحدهما «رأيت»: أبصرت والآخر: علمت، كما يقول: «رأيت زيداً أخاك وصديقك» معناه: علمت. ألا ترى أن المكفوف يقول: «رأيت زيداً عاقلاً»، فلو كان من رؤية العين لم يجز.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾؛ أي: قضى.

يقال: إن إبراهيم وفى ما أمر به من ذبح ولده، فعزم على ذلك حتى فداه الله بالذبح وامتحن بالصبر على عداوة قومه حين أججت له النار فطرح فيها، وأمر بالاختتان فاختتن.

وقيل: ﴿وَفَّى﴾ وهي أبلغ من «وَفَى» لأن الذي امتحن به من أعظم المحن.

ومعنى ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ﴾أي: أم لم يخبر، ثم أعلم ما في الصحف.

وموضع ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ خفض.

المعنى: أم لم ينبأ بأن لا تزر وازرة وزر أخرى.

و «أن» هاهنا بدل من ما، ويجوز أن تكون «أن» في موضع رفع على إضمار «هو» كأنه لما قيل: بما في صحف موسى قيل: ما هو؟ قيل: هو ألا تزر وازرة وزر أخرى، ومعناه: ولا تؤخذ نفس بإثم غيرها، وكذلك قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ أي: هذا أيضاً مما في صحف إبراهيم وموسى -عليهما السلام-، ومعناه: ليس للإنسان إلا

جزاء سعيه، إن عمل خيراً جُزِي خيراً، وإن عمل شراً جُزِي شراً.

وتزر: من وَزَرَ يَزِر إذا كسب وزراً وهو الإثم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾؛ إن قال قائل: إن الله -عز وجل- يرى عمل كل عامل وعمله، فما معنى ﴿سَوْفَ يُرَى﴾؟

فالمعنى: أنه يَرى العبد سعيه يوم القيامة، أي: يرى في ميزانه عمله.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى﴾؛ أي: يجزى عمله أوفى جزاء. وجائز أن تقرأ: «سوف يَرَى»، والأجود: ﴿يُرَى﴾، لأن قولك: «إن زيداً سوف أكرم»، فيه ضعف لأن «إن» عاملة و«أكرم» عاملة، فلا يجوز أن ينتصب الاسم من وجهين، ولكن يجوز على إضمار الهاء، على معنى: سوف يراه، أو على إضمار الهاء في «إن» تقول: «إن زيداً سأكرم»، على إنه زيد سأكرم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى﴾؛ أي: إليه المرجع.

وهذا كله في صحف إبراهيم وموسى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾؛ قيل في أقنى قولان:

أحدهما: «أقنى» هو أرضى، والآخر: أقنى جعلِ له قنية، أي: جعل له أصلاً لصاحبه ثابتاً ومن هذا قولك: «قد اقتنيت كذا وكذا» أي: عملت على أنه يكون عندي لا أخرجه من يدي.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾؛ ﴿الشِّعْرَى﴾ كوكب خلف الجوزاء، وهو أحد كوكبي ذراع الأسد، وكان قومِ من العرب يعبدون الشعرى، فأعلم الله-عز وجل- أنه ربها وأنه خالقها، وهو المعبود-عز وجل-.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى﴾؛ هؤلاء هم قوم هود، وهم أُولَى عاد.

فأما ﴿الأُولَى﴾ ففيها ثلاث لغات: بسكون اللام وإثبات الهمزة، وهي أجود اللغات والتي تليها في الجودة «الأولى» بضم اللام وطرح الهمزة.

وكان يجب في القياس إذا تحركت اللام أن ألف الوصل اجتلبت لسكون اللام، ولكن جاز ثبوتها لأن ألف لام المعرفة لا تسقط مع ألف الاستفهام، فخالفت ألفات الوصل.

ومن العرب من يقول: «لولى» -يريد الأولى- فطرح الهمزة لتحرك اللام. وقد قرأ «عادا اللولى» على هذه اللغة، وأدغم التنوين في اللام. والأكثر: ﴿عَادِ الأُولَى﴾ بكسر التنوين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾، «ثمود» نسق على «عاد»، ولا يجوز أن ينصب بقوله: ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها، لا تقول: «زيداً فضربت»، فكيف وقد أتت «ما» بعد الفاء، وأكثر النحويين لا ينصب ما قبل الفاء بما بعدها.

والمعنى: ولأهلك ثمود فما أبقاهم.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾؛ المؤتفكة: المخسوف بها، أي: ائتفكت بأهلها.

ومعنى ﴿أَهْوَى﴾ أي: رفعت حين خسف بهم إلى نحو السماء حتى سمع أصوات أهل مدينة قوم لوط ثم أهويت أي: ألقيت في الهاوية.

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ معناه: فغشاها الله -عز وجل- من العذاب ما غشى.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾؛ هذا -والله أعلم- خطاب للإنسان. لما عدد عليه مما فعله الله به، مما يدل على وحدانيته، كأن المعنى: أيها الإنسان بأي نعم ربك التي تدلك على أنه واحد تشكك، لأن المرء به الشك.

وقوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾؛ أي: النبي ﷺ مجراه في الإنذار مجرى من تقدمه من الأنبياء -صلوات الله عليهم-.

وجائز أن يكون في المعنى: هذا إنذار لكم، كما أنذر من قبلكم وقد أعلمتم بما قص الله عليكم من حال من كذب بالرسل، وما وقع بهم من الإهلاك.

وقوله: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾؛ معناه: قربت القريبة، قد أزف الشيء، إذا قرب ودنا، وهذا مثل ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[القمر: ١].

ومعنى ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾؛ معناه: لا يكشف علمها متى تكون أحد إلا الله -عز وجل-، كما قال -عز وجل- ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾[الأعراف: ١٨٧].

﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾؛ أي: مما يتلى عليكم من كتاب الله.

﴿تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾؛ تفسيره: لاهون.

وقوله: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾؛ معناه: فاسجدوا لله الذي خلق السماوات والأرضين، ولا تعبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، والشعرى، لأنه قد جرى ذكر معبوداتهم في هذه السورة.

* * *

سورة القمر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾:

أجمع المفسرون، وروينا عن أهل العلم الموثوق بهم: أن القمر انشق على عهد رسول الله ﷺ.

قال أبو إسحاق: وزعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم: أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة، والأمر بين في اللفظ وإجماع أهل العلم لأن قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾؛ فكيف يكون هذا في القيامة.

قال أبو إسحاق: وجميع ما أملي عليكم في هذا ما حدثني به إسماعيل بن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن المنهال، قال: حدثنا يزيد بن زريع، قال: حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ آية فأراهم القمر مرتين انشقاقه، وكان يذكر هذا الحديث عند هذه الآية: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾.

حدثنا إسماعيل بن إسحاق قال: حدثنا مسدد، قال يحيى عن شعبة، عن قتادة، عن أنس قال: ((انشق القمر فرقتين)).

حدثنا نصر بن علي، قال: حدثنا حرمي بن عمارة، قال: حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: ((انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ)).

حدثنا إسماعيل قال: حدثنا محمد بن عيد، قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال: ((سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين)) فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾، يعني ذاهب.

حدثنا إسماعيل قال: حدثنا نصر، قال: حدثنا أبو أحمد، قال: حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله قال: ((انشق القمر فأبصرت الجبل بين فرجتي القمر)).

حدثني إسماعيل، قال: حدثنا نصر، قال: حدثني أبي، قال: أخبرنا إسرائيل، عن سماك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾ قال: ((انشق القمر حتى رأيت الجبل بين فلقتي القمر)).

حدثنا إسماعيل قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، قال: حدثنا أبو معاوية، قال: حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن معمر بن عبد الله، قال: «انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى حتى ذهبت فرقة منه خلف الجبل» فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**».

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحيى، عن شعبة وسفيان، عن الأعمش وعن إبراهيم، عن أبي معمر، عن أبي مسعود قال: «انشق القمر على عهد النبي ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه» فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**».

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا مسعود، قال: حدثنا يحيى، عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عمر مثله.

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا علي بن عبد الله، قال حدثنا سفيان، قال: أخبرنا ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن أبي معمر، عن عبد الله: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين»، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**اشهدوا اشهدوا**».

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا علي، وحدثنا به مرة أخرى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود: «انشق القمر شقتين حتى رأيناه»، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**».

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا محمد بن أبي بكر، قال: حدثنا محمد بن كثير عن سليمان -يعني ابن كثير-، عن حصين بن جبير عن أبيه قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين على هذا الجبل، وعلى هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن سحركم فلم يسحر الناس كلهم».

وحدثنا إسماعيل، قال: حدثنا محمد بن أبي بكر، قال: حدثنا زهير بن إسحاق، عن داود عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: «ثلاث قد ذكرهن الله في القرآن قد تقضين: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾، فقد انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى رآه الناس».

حدثنا إسماعيل قال: حدثنا نصر بن علي، قال: حدثنا عبد الأعلى، قال: حدثنا داود ابن أبي هند، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾، قال: «قد مضى قبل الهجرة وانشق القمر حتى رأوا شقتين».

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا علي بن عبد الله، قال: حدثنا سفيان قال: قال عمرو عن

عكرمة قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقال المشركون: سحر القمر سحر القمر، فأنزل الله -عز وجل- ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾.

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا محمد بن أبي بكر، قال: حدثنا الضحاك بن جريج، عن عمرو، عن عكرمة: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقال المشركون: سحر القمر سحر القمر، فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾.

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا عارم بن الفضل وسليمان بن حرب، قالا: حدثنا حماد ابن زيد، عن عكرمة، عن عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن السلمي قال: «انطلقت مع أبي يوم الجمعة فخطبنا حذيفة -وقال سليمان في حديثه: «فخطب حذيفة»- وهو بالمدائن فتلا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ثم قال: ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق، ألا وإن المضمار اليوم والسباق غداً»، -قال سليمان في حديثه: «فقلت لأبي أبتاه ترسل الخيل غداً»، وقال عارم في حديثه: «فقلت لأبي يستبق الناس غداً»- فلما كانت الجمعة التي تليها خطبنا فتلا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، فقال: «ألا إن الساعة قد قربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ ألا وإن المضمار اليوم والسباق غداً، والغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة».

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا حجاج بن المنهال، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب قال: كنا بالمدائن فجئنا إلى الجمعة فخطبنا حذيفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، ألا إن اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار»، فلما كانت الجمعة الأخرى خطبنا فحمد الله وأثنى عليه قال: فقال مثل قوله، وقال: «السابق من سبق إلى الجنة».

حدثنا إسماعيل، حدثنا علي، قال: حدثنا سفيان، عن سليمان، وقطر، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد الله قال: «مضى اللزام ومضت البطشة ومضى الدخان ومضى الروم».

حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا عبد الله بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله -عز وجل-: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، قال ابن زيد: «انشق القمر في

زمان رسول الله ﷺ فكان يرى نصفه على قعيقعان والنصف الآخر على أبي قيس»[1].

وقوله -عز وجل-: ﴿سحر مستمر﴾؛ أي: ذاهب وقيل: دائم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾؛ تأويله: أنه يستقر لأهل النار عملهم ولأهل الجنة عملهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ يعني من أخبار من قد سلف قبلهم فأهلكوا بتكذيبهم.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: ما فيه منتهى، تقول: «نهيته فانتهى وزجرته فازدجر».

والأصل: «فازتجر» بالتاء، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي أبدلت دالاً نحو: «مزدان» أصله: «مزتان»، وكذلك: «مزتجر»، وإنما أبدلت دالاً لأن التاء حرف مهموس والزاي حرف مجهور فأبدل من التاء من مكانها حرف مجهور، وهو: الدال، فهذا لا يفهمه إلا من أحكم كل العربية، وهذا في آخر كتاب سيبويه، والذي ينبغي أن يقال للمتعلم: إذا بنيت «افتعل أو مفتعل» مما أوله زاي فاقلب التاء دالاً، نحو: «ازدجر ومزدجر».

وقال -عز وجل-: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾؛ رفعت ﴿حِكْمَةٌ﴾ بدلا من ﴿مَا﴾؛ المعنى: وقد جاءهم حكمة بالغة، وإن شئت رفعت ﴿حِكْمَةٌ﴾ بإضمار: «هي»؛ المعنى: حكمة بالغة.

وقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾؛ «ما» جائز أن يكون في لفظ الاستفهام ومعناها التوبيخ، فيكون المعنى: فأي شيء تغني النذر، ويكون موضعها نصباً بـ«تغني».

ويجوز أن يكون نفياً على معنى: فليست تغني النذر.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾؛ وقف التمام ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ إلى ما كانوا ينكرونه من البعث، فتول عنهم يوم كذا في الآية.

ويوم: منصوب بقوله ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾، فأما حذف الواو من «يدع» في الكتاب فلأنها تحذف في اللفظ لالتقاء الساكنين، وهما الواو من يدعو واللام من الداعي، فأجريت في الكتاب على ما يلفظ بها، وأما الداعي فإثبات الياء فيه أجود، وقد يجوز حذفها لأن الكسرة تدل عليها.

وقوله -عز وجل-: ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾، منصوب على الحال؛ المعنى: يخرجون من الأجداث خشعاً أبصارهم.

---

(١) كل هذه طرق للمؤلف حول حديث انشقاق القمر وقد خرجنا نحوها في سورة البقرة.

وقرئت: «خاشعاً أبصارهم»، وقرأ ابن مسعود: «خاشعة أبصارهم»، ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد نحو: «خاشعاً أبصارهم»، ولك التوحيد والتأنيث -تأنيث الجماعة- «خاشعة أبصارهم»، ولك الجمع نحو: «خشعاً أبصارهم». تقول: «مررت بشباب حسن أوجههم، وحسان أوجُهُهُم، وحسنة أوجههم»، قال الشاعر[1]:

وشبابٍ حَسَنٍ أَوجهُهُم من إيادِ بن نزارِ بن مَعَدّ

وقوله -عز وجل-: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾؛ منصوب أيضاً على الحال؛ المعنى: يخرجون خشعاً أبصارهم مهطعين.

ومعنى ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ناظرين لا يقلعون أبصارهم.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ أي: كذبت قوم نوح نوحاً قبل قومك يا محمد.

﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾؛ وقالوا: هو مجنون كما قال قومك يا محمد لك ﷺ وعليهم أجمعين.

﴿وَازْدُجِرَ﴾ زجر بالشتم، وقد بينا ما في مزدجر في انقلاب التاء دالاً وأصل هذا: «وازتجر».

وقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾؛ والقراءة ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف، وقرأ عيسى ابن عمر النحوي «إني» بكسر الألف، وفسر سيبويه «إني» بالكسر فقال: على إرادة القول على معنى: فدعا ربه فقال: إني مغلوب، قال: ومثله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣]؛ المعنى: قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا.

ومن فتح -وهو الوجه- دعا ربه بأني مغلوب.

وقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾؛ المعنى فأجبنا دعاءه فنصرناه، وبين النصر الذي نصر به فقال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾؛ ينصب انصباباً شديداً.

﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾؛ هذا أكثر القراءة ﴿عُيُوناً﴾ بالضم، وقد رويت ﴿عُيُوناً﴾ -بكسر العين- وهي رديئة في العربية.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾؛ يعني ماء السماء والأرض ولم يقل: «فالتقى الماءان»، ولو كان ذلك لكان جائزاً، إلا أن الماء اسم يجمع ماء الأرض وماء السماء.

---

(١) وهو: الحارث بن دوس الإيادي.

ومعنى ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قدر في اللوح المحفوظ، وقيل: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ أي: كان قدر ماء السماء كقدر ماء الأرض.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ المعنى: على سفينة ذات ألواح.

والدسر: اسم المسامير والشروط التي تشد بها الألواح، وكل شيء كان نحو: السَّمْرُ وإدخال شيء في شيء بقوة وشدة فهو الدسر، يقال: «دَسَرت المسمار أَدْسُرُه وأَدْسِرُه دَسْرَاً»، و«الدسر» واحدها: «دسار» نحو: «حمار وحمر».

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ أي: فعلنا ذلك جزاء لنوح وأصحابه، أي: نجيناه ومن آمن معه، وأغرقنا من كذب به، جزاء لما صنع به[1].

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تجري بمرأى منا وحفظ.

قوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾؛ أي: تركنا هذه الفعلة وأمر سفينة نوح، ﴿آيَةً﴾ أي: علامة ليعتبر بها.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ القراءة بالدال غير المعجمة، وأصله «مذتكر» بالذال والتاء، ولكن التاء أبدل منها الدال، والذال موضع التاء، وهي أشبه بالدال من التاء فأدغمت الذال في الدال، فهذا هو الوجه، أعني القراءة بالدال-غير معجمة-.

وقد قال بعض العرب «مذكر» بالذال معجمة، فأدغم الثاني في الأول وهذا ليس بالوجه إنما الوجه إدغام الأول في الثاني.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾؛ المعنى: سهلنا، وقيل: إن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل إنما يتلوها أهلها نظراً، ولا يكادون يحفظون كتبهم من أولها إلى آخرها كما يحفظ القرآن.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾؛ صرصر شديد البرد.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾؛ يعني: نحس مشؤوم، ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ دائم الشؤم، وقيل: في يوم أربعاء في آخر الشهر لا يدور.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾؛ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ هاهنا في موضع الحال.

والمعنى: تنزع الناس مشبهين بالنخل المنقعر، فالمنقعر: المقطوع من أصوله، وكانت

---

(١) المراد: جزاء بما صنع الكاذب بسيدنا نوح، فالضمير عائد على نوح.

الريح تكبهم على وجوههم.

وقوله: ﴿نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾: النخل يذكر ويؤنث، يقال: هذا نخل، وهذه نخل، فـ﴿مُنقَعِرٍ﴾ على من قال: «هذا نخل»، ومن قال: «هذه نخل»، فمثل قوله تعالى ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[الحاقة: ٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾؛ «النذر»: جمع نذير.

﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ﴾؛ ﴿أَبَشَراً﴾ منصوب بفعل مضمر الذي ظهر يُفَسِّرُهُ، المعنى: أنتبع بشراً.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾؛ معناه: إنا إذا لفي ضلال وجنون، يقال: «ناقة مسعورة» إذا كان بها جنون، ويجوز أن يكون على معنى: إن اتبعناه فنحن في ضلال وفي عذاب.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ ﴿أَشِرٌ﴾ بمعنى بطر، يقال: «أَشِر يَأْشر أَشَراً فهو أَشِر»، مثل: «بَطِر يَبْطر بَطَراً فهو بَطِر».

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً﴾؛ ﴿فِتْنَةً﴾ منصوب مفعول له.

المعنى: إنا مرسلو الناقة لنفتنهم، أي: لنختبرهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾؛ أي: الماء قسمة بين الناقة وبين ثمود لها يوم ولهم يوم، وهذا معناه: كل شرب محتضر، يحضر القوم الشرب يوماً، وتحضر الناقة يوماً.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾؛ وكان يقال له: «أحمر ثمود، وأُحَيْمر ثمود»، والعرب تغلط فتجعل أحمر عاد فتضرب به المثل في الشؤم، قال زهير يصف حرباً [من الطويل]:

فَتُنتَج لَكُم غِلمانَ أَشأَمَ كُلُّهُم كَأَحمَرِ عادٍ ثُمَّ تُرضِع فَتَفطِمِ

ومعنى ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ فتعاطى عقر الناقة فعقر فبلغ ما أراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ﴾؛ بكسر الظاء، ويقرأ: ﴿المُحْتَظَرِ﴾ بفتح الظاء.

والهشيم: ما يبس من الورق وتكسر وتحطم، أي: فكانوا كالهشيم الذي يجمعه صاحب الحظيرة، أي: قد بلغ الغاية في الجفاف، حتى بلغ إلى أن يجمع ليوقد، ومن قرأ

﴿الْمُحْتَظَرِ﴾ بفتح الظاء، فهو اسم للحظيرة؛ المعنى: كهشيم المكان الذي يحتظر فيه الهشيم، ومن قرأ «المحتظِر» بكسر الظاء، نسبة إلى الذي يجمع الهشيم من الحطب في الحظيرة، فإن ذلك المحتظر، لأنه فاعل.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾؛ «سحر» إذا كانت نكرة يراد به سحراً من الأسحار، فإذا أردت سحر يومك قلت: «أتيته لسحر» -يا هذا- «وأتيته سَحَر» -يا هذا-.

وقوله تعالى: ﴿نِعْمَةً مِنْ عِندِنَا﴾، منصوب مفعول له؛ المعنى: نجيناهم للإنعام عليهم، ولو قرئت «نعمةٌ من عندنا» كان وجهاً، يكون المعنى: تلك نعمة من عندنا، وإنجاؤنا إياهم نعمة من عندنا.

قال أبو إسحاق: ولكني لا أعلم أحداً قرأ بها، فلا تقرأن بها إلا أن تثبت رواية صحيحة.

قال مشايخنا من أهل العلم: القراءة سنة متبعة، ولا يرون أن يقرأ أحد بما يجوز في العربية إذا لم تثبت رواية صحيحة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ «بكرة وغدوة» إذا كانتا نكرتين نونتا وصرفتا، وإذا أردت بهما بكرة يومك وغداة يومك لم تصرفهما، «فبكرة» ههنا نكرة، ولو كانت قرئت: «بكرة عذاب مستقر»، وقرئت: «نجيناهم بسحر نعمة من عندنا» كانتا جائزتين في العربية، يكون المعنى: بكرة يومهم، ولكن النكرة والصرف أجود في هذه الآية، ولم تثبت رواية في أنه كان في يوم كذا من شهر كذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾؛ راود قوم لوط لوطاً عن ضيفه، وهم الملائكة، فأمر الله -عز وجل- جبريل فسفق أعينهم بجناحيه سفقة، فأذهبها وطمسها، فبقوا في البيت عمياً حيارى.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولائِكُمْ﴾؛ أي: أكفاركم يا معشر العرب، ومن أرسل إليه النبي ﷺ ﴿خَيْرٌ مِنْ أُولائِكُمْ﴾ أي: الكفار الذين ذكرنا أقاصيصهم وإهلاكهم.

﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾؛ أي: أم أتاكم في الكتب أنكم مبرؤون مما يوجب عداءكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾؛ والمعنى: بل أيقولون نحن جميع منتصر، فيدلون بقوة واجتماع عليك.

ثم أعلم الله -عز وجل- أنه يهلكهم في الجهة التي يقدرون الغلبة منها فقال:

﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

فأعلم الله -عز وجل- نبيه -عليه السلام- أنه يظهره عليهم ويجعل كلمته العليا، فقال: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فكانت هذه الهزيمة يوم بدر.

ثم قال -عز وجل-: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾؛ أي: ليس ما نزل بهم من القتل في يوم بدر والأسر بمخفف عنهم من عذاب الآخرة شيئاً، فقال: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾، أي: أشد، وكل داهية فمعناها الأمر الشديد الذي لا يهتدي لدوائه، ومعنى ﴿وَأَمَرُّ﴾ أشد مرارة من القتل والأسر.

وقوله: ﴿إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾؛ في التفسير: إن هذه الآية نزلت في القدرية.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾؛ المعنى: يقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾؛ أي: كل ما خلقناه فمقدور مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه.

ونصب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بفعل مضمر؛ المعنى: إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر، ويدل على هذا ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾.

﴿مُسْتَطَرٌ﴾ مفعول من السطر؛ المعنى: كل صغير من الذنوب وكبير ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ مكتوب على فاعليه قبل أن يفعلوه، ومكتوب لهم وعليهم إذا فعلوه ليجازوا على أفعالهم.

وقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾؛ المعنى: ويولون الأدبار، كما قال: ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾[آل عمران: ١١١].

وكذا المعنى: في قوله: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾.

المعنى: في جنات وأنهار، والاسم الواحد يدل على الجميع فيجتزأ به من الجميع، وأنشد سيبويه والخليل [من الطويل]:

بِها جِيَفُ الحَسرى فَأَمّا عِظامُها فَبيضٌ وَأَمّا جِلدُها فَصَليبُ[١]

يريدون: وأما جلودها، وأنشد [من الرجز]:

* فِي حَلْقِكُم عَظْمٌ وَقَدْ شَجِيْنا *

(١) البيت للراعي النميري، وتقدم ذكره.

والمعنى: في حلوقكم عظام، وكما قال:

كُلُوا فِي بَطْنِكُم تَعْفُوا   فَإِنَّ زَمَانَكُمُ زَمَنٌ خَبِيص

المعنى: كلوا في بعض بطونكم.

* * *

سورة الرحمن

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-:﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾:

﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم من أسماء الله -تعالى-، لا يقال لغيره، وهو في الكتب المتقدمة، ومعناه: الرحمة.

وقوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾؛ معناه: يسَّره لأن يذكر.

وقوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾؛ قيل: إنه يعنى بالإنسان ههنا النبي ﷺ ﴿عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾؛ علمه القرآن الذي فيه بيان كل شيء.

وقيل: الإنسان ههنا آدم، ويجوز في اللغة: أن يكون الإنسان اسماً لجنس الناس جميعاً، ويكون على هذا المعنى: علمه البيان جعله مميزاً حتى انفصل الإنسان من جميع الحيوان.

وقوله -تعالى-: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾؛ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ مرفوعان بالابتداء.

وقوله ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ يدل على خبر الابتداء ويكون المعنى: الشمس والقمر يجريان بحساب، ويكون أيضاً معنى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ أنهما يدلان على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات.

وقوله -تعالى-: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾؛ قال أهل اللغة وأكثر أهل التفسير:

النجم: كل ما نبت على وجه الأرض مما ليس له ساق، والشجر: كل ماله ساق.

ومعنى سجودهما: دوران الظل معهما كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[النحل: ٤٨].

وقد قيل: إن «النجم» أيضاً يراد به النجوم، وهذا جائز أن يكون، لأن الله -عز وجل- قد أعلمنا أن النجم يسجد، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾[الحج: ١٨].

ويجوز أن يكون «النجم» ههنا يعنى به ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء، يقال لكل ما طلع: قد نجم.

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ﴾؛ المعنى: رفعها فوق الأرض وأمسكها أن

تقع على الأرض، ووضع الميزان لينتصف بعض الناس من بعض، وقيل: ﴿الْمِيزَانَ﴾ ههنا العدل، لأن المعادلة موازنة الأشياء.

وقوله: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾؛ ألا يجاوزوا القدر والعدل.

ويجوز ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا﴾ بمعنى اللام «لأن لا تطغوا»، وتكون أن لا تطغوا على النهي، ومعنى «أن» التفسير، فيكون المعنى -والله أعلم-: ووضع الميزان، أي: لا تطغوا في الميزان، ويدل عليه المعطوف عليه وهو قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

القراءة بضم التاء، وروى أهل اللغة: «أخسرت الميزان» و«خسرت» فعلى «خسرت»، ﴿وَلاَ تُخْسِرُوا﴾، ولا تقرأن بها إلا أن تثبت رواية صحيحة عن إمام في القراءة.

وقد روي أن إنساناً قرأ بها من المتقدمين ولكنه ليس ممن أخذت عنه القراءة ولا حرف يقرأ به.

وقوله: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾؛ الأنام:الإنس والجن.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾.

معنى ﴿الأَكْمَامِ﴾ ما غطي، وكل شجرة تخرج ما هو مكمم فهي ذات أكمام، وأكمام النخلة: ما غطي جمارها من السعف والليف والجذع. وكل ما أخرجته النخلة فهو ذو أكمام، والطلعة كمها قسرها، ومن هذا قيل للقلنسوة: «كمة» لأنها تغطي الرأس، ومن هذا كما القميص لأنهما يغطيان اليد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾؛

ويقرأ: «والريحانَ»، وأكثر القراءة ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾، والعصف ورق الزرع.

ويقال: التين هو العصف، ويقال: «العصفة»، قال الشاعر[1] [من البسيط]:

تَسقي مَذانِبَ قَد زالَت عَصيفَتُها حُدورُها مِن أَتِيِّ الماءِ مَطمومُ

ويروى: يأتي الماء.

ومعنى ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ذو الورق والدرق، العرب تقول: «سبحان

---

(١) وهو: علقمة الفحل.

الله وريحانه))، قال أهل اللغة: معناه: واسترزاقه، قال النمر بن تولب [من المتقارب]:

سَلامُ الإلهِ وَرَيحانَهُ وَرَحمَتَهُ وَسَماءٌ دَرَر

قال: معنى ((ريحانه)) رزقه لمن قرأ ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ عطف على العصف، ومن قرأ ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ عطف على ((حب)) ويكون المعنى: فيها فاكهة فيها الحب ذو العصف وفيها الريحان، فيكون ((الريحان)) ههنا الريحان الذي يشم، ويكون أيضاً ههنا الرزق.

فذكر الله -عز وجل- في هذه السورة ما يدل على وحدانيته من خلق الإنسان وتعليم البيان ومن خلق الشمس والقمر والسماء والأرض.

ثم خاطب الإنس والجن فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي آلاء ربكما تكذبان من هذه الأشياء المذكورة، لأنها كلها منعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته، وفي رزقه إياكم ما به قوامكم والوصلة إلى حياتكم.

والآلاء: واحدها ((أَلَى وإِلَى))، وكل ما في السورة من قوله ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فمعناه على ما فسرناه: فبأي نعم ربكما تكذبان.

قوله -عز وجل-: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِن طِينٍ لازِبٍ﴾[الصافات: ١١]، وقال: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[الحجر: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران: ٥٩]، وهذه الألفاظ التي قال الله -عز وجل- إنه خلق الإنسان منها مختلفة اللفظ وهي في المعنى راجعة إلى أصل واحد، فأصل الطين التراب.

فأعلم الله -عز وجل- أنه خلق آدم من تراب جعل طيناً، ثم انتقل فصار كالحمأ، ثم انتقل فصار صلصالا كالفخار، والصلصال: اليابس، فهذا كله أصله التراب، وليس فيه شيء ينقض بعضه بعضاً. وإنما شرحنا هذا لأن قوماً من الملحدين يسألون عن مثل هذا ليلبسوا على الضعفة.

فأعلم الله -عز وجل- من أي شيء خلق أبا الإنس جميعاً آدم -عليه السلام-، وأعلم من أي شيء خلق أصل الجن فقال: ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَارِجٍ مِن نَّارٍ﴾.

والمارج: اللهب المختلط بسواد النار.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ﴾؛ يعنى به مشرقي الشمس وكذلك القمر، ومغربي الشمس والقمر، فأحد المشرقين مشرق الشتاء والآخر مشرق

الصيف، وكذلك المغربان.

وقوله -عز وجل- ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ معناه: على الأرض.

قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾؛ يعنى بالثقلين الإنس والجن، ويجوز ﴿سَنَفْرَغُ لَكُمْ﴾ بفتح الراء، ويجوز: «سيفرغ» بفتح الياء، ويجوز: «سيفرغ لكم» بضم الياء وفتح الراء؛ ومعناه: سنقصد لحسابكم، والله لا يشغله شأن عن شأن.

والفراغ في اللغة: على ضربين؛ أحدهما: الفراغ من شغل والآخر: القصد للشيء، تقول: «قد فرغت مما كنت فيه»، أي: قد زال شغلي به، وتقول: «سأتفرغ لفلان» أي: سأجعل قصدي له.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا﴾.

والأقطار: النواحي.

﴿لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: حيثما كنتم شاهدتم حجة لله وسلطاناً تدل على أنه واحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَارٍ وَنُحَاسٌ﴾؛ ويقرأ: ﴿وَنُحَاسٍ﴾ بكسر السين، والنحاس: الدخان، والشواظ: اللهب الذي لا دخان معه.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾؛ معنى ﴿مَرَجَ﴾ خلط، يعني البحر الملح والبحر العذب.

وقوله -تعالى-: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾؛ البرزخ: الحاجز، وهو حاجز من قدرة الله.

﴿لا يَبْغِيَانِ﴾ لا يبغي الملح على العذب فيختلط به، ولا العذب على الملح فيختلط به.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾؛ المرجان: صغار اللؤلؤ، واللؤلؤ: اسم جامع للحب الذي يخرج من البحر.

وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وإنما يخرج من البحر الملح لأنه قد ذكرهما وجمعهما، فإذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما، ومثل ذلك قوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾[نوح: ١٥، ١٦]، والشمس في السماء الدنيا إلا أنه لما أجمل ذكر السبع كان ما في إحداهن فيهن.

ويقرأ: «يخرج منهما» بضم الياء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَهُ الجَوَارِ المُنشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾؛ الجواري: الوقف عليها بالياء، وإنما سقطت الياء في اللفظ لسكون اللام، والاختيار وصلها، وإن وقف عليها واقف بغير ياء فذلك جائز على بعد، ولكن يروم الكسر في الراء ليدل على حذف الياء.

ويقرأ ﴿المُنشَآتُ﴾ بكسر الشين، والفتح أجود في الشين.

ومعنى ﴿المُنشَآتُ﴾ المرفوعات الشرع، والمنشات على معنى الحاملات الرافعات الشرع.

ومعنى ﴿كَالأَعْلامِ﴾ كالجبال، قال الشاعر(١)[من الرجز]:

* إذا قَطَعنَ عَلَماً بَدا عَلَم *

والجواري: السفن.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾؛ معنى ﴿وَرْدَةً﴾ صارت كلون الورد، وذلك في يوم القيامة.

ومعنى ﴿كَالدِّهَانِ﴾ تتلون من الفزع الأكبر تلون الدهان المختلفة، والدهان جمع دهن، ودليل ذلك قوله ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾[المعارج: ٨]، أي: كالزيت الذي قد أغلي.

وقيل: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: فكانت كلون فرس وردة، والكميت: الورد يتلون فيكون في الشتاء لونه خلاف لونه في الصيف ويكون في الفصل لونه غير لونه في الشتاء والصيف.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾؛ وقال في موضع آخر: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾[الصافات: ٢٤]، فإذا كان ذلك اليوم كانت سيماء المجرمين سواد الوجه والزرقة، ودليل ذلك قوله: ﴿يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾، أي: بعلامتهم هذه ودليل ذلك قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وجُوهٌ﴾[آل عمران: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾[طه: ١٠٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾؛ قيل: تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ويلقون في النار وذلك أشد لعذابهم، والتشويه بهم.

---

(١) وهو: جرير.

وقوله: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾؛ يعني «آن» قد أنى يأني فهو آن إذا انتهى في النضج والحرارة، فإذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم الآني الذي قد صار كالمهل فيطاف بهم مرة إلى الحميم ومرة إلى النار، استجير بالله وبرحمته منها.

ثم أعلم الله -عز وجل- ما لمن اتقاه وخافه فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.

قيل: من أراد معصية فذكر ما عليه فيها فتركها خوفاً من الله -عز وجل- ورهبه عقابه ورجاء ثوابه فله جنتان.

ثم وصفهما فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾؛ والأفنان: جمع «فن»، أي: له فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من كل فن، والأفنان: الألوان، والأفنان: الأغصان، واحدها: «فنن»، وهو أجود الوجهين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾: الزوجان النوعان.

وقوله: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾؛ معناه: فيهن حور قاصرات الطرف، قد قصرن طرفهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾؛ لم يمسسهن.

ويقرأ «لم يطمُثْهن» وهي في القراءة قليلة، وفي اللغة: طَمَث يطمِث، وفي هذه الآية دليل على أن الجني يغشي، كما أن الإنسيّ يغشي.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾؛ قال أهل التفسير وأهل اللغة: هن في صفاء الياقوت وبياض المرجان، والمرجان: صغار اللؤلؤ وهو أشد بياضاً.

وقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ وإنما ذكر جنتين يعني من هاتين الجنتين وما أعد لصاحب هذه القصة غير هاتين الجنتين.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾؛ أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾؛ أي: لمن خاف مقام ربه جنتان، وله من دونهما جنتان.

والجنة في لغة العرب: البستان.

وقوله -عز وجل-: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾؛ يعني أنهما خضراوان تضرب خضرتهما إلى

السواد، وكل نبت أخضر فتمام خضرته وريّه أن يضرب إلى السواد.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾؛ جاء في التفسير: أنهما ينضخان كل خير.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾؛ قال قوم: إن النخل والرمان ليسا من الفاكهة.

وقال بعض أهل اللغة -منهم يونس النحوي وهو يتلو الخليل في القدم والحذق-: إن الرمان والنخل من أفضل الفاكهة، وإنما فصلا بالواو لفضلهما، واستشهد في ذلك بقوله -تعالى-: ﴿مَن كَانَ عَدُواً لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[البقرة: ٩٨] فقال: لفضلهما فصلا بالواو.

قوله -عز وجل-: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾؛ قيل: الإستبرق: الديباج الصفيق جداً نحو ما يعمل للكعبة والبطائن ما يلي الأرض.

وقوله: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ما يجنى من ثمرهما إذا أرادوه دنا من أفواههم حتى يتناولوه بأفواههم وأيديهم.

وقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾؛ أصله في اللغة: خيرات؛ والمعنى: أنهن ﴿خَيْرَاتٌ﴾ الأخلاق ﴿حِسَانٌ﴾ الخَلْق، وقد قرئ بها -أعني بتشديد الياء-.

وقوله -عز وجل-: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾؛ «الخيام» في لغة العرب جمع: خيمة، والخيام شيئان: الخيام: الهوادج، والخيام: البيوت.

وجاء في التفسير: إن الخيمة من هذه الخيام من درة مجوفة، ومعنى ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ مخدرات قد قصرن على أزواجهن.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾؛ وقرئت: «عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وعَبَاقِرِيّ».

القراءة هي الأولى، وهذه القراءة لا مخرج لها في العربية، لأن الجمع الذي بعد ألفه حرفان نحو: «مساجد ومفاتح» لا يكون فيه مثل: «عباقري» لأن ما جاوز الثلاثة لا يجمع بياء النسب، لو جمعت «عبقري» كان جمعه: «عباقرة»، كما أنك لو جمعت «مهلبي» كان جمعه: «مهالبة»، ولم يقل: «مهالبي».

فإن قال قائل: فمن أين جاز: «عبقري حسان»، و«عبقري» واحد، و«حسان» جمع؟

فالأصل أن واحده: «عبقرية»، والجمع: «عبقري»، كما تقول: «ثمرة وثمر ولوزة ولون»، ويكون أيضاً «عبقري» اسماً للجنس فالقراءة هي الأولى.

وأما تفسير ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ﴾ فقالوا: الرفرف ههنا رياض الجنة.

وقالوا: الرفرف الوسائد، وقالوا: المحابس، وقالوا أيضاً: فضول المحابس للفرش.

فأما العبقري؛ فقالوا: البسط، وقالوا: الطنافس المبسوطة والذي يدل على هذا من القرآن قوله: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[الغاشية: ١٥، ١٦] فالنمارق: الوسائد، والزرابي: البسط.

فمعنى ﴿رَفْرَفٍ﴾ ههنا، ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾: أنه الوسائد والبسط.

ويدل -والله أعلم- على أن الوسائد ذوات رفرف.

وأصل العبقري في اللغة: صفة لكل ما بولغ في وصفه، وأصله أن عبقر اسم بلد كان يوشي فيه البسط وغيرها، فنسب كل شيء جيد، وكل ما بولغ في وصفه إلى عبقر.

قال زهير [من الطويل]:

بِخَيلٍ عَلَيها جِنَّةٌ عَبقَرِيَّةٌ ... جَديرونَ يَوماً أَن يَنالوا فَيَستَعلوا

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم ربكما التي عددت عليكما يا معشر الجن والإنس تكذبان.

فإنما ينبغي أن يعظما الله ويمجداه فختم السورة بما ينبغي أن يمجد به -عز وجل- ويعظم فقال -عز وجل-: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾.

* * *

سورة الواقعة

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾.

يقال لكل آت كان يتوقع قد وقع، تقول: قد وقع الأمر، كقولك قد جاء الأمر، و﴿الوَاقِعَةُ﴾ ههنا: الساعة والقيامة.

وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾؛ المعنى: أنها تخفض أهل المعاصي، وترفع أهل الطاعة.

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ القراءة بالرفع، والنصب جائز ولم يقرأ به إمام من القراء، وقد رويت عن الزيدي صاحب أبي عمرو بن العلاء، فمن رفع -وهو الوجه- فالمعنى: هي خافضة رافعة ومن نصب فعلى وجهين:

أحدهما: إذا وقعت الواقعة خافضة رافعة على الحال، ويجوز على إضمار «تقع» ويكون المعنى: إذا وقعت تقع خافضة رافعة على الحال من «تقع» المضمر.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا يردها شيء كما تقول: «قد حمل فلان لا يكذب»، أي: لا يرد حملته شيء.

و ﴿كَاذِبَةٌ﴾ مصدر كقولك: «عافه الله عافية، وعَاقَبَهُ عَاقِبَة»، وكذلك: «كذب كاذبة»، وهذه أسماء في موضع المصادر.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجاً﴾؛ موضع «إذا» نصب؛ المعنى: إذا وقعت في ذلك الوقت، ويجوز النصب على تقع إذا رجت الأرض رجاً.

ومعنى ﴿رُجَّتِ﴾ حركت حركة شديدة وزلزلت.

﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَساً﴾؛ بست: لُتت وخلطت، وبست أيضاً: سيقت.

﴿هَبَاءً مُنْبَثاً﴾؛ غباراً، ومثله ﴿وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ ومثل «بست»: خلطت ولُتَّت قول الشاعر [من الرجز]:

* لا تخبزا خبزاً وبُسّا بَسّا *

ومثل سيقت وانساقت قوله:

* وَانْبَسّ حَيَّاتُ الكَثِيبِ الأَهْيَلُ *

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً﴾ أي: أصنافاً ثلاثة، يقال للأصناف التي

بعضها مع بعض: أزواج كما يقال للخفين زوجان.

وقوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ رفع بالابتداء؛ والمعنى: وأصحاب الميمنة ما هم أي شيء هم ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: شيء هم.

وهذا اللفظ مجراه في العربية مجرى التعجب ومجراه من الله -عز وجل- في مخاطبة العباد مجرى ما يعظم به الشأن عندهم، ومثله ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾[الحاقة: ١، ٢]، و﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾[القارعة: ١، ٢].

ومعنى ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أصحاب اليمين، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أصحاب الشمال، وأصحاب اليمين هم أصحاب المنزلة الرفيعة، وأصحاب الشمال هم أصحاب المنزلة الدنيئة الخسيسة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾؛ معناه: -والله أعلم- السابقون السابقون إلى طاعة الله -عز وجل- والتصديق بأنبيائه.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ الأول رفع بالابتداء، والثاني توكيد، ويكون الخبر ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

ثم أخبر أين محلهم فقال: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾؛ ويجوز أن يكون «السابقون» الأول رفعاً بالابتداء، ويكون خبره ﴿السَّابِقُونَ﴾ الثاني، فيكون المعنى: -والله أعلم- السابقون إلى طاعة الله السابقون إلى رحمة الله.

ويكون ﴿أولئك المقربون﴾ من صفتهم.

وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾؛ ﴿ثُلَّةٌ﴾ رفع على معنى: هم ثلة، والثلة: الجماعة.

وهذا -والله أعلم- معنى ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: جماعة ممن عاين الأنبياء وصدق بهم فالذين عاينوا جميع النبيين وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبي -عليه السلام-، وذلك قوله في قصة نوح: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، هؤلاء سوى سائر من آمن بجميع الأنبياء ممن عاينهم وصدقهم.

ويجوز أن يكون «الثلة» بمعنى قليل من الأولين وقليل من الآخرين، لأن اشتقاق الثلة من القطعة، والثل: الكسر والقطع، والثلة: نحو الفئة والفرقة.

وقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ متكئين ومتقابلين منصوبان

على الحال؛ المعنى: أولئك المقربون في جنات النعيم في هذا الحال.

والسرر: جمع «سرير»، مثل: «كثيب وكثب»، ومعنى ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ولا ينظر في أقفاء بعض.

وصفوا مع نعمهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودة ومن ذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وجاء في التفسير ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ مرمولة، ومعنى «مرمولة» منسوجة، نحو نسج الدروع.

وجاء في التفسير: أنها من ذهب، مثل موضونة قول الأعشى [من المتقارب]:

وَمِن نَسجِ داوُدَ مَوضونَةً　　　تُساقُ مَعَ الحَيِّ عيراً فَعيرا

وقوله -عز وجل-: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾؛ الأكواب: آنيه لا عري لها ولا خراطيم، والأباريق: ما له خرطوم وعروة.

﴿وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ﴾؛ والكأس: الإناء فيه الشراب فإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس.

وقوله: ﴿مِن مَعِينٍ﴾؛ معناه: من خمر تجري من العيون.

وقوله: ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾؛ تأويله: لا ينالهم عن شربها ما ينال أهل الدنيا من الصداع.

﴿وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ لا يسكرون، والنزيف: السكران، وإنما قيل له: نزيف ومنزوف، لأنه نزف عقله.

ويقرأ: «ولا يُنْزَفون» معناه: لا ينزف شرابهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ﴾؛ بالخفض، وقرئت بالرفع، والذين قرؤوها بالرفع كرهوا الخفض لأنه عطف على قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ﴾ فقالوا: الحور ليس مما يطاف به، ولكن مخفوض على غير ما ذهب إليه هؤلاء، لأن معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ ينعمون بهذا، وكذلك ينعمون بلحم طير وكذلك ينعمون بحور عين.

ومن قرأها بالرفع فهو أحسن الوجهين، لأن معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ بهذه الأشياء بمعنى ما قد ثبت لهم فكأنه قال: ولهم حور عين، ومثله مما حمل على

المعنى قول الشاعر[1] [من الكامل]:

بادَت وَغَيَّرَ آيَهُنَّ مَعَ البِلى إلا رَواكِدَ جَمرُهُنَّ هَباءُ
وَمُشَجَّجٌ أَمّا سَواءُ قَذالِهِ فَبَدا وَغَيَّرَ سارَهُ المَعزاءُ

لأنه قال: «إلا رواكد» كأن المعنى: بها رواكد فحمل ومشجج على المعنى.

وقد قرئت «وحوراً عيناً» بالنصب على الحمل على المعنى أيضاً، لأن المعنى: يعطون هذه الأشياء ويعطون حوراً عيناً، إلا أن هذه القراءة تخالف المصحف الذي هو الإمام، وأهل العلم يكرهون أن يقرأ بما يخالف الإمام.

ومعنى الحور: الشديدات البياض، والعين: الكبيرات العيون حِسَانُها.

ومعنى ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ﴾ أي: كأمثال الدر حين يخرج من صدفه وكِنِّه لم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال، وإنما يعنى بقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ﴾ أي: في صفائهن وتلألئهن كصفاء الدر وتلألئه.

وقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ منصوب مفعول له؛ المعنى: يفعل بهم ذلك لجزاء أعمالهم، ويجوز أن يكون ﴿جَزَاءً﴾ منصوباً على أنه مصدر، لأن معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ يجازون جزاء بأعمالهم، وهذا الوجه عليه أكثر النحويين.

وقوله: ﴿إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾؛ ﴿قِيلاً﴾ منصوب بقوله ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾؛ فالمعنى: لا يسمعون إلا قيلاً سلاماً سلاماً، منصوب من وجهين:

إحداهما: أن يكون من نعت «قيل» فيكون المعنى: لا يسمعون إلا قيلاً يسلم فيه من اللغو والإثم، والوجه الثاني: أن يكون ﴿سَلاماً﴾ منصوباً على المصدر، فيكون المعنى: لا يسمعون فيها إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاماً سلاماً، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾[يونس: ١٠].

وقوله -عز وجل-: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنضُودٍ﴾؛ المخضود: الذي قد نزع شوكه.

والطلح: جاء في التفسير أنه شجر الموز، والطلح شجر أم غيلان أيضاً، وجائز أن يكون يعنى به ذلك الشجر، لأن له نوراً طيب الرائحة جداً فخوطبوا ووعدوا بما يحبون

(١) هو الشماخ الذبياني.

مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ معناه: تام دائم.

وقوله: ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾؛ يعنى به أنه ماء لا يتعبون فيه ينسكب لهم كيف يحبون.

وقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾؛ يعني الحور، أنشأهن لأولياء الله -عز وجل-، ليس ممن وقعت عليه ولادة.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾؛ لم يطمثن.

﴿عُرُباً أَتْرَاباً﴾؛ والعرب: المتحببات إلى أزواجهن.

وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾؛ معناه: -والله أعلم- جماعة ممن تبع النبي ﷺ وعاينه، وجماعة ممن آمن به وكان بعده.

وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ﴾؛ اليحموم: الشديد السواد، وقيل: إنه الدخان الشديد السواد.

وقيل: ﴿وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ﴾ أي: من نار يعذبون بها، ودليل هذا قوله -عز وجل-: ﴿لَهُم مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[الزمر: ١٦] إلا أنه موصوف في هذا الموضع بشدة السواد.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ﴾:

قيل في التفسير: الحنث الشرك، وقيل: على الإثم العظيم، وهو -والله أعلم- الشرك والكفر بالبعث، لأن في القرآن دليل ذلك وهو ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً﴾[النحل: ٣٨]، فهذا -والله أعلم- إصرارهم على الحنث العظيم.

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ﴾؛ ويقرأ: «شراب الهيم»، والشُّربُ: المصدر، والشراب: الاسم، وقد قيل: إن الشُّرب أيضاً مصدر، والهيم: الإبل العطاش.

وقوله: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ أي: هذا غذاؤهم يوم الجزاء، أي: يوم يجازون بأعمالهم.

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ﴾؛ أي: ما يكون منكم من المني الذي يكون منه الولد، يقال: أمنى الرجل يمني، ومنى يمني. فيجوز على هذا ﴿تَمْنُونَ﴾ بفتح التاء، ولا أعلم أحداً قرأ بها فلا تقرأن بها إلا أن تثبت رواية.

وقوله: ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾؛ احتج عليهم في البعث بالقدرة على ابتداء الخلق كما قال -عز وجل-: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: ٧٨، ٧٩].

وقوله -عز وجل-: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾؛ أي: إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا ذلك.

وقوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إن أردنا أن نجعل منكم القردة والخنازير لم نسبق ولا فاتنا ذلك.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: قد علمتم ابتداء الخلق فلم أنكرتم البعث، ومعنى ﴿فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ هلا تذكرون.

وقوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: لو جعلنا ما تزرعون حطاماً، أي: أبطلناه حتى يكون متحطماً لا حنطة فيه ولا شيء مما تزرعون.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تندمون، ويجوز: ﴿فَظِلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ بكسر الظاء.

وقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: يقولون قد غرمنا، وذهب زرعنا. ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ﴾؛ وهي السحاب واحدته: «مزنة»، وجمعه: مزن.

وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً﴾؛ الأجاج: الماء الملح الذي لا يمكن شربه البتة.

﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾؛ معناه: «فهلا».

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾؛ معناه: تقدحون، تقول: «وَرِي الزند يَرِي وَرْياً، فهو وَارٍ» إذا انقدحت منه النار، وأَوْرَيْتُ النار إذا قدحتها، والعرب تقدح «بالزند والزندة»، وهذا خشب يحك بعضه على بعض فيخرج منه النار، فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾؛ أي: إذا رآها الرائي ذكر جهنم وما يخافه من العذاب، فذكر الله -عز وجل- واستجار به منه.

ومعنى ﴿وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾، المقوي الذي ينزل بالقواء، وهي الأرض الخالية.

فذكر الله -عز وجل- جميع ما يدل على توحيده وما أنعم به عليهم من خلقهم، وتغذيتهم مما يأكلون ويشربون، مما يدل على قدرته ووحدانيته، ثم قال -عز وجل-: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾ أي: فبرئ الله -عز وجل-.

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾؛ معناه: أقسم، ودخلت «لا» توكيداً كما قال -عز وجل-:

﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾[الحديد: ٢٩]، معناه: لأن يعلم أهل الكتاب.

ومواقع النجوم: مساقطها، كما قال -عز وجل- ﴿رَبِّ المَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

وقيل: إن مواقع النجوم يعنى به نجوم القرآن، لأنه كان ينزل على النبي ﷺ نجوماً شيئًا بعد شيء، ودليل هذا القول: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾؛ أي: مصون في السماء في اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ المُطَهَّرُونَ﴾؛ يعنى به الملائكة.

لا يمسه في اللوح المحفوظ إلا الملائكة، ويقرأ: «المُطَهِّرُونَ» وهي قليلة، ولها وجهان؛ أحدهما: الذين طهروا أنفسهم من الذنوب، والثاني: أن يكون الذين يطهرون غيرهم.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِن رَبِّ العَالَمِينَ﴾؛ صفة لقوله ﴿كَرِيمٌ﴾ وإن شئت كان مرفوعاً على قوله: هو تنزيل من رب العالمين.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُدْهِنُونَ﴾؛ أي: أفبالقرآن تكذبون، والمدهن: المداهن والكذاب المنافق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾؛ كانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا، ولا ينسبون السقيا إلى الله -عز وجل- فقيل لهم: أتجعلون ﴿رِزْقَكُمْ﴾ أي: شكركم بما رزقتم التكذيب.

وقرئت «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» ولا ينبغي أن يقرأ بها لخلاف المصحف.

وقد قالوا: إن تفسير ﴿رِزْقَكُمْ﴾ ههنا الشكر، ورووا أنه يقال: «وتجعلون رزقي في معنى شكري» وليس بصحيح، إنما الكلام في قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ يدل على معنى «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» أي: تجعلون شكر رزقكم أن تقولوا: مطرنا بنوء كذا، فتكذبون في ذلك.

وقوله: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ﴾؛ يعني إذا بلغت الروح الحلقوم.

﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾؛ أي: أنتم يا أهل الميت في تلك الحال ترونه قد صار إلى أن تخرج نفسه.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ﴾؛ جاء في التفسير: أنه لا يموت أحد

حتى يعلم أهو من أهل الجنة أم من أهل النار.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ ومعناه: هلا ترجعون الروح إن كنتم غير مدينين، أي: غير مملوكين مدبرين ليس لكم في الحياة والموت قدرة، فهلا إن كنتم كما زعمتم، ومثل قولكم الذي جاء في القرآن: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[آل عمران: ١٦٨]، كما قال ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[آل عمران: ١٥٦].

فالمعنى: إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلاً فهلا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم، وهلا تدرأون عن أنفسكم الموت.

وقوله: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾؛ بفتح الراء في روح؛ ومعناه: فاستراحة وبرد، وريحان: رزق، قال الشاعر [1] [من المتقارب]:

سَلامُ الإلَهِ وَرَيحانُهُ وَرَحمَتُهُ وَسَماءٌ دَرَر

ورويت «فرُوح» بضم الراء، وتفسيره: فحياة دائمة لا موت بعدها، وريحان: رزق.

وجائز أن يكون «ريحان» ههنا تحية لأهل الجنة، وأجمع النحويون أن أصل ريحان في اللغة: «ريحان» من ذوات الواو فالأصل: «ريوحان» فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الأولى، فصارت: «ريّحان» فخفف كما قالوا في «ميّت»: «مَيْت»، ولا يجوز في «ريحان» التشديد إلا على بعد، لأنه قد زيد فيه ألف ونون فخفف بحذف الياء وألزم التخفيف.

ورفعه على معنى فأما إن كان المتوفى من المقربين فله روح وريحان.

وقوله: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾؛ وقد بيّن ما لأصحاب اليمين في أول السورة.

ومعنى ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة وقد علمت ما أعد لهم من الجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ ويقرأ: ﴿فَنُزْلٌ﴾ بالتخفيف والتثقيل، فمعناه: فغذاء من حميم وتصلية جحيم، أي: إقامة في جحيم.

فأعلم الله -عز وجل- أن الجحيم ههنا للمكذبين الضالين.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾؛ أي: إن هذا الذي قصصنا عليك في هذه السورة

---

(١) هو: النمر بن تولب.

من الأقاصيص، وما أعد الله لأوليائه وأعدائه وما ذكر مما يدل على وحدانيته ليقين حق اليقين، كما تقول: «إن زيداً لعالم حق عالم، وإنه للعالم حق العالم» إذا بالغت في التوكيد.

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: فنزه الله -عز وجل- من السوء، لأن معنى سبحان الله تنزيه الله من السوء كذلك عن رسول الله ﷺ وأهل اللغة كذلك يفسرونه: براءة الله من السوء، وأنشد سيبويه في هذا المعنى [من السريع]:

أَقولُ لَمّا جاءَني فَجرُهُ   سُبحانَ مِن عَلقَمَةَ الفاجِرِ[1]

أي: أبرأ منه.

* * *

(١) هو: الأعشى.

سورة الحديد

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾:

قال قوم: التسبيح آثار الصنعة في السماوات وفي الأرض ومن فيهما، وكذلك فسروا قوله: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء: ٤٤]، وهذا خطأ، التسبيح تمجيد الله وتنزيهه من السوء ودليل ذلك قوله: ﴿وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فلو كان التسبيح آثار الصنعة لكانت معقولة، وكانوا يفقهونها، ودليل هذا القول أيضاً قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[الأنبياء: ٧٩]، فلو كان تسبيحها آثار الصنعة لم يكن في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يحيي الموتى يوم القيامة، ويميت الأحياء في الدنيا، ويكون ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: يحيي النطف التي إنما هي موات، ويميت الأحياء.

ويكون موضع ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رفعاً على معنى: «هو يحيي ويميت»، ويجوز أن يكون نصباً على معنى: له ملك السماوات والأرض محيياً ومميتاً قادراً.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾؛ تأويله: هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والظاهر العالم بما ظهر والباطن بما بطن، كما تقول: فلان يبطن أمر فلان، أي: يعلم دِخْلَةَ أمره.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ تأويله: يعلم ما يدخل في الأرض من مطر وغيره.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من رزق ومطر وملك.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: ما يصعد إليها من أعمال العباد، وما يعرج من الملائكة.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾؛ معناه: يدخل الليل في النهار بأن ينقص من الليل ويزيد في النهار.

وكذلك ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ينقص من النهار ويزيد في الليل، وهو مثل قوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[الزمر: ٥].

وقوله: ﴿آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ معناه: صدقوا بأن الله واحد وأن محمد رسوله.

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾؛ أي: أنفقوا مما ملككم، فأنفقوا في سبيل الله وما يقرب منه.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ تأويله: وأي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقرب من الله وأنتم ميتون تاركون أموالكم.

وقوله: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ لأن من تقدم في الإيمان بالله وبرسوله -عليه السلام- وصدق به فهو أفضل ممن أتى بعده بالإيمان والتصديق، لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، فكانت بصائرهم أيضاً أنفذ.

وقال: ﴿وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾؛ إلا أنه أعلم فضل السابق إلى الإيمان على المتأخر.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾؛ ويقرأ ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ بالنصب، فمن نصب فعلى جواب الاستفهام بالفاء، ومن رفع فعلى العطف على يقرض، ويكون على الاستئناف على معنى: فهو يضاعفه له.

ومعنى ﴿يُقْرِضُ﴾ ههنا يفعل فعلاً حسناً في اتباع أمر الله وطاعته، والعرب تقول لكل من فعل إليها خيراً: «قد أحسنت قرضي» قال الشاعر:

وَإِذَا جُوزِيتَ قَرْضاً فَأَجِزْهُ إِنَّمَا يَجْزِي الفَتَى غَيْرَ الْجَمَل

المعنى: إذا أسدى إليك معروفاً فكافئ عليه.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرَى المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾:

﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في ذلك اليوم.

ومعنى: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ أي: بمعنى نورهم بين أيديهم، وهو علامة أيديهم الصالحة.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، أي: بلغنا به إلى جنتك.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن

نُورِكُمْ﴾؛ وقرئت ﴿أَنظِرُونَا﴾ بقطع الألف ووصلها، فمن قال: «انظرونا» -بالكسر- فمعناه: أخرونا، وقد قيل: إن معنى ﴿انظُرُونَا﴾ انتظرونا أيضاً، وأنشد القائل بيت عمرو بن كلثوم [من الوافر]:

أَبا هِندٍ فَلا تَعجَل عَلَينا وَأَنظِرنا نُخَبِّرْكَ اليَقينا

وقوله: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾؛ تأويله: لا نور لكم عندنا.

وقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾؛ أي: ما يلي المؤمنين ففيه الرحمة، وما يلي الكافرين ظاهره يأتيهم من قبله العذاب.

قوله -عز وجل-: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾؛ معنى ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ استعملتموها في الفتنة، وتربصتم بالنبي ﷺ والمؤمنين الدوائر.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾؛ أي: ما كنتم تمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين.

﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ أي: أنزل الله نصره على نبيه والمؤمنين.

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾؛ أي: غركم الشيطان، وهو الغرور على وزن الفعول، وفعول من أسماء المبالغة، تقول: فلان أكول إذا كان كثير الأكل، وضروب إذا كان كثير الضرب، ولذلك قيل للشيطان: «الغرور» لأنه يغر ابن آدم كثيراً، فإذا غر مرة واحدة فهو غار، ويصلح غار للكثير، فأما غرور فلا يصلح للقليل، وقرئت الغرور، وهو كل ما غر من متاع الدنيا.

ومعنى ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ غلبتم الشك على اليقين.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ﴾؛ هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب، ومثل ذلك قول الشاعر[1] [من الكامل]:

فَغَدَت كِلا الفَرجَينِ تَحسَبُ أَنَّهُ مَولى المَخافَةِ خَلفُها وَأَمامُها

مثل ذلك، أي: مولى المخافة خلفها وأمامها.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ ويقرأ ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ بالتخفيف.

وقوله: ﴿يَأْنِ﴾ من أنى يأني، ويقال: آن يئين، وفي هذا المعنى ومعناه: «حان يحين».

---

(١) هو: لبيد بن ربيعة العامري.

وهذه الآية -والله أعلم- نزلت في طائفة من المؤمنين حثوا على الرقة والرحمة والخشوع، فأما من كان ممن وصفه -عز وجل- بالخضوع والرقة والرحمة فطائفة من المؤمنين فوق هؤلاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾؛ وقرئت بالتاء «تكونوا».

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: لا تكونوا كالذين لما طالت عليهم المدة قست قلوبهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ﴾؛ معناه: أن إحياء الأرض بعد موتها دليل على توحيد الله، ومن آياته الدالة على ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ المُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾؛ بتشديد الصاد، معناه: إن المصدقين والمتصدقات.

ويقرأ: ﴿إِنَّ المُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ بالتخفيف، ومعناه: إن المؤمنين والمؤمنات ممن صدق الله ورسوله فآمن بما أتى به النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾؛ أي: تصدقوا من مال طيب.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: يضاعف لهم ما عملوا، ويكون ذلك التضعيف أجراً كريماً.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾؛ على وزن «الفعيلين» واحدهم: «صديق»، وهو اسم للمبالغة في الفعل تقول: «رجل صديق»، وكذلك: «سكيت» كثير السكوت، فالمعنى: أن المؤمن المصدق بالله ورسله هو المبالغ في الصدق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ يصلح أن يكون كلاماً مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، فيكون المعنى: والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم.

والشهداء: هم الأنبياء، ويجوز أن يكون «الشهداء» نسقاً على ما قبله، فيكون المعنى: أولئك هم الصديقون وأولئك هم الشهداء عند ربهم، ويكون ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ للجماعة من الصديقين والشهداء.

وقوله -عز وجل-: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ

﴿أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾؛ الكاف في موضع رفع من وجهين:

أحدهما: أن تكون صفة فيكون المعنى: إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم مثل غيث، وهو المطر ويكون رفعها على خبر بعد خبر، على معنى: أن الحياة الدنيا وزينتها مثل غيث أعجب الكفار نباته.

والكفار هاهنا له تفسيران:

أحدهما: أنه الزرع، وإذا أعجب الزراع نباته مع علمهم به فهو في غاية ما يستحسن، ويكون الكفار ههنا الكفار بالله، وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً﴾؛ معنى ﴿يَهِيجُ﴾ يأخذ في الجفاف فيبتدئ به الصفرة.

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾؛ أي: متحطماً متكسراً ذاهباً، وضرب الله مثلاً لزوال الدنيا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾؛ ويقرأ ﴿وَرُضْوَانٌ﴾ وقد روينا جميعاً عن عاصم -بالضم والكسر- فمعناه: فمغفرة لأولياء الله وعذاب لأعدائه.

وقوله: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾؛ المعنى: سابقوا بالأعمال الصالحة. وقيل: إن الجنات سبع، وقيل: أربع لقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦]، وقوله بعد ذلك: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٦٢].

وقيل: عرضها ولم يذكر طولها -والله أعلم- وإنما ذكر عرضها ههنا تمثيل للعباد بما يفعلونه ويقع في نفوسهم، وأكبر ما يقع في نفوسهم مقدار السماوات والأرض.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهذا دليل أنه لا يدخل الجنة إلا بفضل الله.

ثم أعلمهم أن ذلك المؤدي إلى الجنة أو النار لا يكون إلا بقضاء وقدر فقال -عز وجل-: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا﴾؛ أي: من قبل أن نخلقها، فما وقع في الأرض من جدب أو نقص وكذلك ما وقع في النفوس من مرض وموت أو خسران في تجارة أو كسب خير أو شر فمكتوب عند الله معلوم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾؛ فمن قرأ ﴿أَتَاكُمْ﴾ فمعناه: جاءكم، ومن قرأ ﴿آتَاكُمْ﴾ فمعناه: أعطاكم.

ومعنى ﴿تَفْرَحُوا﴾ ههنا: لا تفرحوا فرحاً شديداً تأشروا فيه وتبطروا، ودليل ذلك: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فدل بهذا أن ذم الفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر له، فأما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم.

وكذلك ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾؛ أي: لا تحزنوا حزناً يطغاكم حتى يخرجكم إلى أن تلزموا أنفسكم الهلكة ولا تعتدوا بثواب الله ما تسلبونه وما فاتكم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾؛ ويقرأ ﴿بِالْبُخْلِ﴾ مثل: الرُّشد والرَّشد، وهذا على ضربين:

أحدهما في التفسير: أنهم الذين يبخلون بتعريف صفة النبي ﷺ التي قد عرفوها في التوراة والإنجيل.

والوجه الثاني: أنه لما حث على الصفة، أعلم أن الذين يبخلون بها ويأمرون بالبخل بها، فإن الله -عز وجل- غني عنهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ جاء في التفسير: أن آدم -عليه السلام- هبط إلى الأرض بالعلاة والمطرقة والكلبتين، والعلاة: هي التي يسميها الحدادون السندان.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: يمنع به، ويحارب به.

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ يستعملونه في أدواتهم وما ينتفعون به من آنيتهم، وجميع ما يتصرف فيه.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: ليعلم الله من يقاتل مع رسله في سبيله، وقد مر تفسيره ومعناه.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾؛ أي: أتبعنا نوحاً وإبراهيم رسلاً بعدهم.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾؛ جاء في التفسير: أن الإنجيل آتاه الله عيسى جملة واحدة.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾؛ ويجوز «رآفة» على وزن: «السماحة».

حكى أبو زيد أنه يقال: «رؤفت بالرجل رأفة»، وهي القراءة. وقد قرئت: «ورآفة».

وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾؛ هذه الآية صعبة في التفسير، ومعناها -والله أعلم- يحتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون المعنى: في قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ ابتدعوا رهبانية كما تقول: «رأيت زيداً وعمراً أكرمته»، وتكون: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ معناه: لم نكتبها عليهم ألبتة، ويكون ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ بدلاً من الهاء والألف، فيكون المعنى: ما كتبناه عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله اتباع ما أمر به، فهذا -والله أعلم- وجه.

وفيها وجه آخر في ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾؛ جاء في التفسير: أنهم كانوا يرون من ملوكهم ما لا يصبرون عليه فاتخذوا أسراباً وصوامع، فابتدعوا ذلك، فلما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع ودخلوا فيه لزمهم تمامه، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يفترض عليه أن يتمه.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ على ضربين -والله أعلم-:

أحدهما: أن يكونوا قصروا فيما ألزموه أنفسهم، والآخر وهو أجود: أن يكونوا حين بعث النبي ﷺ فلم يؤمنوا به كانوا تاركين لطاعة الله، فما رعوا تلك الرهبانية حق رعايتها.

ودليل ذلك قوله -عز وجل-: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾؛ أي: الذين آمنوا منهم بالنبي -عليه السلام-.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾: أي: كافرون.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾؛ يعني آمنوا برسوله، صدقوا برسوله.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ﴾؛ معناه: يؤتكم نصيبين من رحمته.

وإنما اشتقاقه في اللغة: من «الكفل»، وهو كساء يجعله الراكب تحته إذا ارتدف لئلا يسقط، فتأويله: يؤتكم نصيبين بحفظانكم من هلكة المعاصي.

﴿وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾؛ كما قال -عز وجل-: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[التحريم: ٨]؛ وهذه علامة المؤمنين في القيامة، ودليل ذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ﴾؛ ويجوز أن يكون -والله أعلم-: ﴿وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ وقوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى

شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ المعنى: فعل الله بكم كما فعل بمن آمن من أهل الكتاب لأن يعلموا و«لا» مؤكدة، و «أن لا يقدرون»، «لا» ههنا يدل على الإضمار في «أن» مع تخفيف «أن»؛ المعنى: أنهم لا يقدرون، أي: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله.

* * *

سورة المجادلة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾:

بإدغام الدال في السين حسن لقرب المخرجين.

يقرأ ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ﴾ بإدغام الدال في السين حتى لا يلفظ المتكلم بدال، وإنما حسن ذلك لأن السين والدال من حروف طرف اللسان فإدغام الدال في السين تقوية للحرف، وإظهار الدال جائز لأن موضع الدال -وإن قرب من موضع السين- فموضع الدال حَيِّز على حدة.

ومن موضع «الدال الطاء والتاء»، هذه الأحرف الثلاثة موضعها واحد، و«السين والزاي والصاد» من موضع واحد، وهي تسمى «حروف الصفير»، فلذلك جاز إظهار الدال.

وهذه الآية نزلت بسبب «خوله بنت ثعلبة» و«أوس بن الصامت» وكانا من الأنصار، قال لها: أنت علي كظهر أمي، وقيل: قال لها: أنت علي كأمي، وكانت هذه الكلمة مما يطلق بها أهل الجاهلية، فرأوا أنها صارت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في، فلما خلا سني ونثرت بطني، أي: كثر ولدي جعلني عليه كأمه.

فروي أن رسول الله ﷺ قال لها: «ما عندي في أمرك شيء»، فشكت إلى الله -عز وجل- وقالت: اللهم إني أشكو إليك.

وروي أيضاً أنها قالت للنبي -عليه السلام- فيما قالت: إن لي صبية صغار إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فأنزل الله -عز وجل- كفارة الظهار، وفي هذا دليل أنه لا يكون ما يطلق به في الجاهلية طلاقاً إلا أن يأتي الإسلام بذلك نحو ما قالوا في: «خلية وبرية وحبلك على غاربك» وأصل قولهم: «أنت طالق» لما أتى الإسلام بحكم فيه مضى على حكم الإسلام.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِن نِسَائِهِم مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾؛ المعنى: ما اللواتي يجعلن من الزوجات كالأمهات بأمهات.

﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ﴾؛ المعنى: ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، فذكر الله -عز وجل- الأمهات في موضع آخر فقال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾[النساء: ٢٣]،

فأعلم الله أن المرضعات أمهات.

والمعنى: ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، أي: الوالدات والمرضعات، فلا تكن الزوجات كهؤلاء.

فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك منكر وباطل فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ عفا عنهم وغفر لهم بجعله الكفارة عليهم.

و﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾، و﴿أُمَّهَاتِهِمْ﴾ في موضع نصب على خبر «ما»؛ المعنى: ليس هن بأمهاتهم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ...﴾؛ ﴿وَالَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، وخبرهم فعلهم «تحرير رقبة»، ولم يذكر «عليهم» لأن في الكلام دليل عليه، وإن شئت أضمرت فكفارتهم تحرير رقبة.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾؛ فاختلف أهل العلم فقال بعضهم: الكفارة للمسيس، وقال بعضهم: إذا أراد العودة إليها والإقامة مس أو لم يمس كفر.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ المعنى: ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به، وقال بعض الناس: لا تجب الكفارة حتى يقول ثانية: «أنت علي كظهر أمي»، وهذا قول من لا يدري اللغة، وهو خلاف قول أهل العلم أجمعين.

إنما المعنى: ثم يعودون العودة التي من أجل القول، فلتلك العودة تلزم الكفارة لا لكل عودة.

وفيها قول آخر للأخفش وهو: أن يجعل ﴿لِمَا قَالُوا﴾ من صلة ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، فالمعنى عنده: والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون فتحرير رقبة لما قالوا، فهذا مذهب حسن أيضاً، والدليل على بطلان هذا القائل أن ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أن يقول ثانية: أنت علي كظهر أمي.

قول جميع أهل العلم ومتابعته هو إياهم: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاؤُوا﴾[البقرة: ٢٢٦] فأجمعوا أنه ليس ﴿فَإِن فَاؤُوا﴾ فإن حلفوا ثانية.

ومعنى ﴿فَاؤُوا﴾ في اللغة: وعادوا معنى واحد.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾؛ كناية عن الجماع، ودليل ذلك قوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[البقرة: ٢٣٧]؛ فالمعنى: من قبل أن تدخلوا بهن.

وقوله: ﴿فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾؛ المعنى: فمن لم يجد الرقبة فكفارته صيام شهرين متتابعين، وإن شئت فعليه شهرين متتابعين، ولو قرئت «فصيامٌ شهرين» جاز كما قال الله -عز وجل- ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾[البلد: ١٤، ١٥]؛ ولا أعلم أحداً قرأ بالتنوين.

وقوله: ﴿فَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾؛ «من» في موضع رفع على معنى: فمن لم يستطع الصيام فكفارته إطعام ستين مسكيناً، وكذلك «فإطعامٌ» بالتنوين ولا أعلم أحداً قرأ بها.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع؛ المعنى: الفرض ذلك الذي وصفنا.

ومعنى ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: لتصدقوا ما أتى به رسول الله، ولتصدقوا أن الله أمرنا به.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: تلك التي وصفنا في الظهار والكفارة حدود الله.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: لمن لم يصدق بها، وأليم مؤلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ معنى ﴿كُبِتُوا﴾ أذلوا وأخزوا بالعذاب وإن غلبوا، كما نزل بمن قبلهم ممن حاد الله.

ومعنى ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾: يشاقون الله، أي هم في غير الحد الذي يكون فيه أولياء الله، وكذلك يشاقون يكونون في الشق الذي فيه أعداء الله.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾؛ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بمعنى قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم يبعثهم الله جميعاً، أي: يبعثهم مجتمعين في حال واحدة.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: يخبرهم بذلك ليعلموا وجوب الحجة عليهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: يعلم كل ما في السماوات وكل ما في الأرض مما ظهر للعباد ومما بطن.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾؛ أي: ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئاً ويتناجون به إلا وهو رابعهم عالم به، وهو في كل مكان، أي بالعلم.

ونجوى: مشتق من النجوة، وهو: ما ارتفع وتنحى تقول: «فلان من هذا المكان

بنجوة» إذا كانت ناحية منه، فمعنى «تناجون» يتخالون بما يريدون.

وذكر الله هذه الآية لأن المنافقين واليهود كانوا يتناجون، فيوهمون المسلمون أنهم يتناجون فيما يسوؤهم ويؤذيهم فيحزنون لذلك، فنهى الله -عز وجل- عن تلك النجوى فعاد المنافقون واليهود إلى ذلك.

فأعلم الله -عز وجل- النبي ﷺ أنهم قد عادوا في مثل تلك النجوى بعينها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾؛ أي: يوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول.

﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾؛ أي: هلا يعذبنا الله بما نقول، وكانوا إذا أتوا النبي ﷺ قالوا: «السام عليكم»، والسام: الموت، فقالوا: لم لا ينزل بنا العذاب إذا قلنا للنبي -عليه السلام- هذا القول، والله-عز وجل- وعدهم بعذاب الآخرة وبالخزي في الدنيا، وبإظهار الإسلام وأمر النبي ﷺ وغلبة حزبه، فقال: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾، وقال: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقال: ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فصدق وعده ونصر جنده وأظهر دينه وكبت عدوه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾؛ أي إذا تخاليتم للسر فلا تخالوا إلا بالبر والتقوى، ولا تكونوا كاليهود والنافقين.

وفي «تناجوا» ثلاثة أوجه: «فلا تتناجوا» بتاءين ظاهرتين، وبتاء واحدة مدغمة مشددة: «فلا تناجوا»، وإنما أدغمت التاءان لأنهما حرفان من مخرج واحد متحركان وقبلهما ألف، والألف قد تكون بعدها الدغم نحو: «دابة وراد»، ويجوز الإظهار لأن التاءين في أول الكلمة وأن «لا» كلمة على حالها، و«تناجوا» كلمة أخرى، فلم يكن هذا البناء لازماً، فلذلك كان الإظهار أجود.

ويجوز الإدغام، ويجوز حذف التاء لاجتماع التاءين، يحكى عن العرب «تبين هذه الخصلة»، و«تتبين هذه الخصلة»، وفي القرآن: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ١٥٢]، و﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ٨٠]، و«تَذَكَّرُونَ» واحدة، ولا أعلم أحداً قرأ «ولا تناجوا» بتاء

---

(١) الآيات الثلاث من هذه السورة الكريمة (٨، ٥، ٢٢).

واحدة ولكن تقرأ «فلا تَنْتَجُوا» أي: لا تفتعلوا من النجوى.

وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: النجوى بالإثم والعدوان من الشيطان ليحزن الذين آمنوا.

ويجوز ﴿لِيُحْزِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بضم الياء وكسر الزاي، العرب تقول: «حزِنني الأمر وأحزَنني».

﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً﴾؛ أي: ليس يضر التناجي المؤمنين شيئاً، ويجوز أن يكون وليس بضارهم الشيطان شيئاً.

وقوله: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: لا يضرهم شيء إلا ما أراد الله.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يكلون أمرهم إلى الله ويستعيذون به من الشيطان الرجيم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ﴾؛ ويقرأ: ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ وتقرأ: ﴿تَفَاسَحُوا﴾.

وجاء في التفسير: أن المجلس ههنا يعنى به مجلس النبي ﷺ.

وقيل: في «المجالس» مجالس الحرب، مثل قوله تعالى: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[آل عمران: ١٢١].

فأما ما أمروا به في مجلس النبي -عليه السلام- فقيل: إن الآية نزلت بسبب عبد الله ابن شماس وكان من أهل الصفة، وكان من يجلس في مجلس النبي ﷺ من ذوي الغنى والشرف كأنهم لا يسعون لمن هو دونهم، فأمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد النبي ﷺ ليتساوى الناس بالأخذ بالحظ منه.

﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾؛ أي: إذا قيل: انهضوا -قوموا - فانهضوا. وهذا كما قال: ﴿وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾، وقيل أيضاً: ﴿انشُزُوا فَانشُزُوا﴾؛ أي: إذا قوموا لصلاة أو قضاء حق أو شهادة فانشزوا، ويجوز «انشُروا فانشُروا»، جميعاً يقرأ بهما، ويرويان عن العرب: «نَشَر يَنْشُرُ ويَنْشُزُ».

وقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾؛ والدليل على فضل العلم ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة الجاهل أربعين سنة**».

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾؛ أي: إذا خاليتم الرسول بالسر فقدموا قبل ذلك صدقة وافعلوا ذلك.

وقيل سبب ذلك أن الأغنياء كانوا يستخلون النبي ﷺ فيسارونه بما يريدون، وكان الفقراء لا يتمكنون من النبي ﷺ تمكنهم، ففرض عليهم الصدقة قبل النجوى ليمتنعوا من ذلك.

فروي أن علياً -رحمه الله- أراد أن يناجي النبي ﷺ فتصدق بدينار باعه بعشر دراهم قبل مناجاته، ثم نسخ ذلك بالزكاة فقال -عز وجل-: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

أي: أطيعوه في كل أمر، ودخل في ذلك التفسح في المجلس لتقارب الناس في الدنو من النبي -عليه السلام-.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَا هُم مِنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ هؤلاء المنافقون تولوا اليهود.

ومعنى قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ يدل على تفسيره قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[التوبة: ٥٦].

قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾؛ يدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾[الأنعام: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾؛ معنى ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ في اللغة: استولى، يقال: «حذت الإبل وحزتها» إذا استوليت عليها وجمعتها، وهذا مما خرج على أصله ومثله في الكلام: «أجودت وأطيبت»، والأكثر: «أجدت وأطبت»، إلا «استحوذ» جاء على الأصل، لأنه لم يقل على «حاذ» لأنه إنما بني على «استفعل» في أول وهلة كما بني: «افتقر» على: «افتعل» وهو من «الفقر» ولم يقل منه: «فقر» ولا استعمل بغير زيادة، ولم يقل: «حاذ عليهم الشيطان» ولو جاء «استحاذ» كان صواباً، ولكن ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ ههنا أجود لأن الفعل ذا المعنى لم يستعمل إلا بزيادة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾؛ قال أبو عبيدة: ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾: جند الشيطان.

والأصل في اللغة: أن الحزب الجمع والجماعة، يقال منه: قد تحزب القوم إذا صاروا فرقاً، جماعة كذا وجماعة كذا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾؛ قد فسرنا ﴿يُحَادُّونَ﴾، ومعناه: يشاقون، أي: يصيرون في غير حد أولياء الله، وفي غير شقهم.

﴿أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾، أي: أولئك في المغلوبين.

وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾؛ أي: قضى الله قضاء ثابتاً، ومعنى غلبة الرسل على نوعين، من بعث بالحرب فغالب في الحرب، ومن بعث بغير الحرب فهو غالب بالحجة.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي: مانع حزبه من أن يذل لأنه قال -عز وعلا-: ﴿أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾، والعزيز: الذي لا يغلب ولا يقهر.

وقوله: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إلى آخر القصة.

جاء في التفسير: أن هذه الآية نزلت بسبب «حاطب بن أبي بلتعة»، وكان النبي ﷺ عزم على قصد أهل مكة فكتب حاطب يشرح لهم القصة وينذرهم ليحرّزوا، فنزل الوحي على رسول الله ﷺ، فذكر حاطب لما وُبخ بذلك أن له بمكة أهلاً وأنه ليس له أحد يكنفهم، وإنما فعل ذلك ليحاط أهله.

فأعلم الله -عز وجل- أن إيمان المؤمن يفسد بمودة الكفار بالمعاونة على المؤمنين، وأعلم الله -تعالى- أنه من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر لا يوالي من كفر، ولو كان أباه أو أمه أو أخاه أو أحداً من عشيرته.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾؛ يعني لا يوادون من حاد الله ورسوله، ويوالون المؤمنين.

وقوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾؛ أي: قواهم بنور الإيمان وبإحياء الإيمان، ودليل ذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى: ٥٢]؛ فكذلك: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾.

فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك يوصلهم إلى الجنة فقال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾؛ أي: الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ومن المؤمنين.

و﴿حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي: الداخلون في الجمع الذي اصطفاه الله وارتضاه.

وقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾؛ ﴿أَلاَ﴾ كلمة تنبيه، وتوكيد للقصة.

و﴿المُفْلِحُونَ﴾ المذكورون بالبقاء في النعيم الدائم.

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.

افتتح الله السورة بذكر تقديسه، وأن له أشياء تبرئه من السوء ومثل ذلك قوله: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ...﴾ الآية؛ هؤلاء بني النضير، كان لهم عز ومنعة من اليهود فظن الناس أنهم لعزهم ومنعتهم لا يخرجون من ديارهم، وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من الله، أي: من أمر الله.

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

كان بنو النضير لما دخل النبي -عليه السلام- المدينة عاقدوه ألا يكونوا عليه ولا معه، فلما كان يوم أحد وظهر المشركون على المسلمين نكثوا ودخلهم الريب، وكان كعب بن الأشرف رئيساً لهم فخرج في ستين رجلاً إلى مكة وعاقد المشركين على التظاهر على النبي -عليه السلام-، فأطلع الله نبيه -عليه السلام- على ذلك، فلما صار إلى المدينة وجه رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ليقتله، وكان محمد بن مسلمة رضيعاً لكعب، فاستأذن محمد بن مسلمة رسول الله ﷺ في أن ينال منه ليعتر كعب بن الأشرف، فجاءه محمد ومعه جماعة فاستنزله من منزله وأوهمه أنه قد حمل عليه في أخذ الصدقة منه فلما نزل أخذ محمد بن مسلمة ناصيته وكبر، فخرج أصحابه فقتلوه في مكانه، وغدا رسول الله ﷺ غازياً بني النضير فأناخ عليهم، وقيل: إنه غزاهم على حمار مخطوم بليف، فكان المؤمنون يخربون من منازل بني النضير ليكون لهم أمكنة للقتال، وكان بنو النضير يخربون منازلهم ليسدوا بها أبواب أزقتهم لئلا يُبقى على المؤمنين، فقذف الله في قلوبهم الرعب ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ﴾.

ومعنى إخرابها بأيدي المؤمنين أنهم عرضوها لذلك، ففارقوا رسول الله ﷺ على الجلاء من منازلهم وأن يحملوا ما استقلت به إبلهم ما خلا الفضة والذهب، فجلوا إلى الشام وطائفة منهم جلت إلى خيبر وطائفة إلى الحيرة، وذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ﴾.

وهو أول حشر حشر إلى الشام، ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى الشام ولذلك قيل:

﴿لأَوَّلِ الحَشْرِ﴾، فجميع اليهود والنصارى يجلون من جزيرة العرب.

وروي عن عمر أن النبي ﷺ قال: «لأخرجن اليهود من جزيرة العرب» قال الخليل: جزيرة العرب معدنها ومسكنها، وإنما قيل لها: «جزيرة العرب» لأن بحر الحبس وبحر فارس ودجلة والفرات قد أحاطت بها، فهي أرضها ومعدنها.

قال أبو عبيدة: «جزيرة العرب» من جفر أبي موسى إلى اليمن في الطول، ومن رمل بيرين إلى منقطع السماوة في العرض.

وقال الأصمعي: إلى أقصى عدن أبين إلى أطراف اليمن حتى تبلغ أطراف بوادي الشام.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِن لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾؛ أي: ما قطعتم من نخلة، والنخل كله ما عدا البرني والعجوة يسميه أهل المدينة: «الألوان»، وأصل «لينة»: «لونة» فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فقيل: «لينة».

فأنكر بنو النضير قطع النخل فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك بإذنه، القطع والترك جميعاً.

﴿وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ﴾ بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المسلمون كيف أحبوا.

وقوله -عز وجل-:﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ﴾؛ يعني ما أفاء الله على رسوله من بني النضير مما لم يوجفوا عليه خيلاً ولا ركاباً.

والركاب: الإبل والوجيف دون التقريب من السير، يقال: وجف الفرس وأوجفته؛ والمعنى: أنه لا شيء لكم فيه إنما هو لرسول الله ﷺ خالصاً يعمل فيه ما أحب، وكذلك كل ما فتح على الأئمة مما لم يوجف المسلمون عليه خيلاً ولا ركاباً.

وقوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ معنى ﴿فَلِلَّهِ﴾ أي: له أن يأمركم فيه بما أحب.

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى﴾ يعني ذوي قرابات النبي ﷺ لأنهم قد منعوا الصدقة فجعل لهم حق الفيء، ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾.

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ﴾: بين من المساكين الذين لهم الحق فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ﴾؛ يعني الأنصار.

﴿وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ يعني المهاجرين.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: يحب الأنصار المؤمنين.

﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾؛ أي: لا يجد الأنصار في صدورهم حاجة مما يعطى المهاجرون.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ قال أبو إسحاق: ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى نحو «خيبر» وما أشبهها، فالأمر عند أهل الحجاز في قسمة الفيء أنه يفرق في هذه الأصناف المسماة على قدر ما يراه الإمام على التحري للصلاح في ذلك إن رأى الإمام ذلك، وإن رأى أن صنفاً يحتاج فيه إلى جميع الفيء صرف فيه أو في هذه الأصناف على قدر ما يرى.

قوله: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾؛ يقرأ بضم الدال وفتحها، فالدولة: اسم الشيء الذي يتداول، والدولة: الفعل والانتقال من حال إلى حال.

وقرئت أيضاً ﴿دُولَةٌ﴾» بالرفع، فمن قرأ ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةٌ﴾ فعلى أن يكون على مذهب التمام، ويجوز أن يكون ﴿دُولَةٌ﴾ اسم يكون، وخبرها ﴿بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ﴾، والأكثر: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ على معنى: كيلا يكون الفيء دولة، أي: متداولاً.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله ولرسوله ولهؤلاء المسلمين وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة، ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله -عليه السلام-.

ودليل ذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ في حال قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ...﴾ الآية.

فمن يترحم على أصحاب رسول الله ولم يكن في قلبه غل لهم أجمعين فله حظ في فيء المسلمين، ومن شتمهم ولم يترحم عليهم أو كان في قلبه غل لهم فما جعل الله حقاً في سبي المسلمين.

فهذا نص في كتاب بين قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ هم إخوانهم يضُمُّهم الكفر.

وقد بَانَ ذلك في أمر بني النضير الذين عاقدهم المنافقون لأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم فلم يخرج معهم المنافقون، وقوتلوا فلم ينصروهم، فأظهر الله -عز وجل- كذبهم.

فإن قال قائل: ما وجه قوله ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾؟

قال أهل اللغة: في هذا قولين:

قالوا: معناه أنهم لو تعاطوا نصرهم، أي: ولئن نصرهم من بقي منهم ليولهم الأدبار.

وقوله: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾، وقرئت: «أو من وراء جدار» على الواحد، وقرئت بتسكين الدال.

فمن قرأ ﴿جُدُرٍ﴾ فهو جمع: جِدَار؛ وجُدُر مثل: «حِمَار وحُمُر»، ومن قرأ بتسكين الدال حذف الضمة لثقلها كما قالوا: «صُحْف وصُحُف»، ومن قرأ «جدار» فهو الواحد.

فأعلم الله -عز وجل- أنهم إذا اجتمعوا على قتالكم لما قذف الله في قلوبهم من الرعب لا يبرزون لحربكم إنما يقاتلون متحصنين بالقرى والجدران.

وقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾؛ أي: مختلفون لا تستوي قلوبهم ولا يتعاونون بنيات مجتمعة لأن الله -عز وجل- ناصر حزبه وخاذل أعدائه.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ﴾؛ أي: مثل المنافقين في غرورهم لبني النضير وقولهم لهم: لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لنصرناكم، ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾، وهو -والله أعلم- يدل عليه قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ﴾[الأنفال: ٤٨]، فكذلك المنافقون لما نزل ببني النضير ما نزل تبرأوا منهم.

وقد جاء في التفسير: أن عابداً كان يقال له «برصيصا» كان يداوى من الجنون فداوى امرأة فأغواه الشيطان حتى وقع بها ثم قتلها، ثم تبرأ منه الشيطان، وفي الحديث طول ولكن هذا معناه.

وقوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾؛ وقرأ عبد الله بن مسعود: «أنهما في النار خالدان فيها»، وهو في العربية جائز إلا أنه خلاف المصحف. فمن قال: ﴿خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ فنصب على الحال، ومن قرأ: «خالدان» فهو خبر «أن»، والقراءة ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ كونهما في النار، ويقرأ: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ والنصب أحسن، ويكون اسم «كان» ﴿أَنَّهُمَا﴾.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، أي: ليوم القيامة، وقرب على الناس فجعل كأنه يأتي غداً.

وأصل: «غدٍ»: «غَدْوٌ» إلا أنه لم يأت في القرآن إلا بحذف الواو، وقد تكلم به بحذف الواو، وجاء في الشعر بإثبات الواو وحذفها، قال الشاعر[1] في إثباتها [من الطويل]:

وَما الناسُ إلاّ كَالدِيارِ وَأَهلِها   بِها يَومَ حَلّوها وَغَدواً بَلاقِعُ

وقال آخر [من الرجز]:

لا تَقْلُوَاها وادلُوَاها دلْـواً   إنَّ مع اليوم أخاه غَدْوا

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.

نسوا الله وتركوا ذكره وما أمرهم به، فترك الله ذكرهم بالرحمة والتوفيق.

وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ أعلم الله -عز وجل- أن من شأن القرآن وعظمته وبيانه أنه لو جعل في الجبل تمييز، كما جعل فيكم وأنزل عليه القرآن لخشع وتصدع من خشية الله، ومعنى خشع تطأطأ وخضع، ومعنى تصدع تشقق.

وجائز أن يكون هذا على المثل لقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ كما قال -سبحانه -: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَداً﴾[مريم: ٨٩].

وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ هذا رد على أول السورة، على قوله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾.

قوله ﴿المَلِكُ القُدُّوسُ﴾؛ والقدوس: الطاهر، ومن هذا قيل: بيت المقدس، أي: بيت المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب.

وقوله: ﴿السَّلامُ﴾؛ اسم من أسماء الله -عز وجل-، وقيل: السلام الذي قد سلم الخلق من ظلمه.

﴿المُؤْمِنُ﴾؛ الذي وحد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ﴾

---

(١) هو: ذو الرمة.

[آل عمران: ١٨]، وقيل: المؤمن الذي آمن الخلق من ظلمه.

وقوله: ﴿الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الممتنع الذي لا يغلبه شيء.

﴿الْمُهَيْمِنُ﴾؛ جاء في التفسير: أنه الشهيد، وجاء في التفسير: أنه الأمين، وزعم بعض أهل اللغة أن الهاء بدل الهمزة وأن أصله «المؤيمن»، كما قالوا: إياك وهياك، والتفسير يشهد لهذا القول لأنه جاء: أنه الأمين، وجاء: أنه الشهيد، وتأويل الشهيد الأمين في شهادته.

وقوله: ﴿الْجَبَّارُ﴾؛ تأويله: الذي جبر الخلق على ما أراده من أمره.

وقوله: ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾؛ الذي تكبر عن ظلم عباده.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ تأويله: تنزيه الله عن شركهم.

قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾؛ وقد رويت رواية لا ينبغي أن تقرأ، رويت ﴿الْبَارِئَ الْمُصَوَّرَ﴾ بالنصب معناه: الذي برأ آدم وصوره.

وقوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ جاء في التفسير: إنها تسعة وتسعون اسماً، من أحصاها دخل الجنة.

وجاء في التفسير: أن اسم الله الأعظم الله، ونحن نبين هذه الأسماء واشتقاق ما ينبغي أن يبين منها -إن شاء الله-.

روى أبو هريرة الدوسي عن النبي -عليه السلام- قال: «إن لله مائة اسم غير واحد من أحصاها دخل الجنة، وهو: الله، الواحد، الرحمن، الرحيم، الأحد، الصمد، الفرد، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم، العلي، الكبير، الغني، الكريم، الولي، الحميد، العليم، اللطيف، السميع، البصير، الودود، الشكور، الظاهر، الباطن، الأول، الآخر، المبدي، البديع، الملك، القدوس، الذَّارِئ، الفاصل، الغفور، المجيد، الحليم، الحفيظ، الشهيد، الرب، القدير، التواب، الحافظ، الكفيل، القريب، المجيب، العظيم، الجليل، العفو، الصفوح، الحق، المبين، المعز، المذل، القوي، الشديد، الحنان، المنان، الفتاح، الرؤوف، القابض، الباسط، الباعث، الوارث، الديان، الفاضل، الرقيب، الحسيب، المتين، الوكيل، الزكي، الطاهر، المحسن، المجمل، المبارك، السُّبُوح، الحكيم، البر، الرزاق، الهادي، المولى، النصير، الأعلى، الأكبر، الوهاب، الجواد، الوفي، الواسع، الخلاق، الوتر».

جاء في التفسير: أن اسم الله الأعظم «الله».

قال سيبويه: سألت الخليل عن هذا الاسم فقال: الأصل فيه «إله» فأدخلت فيه الألف واللام بدلاً من الهمزة، وقال مرة أخرى: الأصل: «لاه» وأدخلت الألف واللام لازمة.

وأما «الرحمن الرحيم» فالرحمن: اسم الله خاصة لا يقال لغير الله: «رحمن»، ومعناه: المبالغ في الرحمة وأرحم الراحمين، و«فعلان» من بناء المبالغة، تقول للشديد الامتلاء: «ملآن» وللشديد الشبع: «شبعان».

«والرحيم»: اسم فاعل من رحم فهو رحيم وهو أيضاً للمبالغة. «والأحد»: أصله «الوحد» بمعنى الواحد، وهو الواحد الذي ليس كمثله شيء. «والصمد»: السيد الذي صمد له كل شيء، أي: قصد قصده، وتأويل: «صمود كل شيء لله» أن في كل شيء أثر صنعة الله. «السلام»: الذي سلم الخلق من ظلمه.

وقد فسرنا «المؤمن المهيمن»، وفسرنا «الجبار المتكبر».

«والبارئ»: الخالق، تقول: «برأ الله الخلق يبرؤهم» أي: خلقهم. «والقيوم»: المبالغ في القيام بكل ما خلق وما أراد. «والولي»: المتولي للمؤمنين. «اللطيف»: للخلق من حيث لا يعلمون ولا يقدرون. «والودود»: المحب الشديد المحبة. «الشكور»: الذي يرجع الخير عنده. «الظاهر الباطن»: الذي يعلم ما ظهر وما بطن. «المبدئ»: الذي ابتدأ كل شيء من غير شيء. «البديع»: الذي ابتدع الخلق على غير مثال. «القدوس»: قد رويت القدوس بفتح القاف.

جاء في التفسير: أنه المبارك، ومن ذلك «أرض مقدسة مباركة»، وقيل: الطاهر أيضاً.

«والذَّارِئ» -مهموز- الذي ذرأ الخلق أي: خلقهم. «والفاصل»: الذي فصل بين الحق والباطل. «والغفور»: الذي يغفر الذنوب.

وتأويل «الغفران» في اللغة: التغطية على كل شيء، ومن ذلك «المغفر» ما غطى به الرأس.

«المجيد»: الجميل الفِعَال، «والشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء. «والرب»: مالك كل شيء. «والصفوح»: المتجاوز عن الذنوب يصفح عنها. «الحنان»: ذو الرحمة والتعطف. «المنان»: الكثير المن على عباده بمظاهر النعم. «الفتاح»: الحاكم. «الديان»: المجازي. «الرقيب»: الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء. «المتين»: الشديد القوي على أمره. «الوكيل»: الذي يوكل بالقيام بجميع ما خلق. «والزكي»: الكثير الخير. «السبوح»: الذي بين عن كل سر. «الحليم»: الذي لا يعجل بالعقوبة، وكان الحلم على هذا تأخير العقوبة.

سورة الممتحنة

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾.

قيل المعنى: تلقون إليهم بالمودة،؛ والمعنى: -والله أعلم- يلقون إليهم أخبار النبي -عليه السلام-، وسره بالمودة التي بينكم وبينهم، ودليل هذا القول: تسرون إليهم ما يستره النبي -عليه السلام- بالمودة.

ويروى أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وكان كتب إلى أهل مكة ينصح لهم، فكتب إليهم أن رسول الله يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم فأطلع الله نبيه على ذلك، وكان كتب إليهم كتاباً ووجه به امرأة يقال: إنها كانت مولاة بني هاشم، فوجه رسول الله ﷺ بعلي والزبير خلفها فلحقاها فسألاها عن الكتاب فأنكرت، ففتشا ما معها فلم يجدا شيئاً، فقال علي -رضوان الله عليه-: إن رسول الله ﷺ لم يكذبنا فأقسم علي عليها لتخرجن الكتاب أو ليضربها بالسيف، فقالت لهما: وليا وجوهكما وأخرجت الكتاب من قرن من قرون شعرها، فجاء بالكتاب إلى النبي -عليه السلام- فعرضه على حاطب فاعترف به، وقال إن لي بمكة أهلاً ومالاً فأردت أن أتقرب منهم، ولن يرد الله بأسه عنهم، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ الآية إلى آخر القصة.

وأما قوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾؛ هذا شرط جوابه متقدم.

المعنى: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، وجهاداً وابتغاء منصوبان لأنهما مفعول لهما.

المعنى: إن كنتم خرجتم لجهاد وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.

ثم أعلمهم تعالى أنه ليس ينفعهم التقرب إليهم بنقل أخبار النبي -عليه السلام- فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾.

معنى ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ يلقوكم، ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾.

ثم أعلمهم أن أهلهم وأولادهم لا ينفعونهم شيئاً يوم القيامة، فقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ

﴿أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

قرئت ﴿يَفْصِلُ﴾ على أربعة أوجه: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ على معنى: يفصل الله بينكم، ﴿يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ على ما لم يسم فاعله، والمعنى راجع إلى الله -عز وجل-، ﴿يُفَصَّلُ بَيْنَكُمْ﴾ بتشديد الصاد وفتحها وضم الياء على ما لم يسم فاعله، وقرئت: «نفصل بينكم» بالنون، فهذه ستة أوجه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ ويجوز أسوة بضم الهمزة.

﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ فأعلم الله -عز وجل- أن أصحاب إبراهيم -صلوات الله عليه- تبرأوا من قومهم وعادوهم، فأمر أصحاب النبي -عليه السلام- أن يتأسوا بهم ويقولون.

وقوله: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ فإن ذلك عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له إقامته على الكفر تبرأ منه.

فأما ما يجوز في ﴿بُرَآءُ مِنكُمْ﴾ فأربعة أوجه، أجودها: «براء» على «فعلاء»، مثل: «ظريف وظرفاء»، و«شريك وشركاء»، وكذلك: «بري، وبُرَءَاء»، ويجوز: «بُرَاء منكم»، و «بِرَآء منكم» جميعاً بالمد، فمن قال «بِرَآء» بالمد فهو بمنزلة «ظريف وظراف».

وقال بعضهم: «رُخال» بضم الراء، وقالوا: «شاة ربّى وغنم رباب»، و«رُباب» بضم الراء وكسرها، وهي الحديثة النتاج، أي: الحديثة الولادة.

ويجوز «بَراء منكم» بفتح الباء، لأن العرب تقول: «أنا البراء منك» ويقول الاثنان والثلاثة: «نحن البراء منك» وكذلك تقول المرأة: «أنا البراء منك». فلا تقرأ من هذه الأوجه إلا بما قرأ به من توجد عنه القراءة.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ معناه: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك.

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ عسى واجبة من الله.

جاء في التفسير: أنه يعنى بهذا رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، فهذه هي المودة، وقيل: إنه يعنى به من سلم منهم فيكون بينكم وبينهم مودة.

وقوله: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إلى قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾؛

«أن» في موضع جر بدل من ﴿الَّذِينَ﴾؛ المعنى: لا ينهاكم أن تبروا الذين لم يقاتلوكم في الدين، وهذا يدل على أن المعنى: لا ينهاكم الله عن بر الذين بينكم وبينهم عهد ودليل ذلك قوله: ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد، يقال: «أقسط الرجل فهو مقسط» إذا عدل، و«قسط فهو قاسط» إذا جار، وقيل: إنه يعنى به النساء والصبيان.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾؛ ﴿وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: عاونوا على إخراجكم.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾؛ «أن» في موضع جر أيضاً على البدل.

المعنى: إنما ينهاكم الله عن أن تتولوا هؤلاء الذين قاتلوكم في الدين، لأن مكاتبتهم بإظهار ما أسره النبي ﷺ موالاة.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾؛ موضع ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ نصب على الحال، وقيل: المؤمنات وإن لم يعرفن بالإيمان، وقبل أن يصلوا إلى النبي -عليه السلام-، وإنما سمين بذلك لأن تقديرهن الإيمان.

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾؛ معناه: اختبروهن.

وهذه نزلت بسبب عهد الحديبية الذي كان بين النبي ﷺ وبين من عاهده بمكة من خزاعة وغيرهم، وكان -عليه السلام- على أنه من جاء منهم إليه رده إليهم، ومن صار من عنده إليهم لم يردوه إليه، فأعلم الله -عز وجل- أن من أتى من المؤمنات من يريد الدخول في الإسلام فلا يرجعن إلى الكفار، فذلك قوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾؛ فأعلم -عز وجل- أن إظهار الإيمان يدخل في جملة الإسلام، والله عالم بما في القلوب، وكانت المحنة إذا جاءت المرأة المهاجرة أن تحلف بالله أنه ما جاء بها غيرة على زوجها، ولا جاءت محبة لله ورسوله وللرغبة في الإسلام فهذه المحنة.

وقوله: ﴿فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾؛ أي: لا تردوهن، يقال: رجع فلان ورجعته.

وقوله: ﴿لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾؛ أي: إن المؤمنات لا يحللن للكفار ولا الكفار يحلون للمؤمنات، وآتوهم ما أنفقوا، فكان الزوج يعطي مهراً امرأته التي آمنت، وكان يؤخذ منهم مهر من مضى إليهم من نساء المؤمنين ممن تلحق بزوجها إذا رغبت في الكفر فأقامت عليه.

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ولا إثم عليكم.

﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾أي: أن تزوجوهن.

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ وهذا على أن التزويج لا بد فيه من مهر.

﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ﴾؛ أي: إذا كفرن فقد زالت العصمة بين المشركة والمؤمن، أي: قد أنبت عقد حبل النكاح.

وأصل «العصمة»: الحبل، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه، وقرئت: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا﴾، و﴿وَلاَ تَمَسِكُوا﴾، والأصل «تتمسكوا» من قولك: «تمسكت بالشيء» إذا أنت لم تخله من يدك أو إرادتك، فحذفت إحدى التاءين، وقرئت: «تُمَسِّكوا» بضم التاء والتشديد من قولك: «مَسَّك يُمَسِّك»، وقرئت: «تُمْسِكوا» بضم التاء وتخفيف السين على معنى: أمسك يمسك.

وقوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ على فاعلتم، وقرئت: «فعقبتم» بغير ألف وتخفيف القاف.

وجاء في التفسير فغنمتم، وتأويله في اللغة: كانت العقبى لكم، أي: كانت العقبى والغلبة لكم حتى غنمتم.

وعقبتم أجودها في اللغة: و «فَعَقَبْتُم» بالتخفيف جيد في اللغة أيضاً، أي: صارت لكم عقبى الغلبة، إلا أنه بالتشديد أبلغ.

ومعنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم أي: إن مضت امرأة منكم إلى من لا عهد بينكم وبينه.

﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾؛ أي: مثل ما أنفقوا في مهورهن، وكذلك إن مضت إلى من بينكم وبينهم عهد، فنكث في إعطاء المهر فالذي ذهبت زوجته كان يعطى من الغنيمة المهر، فلا ينقص شيء من حقه كاملاً بعد إخراج مهور النساء، فمن ثم دفع عمر بن الخطاب -رحمه الله- فيما رووا مهر أم أيمن.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً﴾ إلى قوله: ﴿وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ أي: لا يأتين بولد ينسبنه إلى الزوج، فإن ذلك بهتان وفرية.

﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ قيل: لا يعصينك في أمر في النوح، وقيل: في تمزيق

الثياب وخمش الوجوه ومحادثة الرجال، والجملة أن المعنى: لا يعصينك في جميع ما تأمرهن بالمعروف.

وروي أن النبي -عليه السلام- جلس على الصفا، وجلس عمر -رحمه الله- دونه، فكن يبايعن النبي ﷺ على ما تضمنته الآية، ويمسحن أيديهن بيد عمر، وقيل: كن يمسحن بأيديهن من وراء ثوب.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ﴾؛ يعنى به اليهود.

﴿كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ﴾؛ أي: كما يئس الكفار الذين لا يوقنون بالبعث من موتاهم أن يبعثوا، فقد يئس اليهود والذين عاقدوا النبي ﷺ من أن يكون لهم في الآخرة حظ، وقيل: قد يئسوا من الآخرة ﴿كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ﴾؛ أي: من الذين في القبور، يعلمون لا حظ لهم في الآخرة.

* * *

سورة الصف

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.

قد فسرنا ما في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾.

الأصل: «لما» واللام في الاستفهام، فإذا وقفت عليها قلت: «لمه» ولا يوقف عليها في القرآن بها لئلا يخالف المصحف، وينبغي للقارئ أن يصلها.

وهذا قيل لهم إنهم قالوا: لو علمنا ما أحب الأعمال إلى الله -عز وجل- لأصبناه، ولو كان فيه ذهاب أنفسنا وأموالنا فأنزل الله-عز وجل- ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

فلما كان يوم أحد تولى من تولى عن النبي ﷺ حتى كسرت رباعيته وشج في وجهه أنزل الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾.

﴿أَن تَقُولُوا﴾ في موضع رفع، و﴿مَقْتاً﴾ نصب على التمييز؛ المعنى: كبر قولكم ما لا تفعلون مقتاً عند الله.

ثم أعلم الله -عز وجل- ما الذي يحبه فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾؛ أي: بنيان لاصق بعضه ببعض لا يغادر بعضه بعضاً.

فأعلم الله -عز وجل- أنه يثبت في الجهاد في سبيله ويلزم مكانه كبيوت البناء المرصوص.

ويجوز -والله أعلم- أن يكون عليهم أن تستوي نياتهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾؛ قد بينا في سورة الأحزاب ما كان آذوه به.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: عدلوا عن الحق وانصرفوا عنه فأضلهم الله

وصرف قلوبهم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ معناه: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ موضع: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ و﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ جميعاً نصب، المعنى: اذكر إذ قال موسى، واذكر إذ قال عيسى، وما كان عاقبة من آمن بهما وعاقبة من كفر وآذى الأنبياء.

وقوله: ﴿لِلْحَوَارِيِّينَ﴾؛ قيل: إن الحواريين سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا قصارين، والحواريون: خلصان الأنبياء وصفوتهم، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «الزبير ابن عمتي وحواريي من أمتي»، وأصحاب رسول الله ﷺ حواريون.

وتأويل «الحواريون» في اللغة: الذين أخلصوا ونقوا من كل عيب، وكذلك «الدقيق الحواري» من هذا، إنما سمي لأنه ينقى من لباب البر وخالصه.

وتأويله في الناس: أنه الذي رجع في اختباره مرة بعد مرة وجد نقياً من العيوب، فأصل «التحوير» في اللغة: من حار يحور، وهو الرجوع والترجيع. فهذا تأويله -والله أعلم-.

وقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: من أنصاري إلى الله، وقال الشاعر:

ولَوْحا ذِرَاعَتينِ في بِرْكَةٍ إِلى جُؤْجُؤٍ رَهْلِ الْمَنْكِبِ[1]

المعنى: الكاهل مع جؤجؤ رهل المنكب.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾؛ لأن الآيتين في جواب: «كونوا أنصار الله»، وهو الاختيار لقولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾، ويجوز أن يكون ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ جواباً لذلك.

وقرئت ﴿وَاللَّهُ مُتِمٌّ نُورِهِ﴾، و﴿وَاللَّهُ مُتِمٌّ نُورَهُ﴾ وكلاهما جيد.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾؛ معنى «أيدنا»: قوينا، واشتقاقه من: «الأيد»، والأيد: القوة.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾؛ هذا جواب ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ لأن معناه: معنى الأمر؛

---

(١) انظر اللسان «زفر».

المعنى: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم يغفر لكم ذنوبكم، أي: إن فعلتم ذلك يغفر لكم.

والدليل على ذلك: قراءة عبد الله بن مسعود: «آمنوا بالله ورسوله»، وقد غلط بعض النحويين فقال: هذا جواب «هل» وهذا غلط بيّن، ليس إذا دلهم النبي على ما ينفعهم غفر الله لهم إذا آمنوا وجاهدوا، فإنما هو جواب: تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون يغفر لكم.

فأما جواب الاستفهام المجزوم فكقولك: «هل جئتني بشيء أعطك مثله»؛ المعنى: لو جئتني أعطيتك، وإن جئتني أعطيتك، وكذلك: «أين بيتك أزرك».

وقوله: ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: في جنات إقامة وخلود، يقال عدن بالمكان إذا أقام به.

وقوله: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾؛ المعنى: ولكم تجارة أخرى تحبونها وهي نصر من الله وفتح قريب.

وإن شئت كان رفعاً على البدل من «أخرى»؛ المعنى: يدخلكم جنات ولكم نصر من الله وفتح قريب.

وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾؛ ﴿مُصَدِّقاً﴾ منصوب على الحال.

أي: إني رسول الله إليكم في حال تصديق لما تقدمني من التوراة وفي حال تبشير ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾؛ قرئت بفتح الياء ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ وبإسكان الياء وحذفها من اللفظ للالتقاء الساكنين، وأما في الكتاب فهي ثابتة ﴿مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾.

والاختيار عند سيبويه والخليل تحريك هذه الياء بالفتح، فأما من قرأ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بإدغام الراء في اللام، فغير جائز في القراءة عند الخليل وسيبويه، لأنه لا تدغم الراء في اللام في قولهما.

ورويت عن إمام عظيم الشأن في القراءة، وهو أبو عمرو بن العلاء، ولا أحسبه قرأ بها إلا وقد سمعها عند العرب.

زعم سيبويه والخليل وجميع البصريين -ما خلا أبو عمرو- أن اللام تدغم في الراء، وأن الراء لا تدغم في اللام، وحجة الذين قالوا إن الراء لا تدغم في اللام: أن الراء حرف مكرر قوي فإذا أدغمت الراء في اللام ذهب التكرير منها، ودليلهم على أن لها فضلة على غيرها في التمكن أنك لا تميل ما كان على مثال «فاعل» إذا كان أوله حرف من حروف

الإطباق أو المستعلية، وهي سبعة أحرف منها أربعة مطبقة وهي: «الصاد والضاد والطاء والظاء»، وثلاثة مستعلية وهي: «الخاء والعين والقاف».

لا تقول: «هذا صالح»، بإمالة الصاد، إلى الكسر، فإن كان في موضع اللام راء جاز الكسر، تقول: «هذا صارم»، ولا تقول: «مررت بضابط» -بإمالة الضاد- ولكن تقول: «مررت بضارب»، فتسهل الراء المكسورة كسرة الصاد والضاد المطبقين.

وهذا الباب انفرد به البصريون في النحو وليس للكوفيين ولا المدنيين فيه شيء، وهو باب الإمالة.

* * *

سورة الجمعة

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿المَلِكِ القُدُّوسِ﴾.

بضم القاف في القراءة، وقد رويت ﴿القَدُّوسِ﴾ بفتح القاف، وهي قليلة، ومعنى ﴿القُدُّوسِ﴾: المبارك، وقيل: الطاهر أيضاً.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾؛ ﴿الأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا يكتبون، الذين هم على ما خلقت عليه الأمة قبل تعلم الكتاب، والكتابة لا تكون إلا بتعلم، وقولهم في الذي لا يعرف الكلام ولا القراءة: «هو يقرأ بالسليقية»، أي: لم يتعلم القرآن معرباً إنما يقرأ على ما سمع الكلام على سليقته.

والسليقة والطبيعة والنحيبة والسجية والسرجوجة، معناه: الطبيعة.

وقيل: أول ما بدأ الكتابة في العرب بدأ من أهل الطائف، وذكر أهل الطائف أنهم تعلموا الكتابة من أهل الحيرة، وذكر أهل الحيرة أنهم تعلموا الكتابة من أهل الأنبار.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾؛ «آخرين» في موضع جر؛ المعنى: هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، وبعث في الذين لم يلحقوا بهم، أي: في آخرين منهم لما لحقوا بهم فالنبي -عليه السلام- مبعوث إلى من شاهده وإلى كل من كان بعدهم من العرب والعجم.

ويجوز أن يكون ﴿وَآخَرِينَ﴾ في موضع نصب على معنى يعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلم آخرين منهم لما يلحقوا بهم.

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾؛ الأسفار: الكتب الكبار، واحدها سفر.

فأعلم الله -عز وجل- أن اليهود مثلهم في تركهم استعمال التوراة، والإيمان بالنبي -عليه السلام- الذي يجدونه مكتوباً عندهم فيها كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

ثم قال: ﴿بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

ومعنى ﴿بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ﴾ المثل الذي ضربناه لهم، وقرأ أبو عمرو ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ﴾ بكسر الميم، وهذه الإمالة أعني كسر الراء كثير في كلام العرب.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ معناه: أنه لا يهدي من سبق في علمه أنه يكون ظالماً.

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾؛ وذلك لأنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة: ١٨] فقيل لهم: إن كنتم تزعمون ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾، أي: فإن الله سيميتكم.

وأعلم الله -عز وجل- أنهم لا يتمنونه، لأنهم قد علموا أن النبي -عليه السلام- حق، وأنهم إن تمنوه ماتوا، فلم يتمنوه.

فهذه من أدل آيات النبي ﷺ.

ثم أعلم -عز وجل- أنهم إن لم يتمنوا الموت ولم يموتوا في وقتهم أنهم يموتون لا محالة فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾.

ودخلت الفاء في خبر «إن»، ولا يجوز: «إن زيداً فمنطق»، لأن ﴿الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ فيه معنى الشرط والجزاء، ويجوز أن يكون تمام الكلام: (﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾كأنه قيل: إن فررتم من أي موت كان من قتل أو غيره فإنه ملاقيكم، ويكون ﴿فَإِنَّهُ﴾ استئناف، بعد الخبر الأول.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾؛ وقرئت ﴿الْجُمْعَةِ﴾ بإسكان الميم، ويجوز في اللغة: «الجمَعة» بفتح الميم، ولا ينبغي أن يقرأ بها إلا أن تثبت بها رواية عن إمام من القراء، فمن قرأ ﴿الْجُمْعَةِ﴾ فهو تخفيف «الجُمُعة»، لثقل الضمتين، ومن قال في غير القراءة «الجُمَعَة» فمعناه: التي تجمع الناس كما تقول: «رجل لُعَنَة» أي: يكثر لعن الناس، «ورجل ضُحَكَة» يكثر الضحك.

وقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ معناه: فاقصدوا إلى ذكر الله، وليس معناه: العدو، وقرأ ابن مسعود: «فامضوا إلى ذكر الله»، وقال: لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي، وكذلك قرأ أبي بن كعب: «فامضوا»، وقد رويت عن عمر بن الخطاب.

ولكن اتباع المصحف أولى، ولو كانت عند عمر «فامضوا» لا غير لغيرها في المصحف.

والدليل على أن معنى «السعي»: التصرف في كل عمل قول الله -عز وجل-: ﴿وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[النجم: ٣٩، ٤٠]، فلا اختلاف في أن معناه: وأن ليس للإنسان إلا ما عمل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فالبيع من وقت الزوال في يوم الجمعة إلى انقضاء الصلاة كالمحرم.

وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ هذا معناه: الإباحة، ليس معناه: إذا انقضت الصلاة وجب أن يتجر الإنسان كما قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة: ٢] فليس على من حل من إحرام أن يصطاد إنما هو مباح له، مثل ذلك قوله في الكلام: «إذا حضرتني فلا تنطق وإذا غبت عني فتكلم بما شئت»، إنما معناه: الإباحة.

وقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا المَوْتَ﴾ بضم الواو لسكونها وسكون اللام، واختير الضم مع الواو، لأن الواو ههنا أصل حركتها الرفع، لأنها تنوب عن أسماء مرفوعة، وقد قرئت: ﴿فَتَمَنَّوِا المَوْتَ﴾ بكسر الواو لالتقاء الساكنين، إذا التقيا من كلمتين كسر الأول منهما كما تقول: «قل الحق» فتكسر اللام لسكون لام «الحق».

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾؛ ولم يقل: «إليهما»، ويجوز من الكلام: وإذا رأوت تجارة أو لهواً انفضوا إليه، وانفضوا إليها، وانفضوا إليهما» فحذف خبر أحدهما لأن الخبر الثاني يدل على الخبر المحذوف.

والمعنى: إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه.

وروي أن النبي ﷺ كان في خطبته فجاءت إبل لدحية بن خليفة الكلبي وعليها زيت فانفضوا ينظرون إليها وتركوا النبي ﷺ يخطب، وبقي النبي -عليه السلام- مع اثني عشر رجلاً فقال رسول الله ﷺ: «لو لحق آخرهم أولهم لالتهب الوادي ناراً».

فأعلم الله -عز وجل- أن ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، وأعلم النبي -عليه السلام- غليظ ما في التولي عن الإمام إذا كان يخطب يوم الجمعة.

واللهو ههنا؛ قيل: الطبل، وهو -والله أعلم- كل ما يلهى به.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: ليسْ يفوتهم من أرزاقهم لتخلفهم عن النظر إلى الميرة شيء من رزق ولا بتركهم البيع في وقت الصلاة والخطبة.

* * *

سورة المنافقين

مدنية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-:﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

أكذبهم فيما تعتقده قلوبهم، وفي أنهم يحلفون بالله إنهم لمنكم ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر.

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أي: سترة بها يستترون بها منه، ودليل ذلك أنهم حلفوا على ما وصفنا.

وقد قرئت: ﴿اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ﴾ بكسره الهمزة، أي: إظهارهم الإيمان جنة فصدوا عن سبيل الله.

وقوله: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ وقرئت: «فَطَبَعَ على قلوبهم»، ورويت: «فطبع الله على قلوبهم»، والقراءة المعروفة المجمع عليها ههنا ﴿فَطُبِعَ﴾، على ما لم يسم فاعله.

ويجوز في العربية فطبع على قلوبهم على إدغام العين في العين، لأنهما من مخرج واحد ولاجتماع الحركات لأنه يجتمع ست حركات، ومن ترك الإدغام فلأن الحرفين من كلمتين، وأن العين من الحلق وحروف الإدغام في حروف الفم أكثر منها في حروف الحلق نحو مد وشد وقرورد، وأكثر من باب: «دعه يدعه».

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾؛ كأنه وصفهم بتمام الصور وحسن الإبانة.

ثم أعلم أنهم في تركهم التفهم والاستبصار بمنزلة الخشب فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾.

ويقرأ: ﴿خُشْبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ بإسكان الشين، فمن قرأ بإسكان الشين فهو بمنزلة: بُدْنَة وبُدْن، ومن قال: ﴿خُشُبٌ﴾ بضم الشين، فهو بمنزلة: «ثَمَرة وثُمُر»، ويجوز: «خَشَب مسندة»، فلا تقرأ بها إلا أن تثبت بها رواية، و «خَشَب» مثل: «شَجَرة وشَجَر».

وقوله ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ وصفهم الله -تعالى- بالجبن، ويكون أمر كل من خاطب النبي -عليه السلام- فإنما يخاطبه في أمرهم بكشف نفاقهم.

وقوله: ﴿هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾؛ أي: هم العدو الدنيء، فاحذرهم لأنهم كانوا أعداء النبي ﷺ، ويظهرون أنهم معه.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؛ ومعنى ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾: من أين يصرفون عن الحق إلى الباطل.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾؛ قرأ أبو عمرو ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بإدغام الراء في اللام، وهي عند سيبويه لا تجوز، وقد بينا ذلك في سورة الصف.

وقوله: ﴿لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾؛ على فعلوا، وقرئت ﴿لَوَوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ بالتخفيف.

وهذه قيل: إنها نزلت في عبد الله بن أبي.

وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾؛ هذه أيضاً نزلت في عبد الله بن أبي.

وذلك أنه قال لقوم ينفقون على بعض من مع رسول الله: «لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا عنه».

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: إن الله يرزقهم وهو رازقهم في حال إنفاق هؤلاء عليهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾؛ يعنون أيضاً عبد الله بن أبي.

فأعلم أنه مظهر دينه على الدين كله ومعز رسوله ومن معه من المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

حضهم الله على إدامة الذكر له وأن لا يضنوا بأموالهم فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَا رَزَقْنَاكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ﴾؛ أي: من قبل أن يعاين ما يعلم أنه ميت.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقرئت «فاصدق وأكون من الصالحين».

فجاء في التفسير: أنه ما قصر أحد في الزكاة أو في الحج إلا سأل الكرة، فمن قال: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ «فأصدق» جواب لولا أخرتني، وجزم ﴿وَأَكُن﴾ على موضع فأصدق، لأنه على معنى: إن أخرتني أصدق وأكن من الصالحين، ومن قرأ: «وأكون» فهو على لفظ فأصدق وأكون.

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكية ما خلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي من آخرها قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ...﴾ إلى آخرها، وقيل: إن الصحيح أنها مدنية كلها.

* * *

قوله -عز وجل-: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

خلقكم في بطون أمهاتكم كفاراً ومؤمنين.

وجاء في التفسير: أن يحيى -عليه السلام- خلق في بطن أمه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً.

ودليل ما في التفسير قوله -عز وجل-: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: ٣٩].

فأعلم الله -تعالى- أنه مخلوق كذلك، وجائز أن يكون ﴿خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: مؤمن بأن الله خلقه وكافر بأن الله خلقه، ودليل ذلك قوله -سبحانه-: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[عبس: ١٧-١٩]، وقال: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[الكهف: ٣٧].

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ ويقرأ «صِوركم» بكسر الصاد، وصور يجمع «صوراً» مثل: «غرفة وغرف»، و«رشوة ورشى»، ويجمع أيضاً مثل: «رشوة ورشى» وفعل وفعل أختان، قالوا: «حلى وحلي، ولحى ولحي» جمع لحية.

ومعنى ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ خلقكم أحسن الحيوان كله، والدليل على ذلك أن الإنسان لا يسر بأن يكون صورته على غير صورة الآدميين فالإنسان أحسن الحيوان.

وقيل أيضاً ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ من أراد الله أن يكون أبيض كان أبيض، ومن أراد أن يكون أسود كان أسود، ومن أراد أن يكون دميماً كان دميماً، أو تاماً كان تاماً، فأحسن ذلك -عز وجل- وأتى من كل صورة بكل صنف على إرادته.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وذاقوا في الدنيا عظيم السطوات ولهم في الآخرة عذاب أليم.

ثم أعلم الله -عز وجل- بم نزل بهم ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾.

فأعلم الله -عز وجل- أنه نزل بهم العذاب في الدنيا، وأنه ينزل بهم في الآخرة بكفرهم.

وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾؛ أي: وبالقرآن الذي هو نور وكتاب مبين.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾؛ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ بما عملتم يوم الجمع.

ويوم التغابن يوم يغبن أهل الجنة أهل النار، ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة من كان في دون منزلته، وضرب ذلك مثلاً للشراء والبيع كما قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الصف: ١٠، ١١]، وقال في موضع آخر: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٦] وذلك في الذين اشتروا الضلالة بالهدى.

وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ معناه: إلا بأمر الله، وقيل: إلا بعلم الله.

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ويسلم في وقت المصيبة لأمر الله يهد قلبه يجعله مهتدياً، وقرئت: «يَهْدَ قلبه».

تأويل «هدأ قلبه»: إذا سكن، ويكون على طرح الهمزة، ويكون في الرفع: «يهدا قلبه» غير مهموز، وفي الجزم: «من يؤمن بالله يهد قلبه»، بطرح الألف للجزم، ويكون التأويل: إذا سلم لأمر الله سكن قلبه.

وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ هذه رخصة لقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[آل عمران: ١٠٢].

وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْراً لأَنفُسِكُمْ﴾ أي: قدموا خيراً لأنفسكم من أموالكم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾؛ ويجوز: «ومن يوقَّ شح نفسه»، ولا أعلم أحداً قرأ بها فلا تقرأن بها إلا أن تثبت رواية في قراءتها.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، معناه: الظافرون بالفوز والخير.

قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾؛ جاء في التفسير:

أن النبي ﷺ لما أمر بالهجرة من مكة إلى المدينة أراد قوم الهجرة فقال لهم أزواجهم وأولادهم: قد صبرنا لكم على مفارقة الدين ولا نصبر لكم على مفارقتكم ومفارقة الأموال والمساكن، فأعلم الله -تعالى- أن من كان بهذه الصورة فهو عدو، وإن كان ولد أو كانت زوجة.

ثم أمر -عز وجل- بالعفو والصفح فقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم أعلم أن الأموال والأولاد مما يفتتن به فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ أي: ما أمكنكم الجهاد والهجرة مع النبي ﷺ فلا يفتنكم الميل إلى الأموال والأولاد عن ذلك.

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ فاقترض -عز وجل- مما رزق وأعطى تفضلاً وامتحاناً.

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾؛ يشكر لكم ما عملتم ويحلم عنكم عند استحقاقكم العقوبة على ذنوبكم.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ يعلم ما تكنه الصدور مما لا تعلمه الحفظة، ويعلم ما تسقط من ورقة وما قطر من قطر المطر.

* * *

سورة الطلاق

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

هذا خطاب للنبي -عليه السلام- والمؤمنون داخلون معه في الخطاب، ومعناه: إن أردتم الطلاق كما قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾[المائدة: ٦] معناه: القيام إلى الصلاة.

وقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا العِدَّةَ﴾؛ فطلاق السنة المجتمع عليه في قول مالك: أن يطلق الرجل امرأته طاهراً من غير جماع تطليقة واحدة، ثم يتركها إذا أراد المقام على فراقها ثلاث حيض فإذا طعنت في الحيضة الثالثة فلا يملك رجعتها، ولكن إن شاء وشاءت أن يجدد نكاحاً جديداً كان ذلك لهما لأن معنى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾، أي: بعد الطلاق الواحد.

فإذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد فلا معنى في قوله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾، وإنما تفسيره الرجعة، أعني إذا وقع الثلاث في وقت واحد، وهذا قول مالك -رحمه الله-.

وقال أهل العراق: إن طلقها طاهراً من غير جماع ثم أوقع عند كل حيضة تطليقة.

وقال الشافعي: إذا طلقها طاهراً من غير جماع فهو مطلق للسنة أيضاً طلقة واحدة أو ثلاثاً، وهذا يسقط معه إذا كان ثلاثاً.

قوله ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾؛ وقد جاء التشديد فيمن تعدى طلاق السنة فقال: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

يعنى بـ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾ حدود طلاق السنة وما ذكر مع الطلاق.

وقوله: ﴿وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾؛ ويقرأ «مُبَيَّنَة» فجعل للمطلقات السكنى.

وقيل: إن خروجهن من بيوتهن فاحشة، وقيل: الفاحشة المبينة الزنا، ودليل هذا القول قوله: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ﴾[النساء: ١٥]، يعني الزنا.

وقيل أيضاً: ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ زنا أو سرقة أو شرب خمر، وقيل: كل ما يجب فيه الحد فهو فاحشة.

قوله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾؛ معناه: يجعل له مخرجاً من الحرام إلى الحلال.

وقيل أيضاً: من النار إلى الجنة.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ معناه: -والله أعلم- أنه إذا اتقى الله وآثر الحلال والصبر على أهله إن كان ذا ضيقة فتح الله عليه ورزقه من حيث لا يحتسب.

وجائز أن يكون إذا اتقى الله في طلاقه، وآثر ما عند الله وجرى في ذلك على السنة رزقه الله أهلاً بدل أهله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، وتقرأ ﴿بَالِغٌ أَمْرِهِ﴾، أي: إن الله بالغ ما يريد. وقرئت: «إن الله بَالِغٌ أَمْرُهُ»، على رفع الأمر ببالغ، أي: إن الله يبلغ أمره وينفذه.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ وقدراً أي ميقاتاً وأجلاً.

وقوله: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾:

قيل في بعض التفسير: إنهم سألوا فقالوا: قد عرفنا عدة التي تحيض فما عدة التي لا تحيض والتي لم تحض؟

فقيل: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: إذا ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر. والذي يذهب إليه مالك، واللغة تدل عليه أن معناه: إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلها فعدتها ثلاثة أشهر، وذلك بعد أن تترك تسعة أشهر بمقدار الحمل، ثم تعتد بعد ذلك ثلاثة أشهر، فإن حاضت في هذه الثلاثة الأشهر تمت ثلاث حيض.

وجائز أن يتأخر هذا الحيض فيكون كلما قاربت أن تخرج من الثلاثة حاضت، فهذا مذهب مالك وهو الذي يروى عن عمر -رحمه الله-.

وقال أهل العراق: تترك ولو بلغت في ذلك أكثر من ثلاثين سنة ولو بلغت إلى السبعين، يعنون حتى تبلغ مبلغ من لا يحيض، وقالوا: ولو شاء الله لابتلاها بأكثر من ذلك، وكذلك في قوله: ﴿وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ معناه عند مالك إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واليائسة عند مالك وغيره بإجماع التي قد يئست من المحيض فلا ارتياب في أمرها أنها لا تحيض تعتد ثلاثة أشهر، ولم يأت في القرآن النص على ذلك، ولكن في القرآن دليل عليه وأنا أبينه إن شاء الله.

فأما الصغيرة التي لا يوطأ مثلها فإن دخل بها ووطئها مكانه فإنما عقرها، ولا عدة

عند مالك عليها إلا أن يكون مثلها يستقيم أن يوطأ، وإنما هي عنده في عداد من لم يدخل بها.

والذي في القرآن يدل على أن اليائسة التي لا يرتاب فيها يجب أن تعتد ثلاثة أشهر لقوله: ﴿وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ فمعناه: واللائي لم يحضن.

فلم يحتج إلى ذكر ذلك، وإذا كانت عدة المرتاب بها ثلاثة أشهر فالتي لا يرتاب بها أولى بذلك.

قوله -تعالى-: ﴿وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؛ معناه: أجلهن في الانقطاع فيما بينهن وبين الأزواج أن يضعن حملهن.

وقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِن وُجْدِكُمْ﴾؛ ويقرأ: «من وِجدِكم»، يقال: وجدت في المال وُجداً، أي: صرت ذا مال ووِجداً وجِدَةً، ووجدت الضالة وجداناً، ووجدت على فلان وَجْداً، ووجدت عليه مَوْجدة.

فأوجب الله -تعالى- السكنى حتى تنقضي العدة، والسكنى والنفقة على الزوج إذا طلق طلاق السنة إلى أن تأتي ثلاث حيض، فإذا أبت الطلاق قبل انقضاء العدة فعليه النفقة والسكنى في قول أهل العراق، وعليه السكنى في مذهب مالك والشافعي، فأما الحامل فعليه النفقة لها، وذكر في القرآن نص بقوله -تعالى-: ﴿وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: فأعطوهن أجرة رضاعهن.

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾؛ قيل في التفسير: إنه الكسوة والدثار والمعروف -والله أعلم- أن لا يقصر الرجل في نفقة المرضع التي ترضع ولده، إذا كانت هي والدته لأن الوالدة أرأف بولدها من غيرها به، فلا تقصر في رضاعه والقيام بشأنه، فحق كل واحد منهما أن يأتمر في الولد بمعروف.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾؛ معناه: فليرضع الوالد غير والدة الصبي، وهذا خبر في معنى الأمر لأن لفظ: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ لفظ الخبر ومعناه: فليرضع، ومثله في لفظ الخبر ومعنى الأمر قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[البقرة: ٢٣٣]، ومعناه: وليرضعن أولادهن حولين كاملين.

قوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ﴾ أمر أهل التوسعة أن يوسعوا على نسائهم

المرضعات أولادهن على قدر سعتهن.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾؛ أي: من كان رزقه بمقدار القوت فلينفق على قدر ذلك، كما قال: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾[البقرة: ٢٣٦].

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾أي: إلا ما أعطاها.

وقوله -عز وجل-: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾؛ أعلم الله المؤمنين أنهم وإن كانوا في حال ضيقة؛ وقيل: كان الغالب على أكثرهم في ذلك الوقت في عهد رسول الله ﷺ الفقر والفاقة فأعلمهم -عز وجل- أنه سيوسر المسلمين، ففتح الله عليهم بعد ذلك وجعل يسراً بعد عسر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾؛ أي: عجلنا لها العذاب.

ومعناه: عتا أهلها فحاسبنا أهلها وعذبناهم.

وقوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾؛ أي: ثقل عاقبة أمرها.

﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾ يعني في الآخرة وهو قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾.

يعني بعد ذلك الذي نزل بهم في الدنيا.

ثم وعظ الله هذه الأمة في تصديق النبي -عليه السلام-، واتباع أمره، وأعلم أنه قد بعث رسوله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ومعنى: ﴿أُولِي الأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول، وواحد ﴿أُولِي الأَلْبَابِ﴾: ذو لب أي: ذو عقل.

﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾.

﴿رَسُولاً﴾ منصوب على ثلاثة أوجه، أجودها أن يكون قوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ دليلاً على إضمار أرسل رسولاً يتلو عليكم.

ويجوز أن يكون يعنى بقوله ﴿رَسُولاً﴾ النبي -عليه السلام- ويكون ﴿رَسُولاً﴾، منصوباً بقوله: ﴿ذِكْراً﴾ يكون المعنى: قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً ذا ذكر رسولاً يتلو، ويكون رسولاً بدلاً من ذكر، ويكون يعنى به جبريل -عليه السلام-، ويكون دليل هذا القول قوله يعنى به جبريل -عليه السلام-: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[الشعراء:

١٩٣، ١٩٤].

ومعنى: ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

لأن أدلة الكفر مظلمة غير بينة، وأدلة الإسلام واضحة بينة.

قوله: ﴿أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾؛ أي: رزقه الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها ولا يزول.

ثم ذكر -جل وعز- ما يدل على توحيده فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾؛ ففي كل سماء وكل أرض خلق من خلقه وأمر نافذ من أمره.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

﴿عِلْماً﴾ منصوب على المصدر المؤكد، لأن معنى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾؛ أي: قد علم كل شيء علماً، ومثله: ﴿ وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ ثم قال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾[النمل: ٨٨] مؤكداً، لأن معنى قوله ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾: صَنع الله الجبال تمر مر السحاب.

* * *

سورة التحريم

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: وقد غفر الله لك ذلك التحريم.

وجاء في التفسير: أن النبي ﷺ، شرب عسلاً عند زينب بنت جحش فأجمعت عائشة وحفصة على أن يقولا له: إنا نشم منك ريح المغافير.

والمغافير: صمغ متغير الرائحة، وقيل في التفسير إنه بقلة، فلما صار إلى كل واحدة منهما قالت له: إني أشم منك ريح المغافير، فحرم النبي -عليه السلام- على نفسه شرب العسل، وقيل: إنه حلف على ذلك.

وجاء في التفسير -وهو الأكثر- أن النبي -عليه السلام- خلا في يوم لعائشة مع جاريته أم إبراهيم، وكان يقال لها: مارية القبطية فوقفت حفصة على ذلك، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا تعلمي عائشة ذلك» فقالت له: «ألست أفعل» وحرم مارية على نفسه.

وقيل: إنه حلف على ذلك أيضاً، فأعلمت حفصة عائشة الخبر، واستكتمتها إياه فأطلع الله نبيه على ذلك فقال الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾، يعني حفصة.

موضع ﴿وَإِذْ﴾ نصب كأنه قال: واذكر إذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً؛ يعني: حفصة.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾؛ أي: فلما خبرت به عائشة.

﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾؛ وقرئت ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ﴾ بتخفيف الراء.

وأعلم الله أن التحريم على هذا التفسير لا يحرم، فقال لنبيه -عليه السلام-: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

فلم يجعل الله لنبيه أن يحرم إلا ما حرم الله، فعلى هذين التفسيرين ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله، فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾؛ يعني الكفارة.

لأنه قد روي أنه مع ذلك التحريم حلف، وقال قوم: إن الكفارة كفارة التحريم.

فأما ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾؛ فتأويله: أنه عرف بعضه حفصة، ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾.

جاء في التفسير: أنه لما حرم مارية أخبر حفصة أنه يملك من بعده أبو بكر وعمر، فعرفها بعض ما أفشت من الخبر، وأعرض عن بعض، فإن النبي ﷺ قد عرف كل ما كان أسره، والإعراض لا يكون إلا عما يعرف.

وتأويل هذا في اللغة حسن بين.

معنى ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ جازى عليه، كما تقول لمن تتوعده: قد علمت ما علمت وقد عرفت ما صنعت، وتأويله: فسأجازيك عليه، لا أنك تقصد إلى أنك قد علمت فقط، ومثله قول الله -عز وجل-: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، فتأويله يعلمه الله ويجازي عليه، فإن الله يعلم كل ما يفعل.

ومثله قوله -تعالى-: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[النساء: ٦٣]، والله يعلم ما في قلوب الخلق أجمعين، ومثله قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧]، ليس الفائدة أنه يرى ما عمل، إنما يرى جزاء ما عمل، فقيل: إن النبي ﷺ طلق حفصة تطليقة واحدة فكان ذلك جزاءها عنده.

فذلك تأويل ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾: أي: جازى على بعض الحدث وكانت حفصة صوامة قوامة فأمره الله تعالى أن يراجعها فراجعها.

وقوله: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يعنى به عائشة وحفصة ومعنى ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ عدلت قلوبكما وزاغت عن الحق.

وقوله﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ﴾؛ أي: تتعاونا عليه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ﴾؛ أي: هو يتولى نصرته.

﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ جاء في التفسير:

إن صالحي المؤمنين أبو بكر وعمر.

وجاء أيضاً في التفسير: أن صالحي المؤمنين عمر، وقيل: إن صالحي المؤمنين خيار المسلمين.

و«صالح» ههنا ينوب عن الجمع كما تقول: يفعل هذا الخير من الناس تريد كل خير.

﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ في معنى «ظهراء» أي: والملائكة أيضاً نُصَّارٌ له ﷺ.

قوله -عز وجل-: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾؛ وقرئت: ﴿يُبَدِّلَهُ﴾ بتشديد الدال وفتح الباء، و﴿يُبَدِّلَهُ﴾ للتكثير وكلاهما جيد وقد قرئ به.

وقوله: ﴿قَانِتَاتٍ﴾؛ جاء في التفسير: مطيعات.

والقنوت: القيام بما يقرب إلى الله -عز وجل-.

وقوله -تعالى-: ﴿سَائِحَاتٍ﴾؛ جاء في التفسير عن النبي ﷺ أن السائحين هم: «الصائمون» وهو مما في الكتب الأولى.

وقال أهل اللغة: إنما قيل للصائم: «سائح» لأن الذي يسيح متعبد، ولا زاد معه فحين يجد الزاد يطعم، والصائم كذلك يمضي النهار ولا يطعم شيئاً فلشبهه به سمي: «سائحاً».

وقوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾؛ معناه: خذوا أنفسكم وأهليكم بما يقرب من الله -جل وعز-، وجنبوا أنفسكم وأهليكم المعاصي.

ومعنى﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: وقُّوا أنفسكم.

وجاء في التفسير: رحم الله رجلاً قال: «يا أهلاه صلاتكم صيامكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم»، معناه: الزموا واحفظوا صلاتكم، وهذه الأشياء المذكورة أدوا فرض الله فيها.

وفي الحديث: لعل الله يجمعهم معه في الجنة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؛ جاء في التفسير: إنها حجارة الكبريت.

والوقود: بفتح الواو ما توقد به النار من حطب وغيره، يقال: وقدت النار وُقُوداً -بضم الواو-.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾؛ بفتح النون، وتقرأ «نُصوحاً» بضم النون، فمن فتح فعلى صفة التوبة؛ ومعناه: توبة بالغة في النصح، و«فَعُول» من أسماء الفاعلين التي تستعمل للمبالغة في الوصف، وتقول: «رجل صَبُور وشَكُور وتوبة نَصُوح».

ومن قرأ «نُصوح» بضم النون، فمعناه: ينصحون بهذا نصوحاً.

يقال: «نَصَحت له نُصْحاً ونَصاحة ونُصوحاً».

وجاء في التفسير: أن التوبة النصوح التي لا يعاود التائب معها المعصية.

وقال بعضهم: التي لا ينوي معها معاودة المعصية.

وقوله: ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾؛ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ أي: في هذا اليوم.

والقراءة النصب في قوله: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ عطف على ﴿أَن يُكَفِّرَ﴾، ولو قرئت بالجزم لكان وجهاً يكون محمولاً على موضع ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ لأن عسى من الله واجبة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾[طه: ٨٢].

وقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾؛ أي: إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ سألوا الله أن يتمم لهم نورهم.

قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾؛ أعلم الله -عز وجل- أن الأبناء لا يغنون عمن عمل بالمعاصي شيئاً.

وجاء في التفسير: أن خيانتهما لم تكن في بغاء لأن الأنبياء لا يبتليهم الله في نسائهم بفساد، وقيل: إن خيانة امرأة لوط أنها كانت تدل على الضيف، وخيانة امرأة نوح أنها كانت تقول: إنه مجنون ﷺ وعلى أنبيائه أجمعين.

فأما من رغم غير ذلك فمخطئ لأن بعض من تأول قوله: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[هود: ٤٦] ذهب إلى جنس من الفساد.

والقراءة في هذا ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، و ﴿عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ وهما يرجعان إلى معنى واحد، وذلك أن تأويل أنه غير صالح أنه ذو عمل غير صالح، وكل من كفر فقد انقطع نسبته من أهله المؤمنين، لا يرثهم ولا يرثونه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾؛ جاء في التفسير: إن فرعون وتد لها أربعة أوتاد وشد بدنها ورجليها وجعل على صدرها رحى، وجعلها في الشمس، وأن الله فرج لها فرأت بيتها في الجنة.

وجاء في التفسير: أن الملائكة كانت تظلها بأجنحتها من الشمس.

وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾؛ وقرئت «وكتابه».

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ جاء في التفسير: إنه يعنى به فرج ثوبها، والعرب تقول للعفيف: هو نقي الثوب، وهو طيب الحجزة، تريد أنه عفيف وأنشدوا بيت النابغة الذبياني [من الطويل]:

رِقاقُ النِّعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُم يُحَيّونَ بِالريحانِ يَومَ السَّباسِبِ

فسروا طيب حجزاتهم أنهم أعفاء.

وكذلك﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا﴾؛ أي: في فرج ثوبها.

* * *

سورة الملك

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جاء في التفسير: إنها تسمى «المنجية»، تنجي قارئها من عذاب القبر، وجاء في التفسير: أن في التوراة: «سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر».

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾؛ معناه: -تعالى- وتعاظم.

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾؛ المتعلق بـ﴿أَيُّكُمْ﴾ المضمر؛ والمعنى: فيعلم أيكم أحسن عملاً علم ما وقع، والله -عز وجل- قد علم ما يكون منهم، إلا أن الجزاء يجب بوقوع العمل منهم.

وارتفعت «أي» بالابتداء، ولا يعمل فيها ما قبلها لأنها على أصل الاستفهام، وهذا مثل قوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾[الكهف: ١٢]، وهذا عند النحويين في تقدير التسمية معناه معنى «الألف وأم»، وإذا قلت: قد علمت أيهم أفضل، فالمعنى: قد علمت أزيد أفضل أم عمرو، فـ«علمت» لا يعمل فيما بعد الألف، وكذلك لا يعمل في «أي» والمعنى واحد.

ومعنى ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ خلق لكم الحياة ليختبركم فيها وخلق الموت ليبعثكم ويجازيكم بأعمالكم.

وجاء في تفسير الكلبي: خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء إلا مات، ولا يطأ على شيء إلا مات، ولا يجد رائحته شيء إلا مات، وخلق الحياة في صورة فرس بلقاء فوق الحمار ودون البغل، لا تمر بشيء إلا حيته ولا تطأ على شيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقوله -عز وجل- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾؛ ويقرأ: «في خلق الرحمن من تفوت» بغير الألف.

ويجوز في ﴿تَفَاوُتٍ﴾: تفاؤت مهموز، تبدل من الواو المضمومة، ويقال: «تفاوت الشيء تفاوتاً وتَفَوَّت تَفَوتاً» إذا اختلف، فالمعنى: ما ترى في خلقه السماء اختلافاً ولا اضطراباً.

ومعنى ﴿طِبَاقاً﴾ مطبق بعضها على بعض، «طباق» مصدر: «طوبقت طباقاً».

وقوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾؛ أي: هل ترى فيها فروجاً أو صدوعاً.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾:

﴿خَاسِئاً﴾ منصوب على الحال، ومعناه: صاغراً، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قد أعيي من قبل أن يرى في السماء خللاً.

وقوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾؛ بالنصب والرفع.

والنصب يكون عطفاً على قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾؛ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، أي: وأعتدنا للذين كفروا بربهم عذاب جهنم.

قوله ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾؛ معناه: التي تدنو منكم من سبع السماوات.

وقوله: ﴿بِمَصَابِيحَ﴾؛ يعني الكواكب.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً﴾؛ وهو أقبح الأصوات وهو كصوت الحمار.

وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾؛ معناه: تكاد ينقطع من غيظها عليهم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾؛ هذا التوبيخ زيادة لهم في العذاب.

ثم اعترفوا بجهلهم فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. أي: لو كنا سمعنا سمع من يعي ويفكر ما كنا في أصحاب السعير، أو يعقل عقل من يميز وينظر ما كنا في أهل النار.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً﴾؛ ويروى «فسحُقاً» بضم الحاء.

﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، «سُحقاً» منصوب على المصدر؛ المعنى: أسحقهم الله سحقاً، أي: باعدهم الله من رحمته مباعدة، والسحيق البعيد.

وقوله: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾؛ معناه: في جبالها، وقيل: في جوانبها، وقيل: في طرقها. وأشبه التفسير -والله أعلم- تفسير من قال: في جبالها، لأن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً﴾، معناه: سهل لكم السلوك فيها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها فهو أبلغ في التذليل.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾؛ معناه: أن الله الذي خلق السماوات بغير عمد لا تفاوت فيها وخلق الأرض وذللها لكم قادر على أن ينشركم، أي: يبعثكم.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: معنى ﴿تَمُورُ﴾ تدور.

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾؛ بين لهم بخلق السماوات والأرضين ما دلهم على توحيده، وبين لهم بتسخير الطير في جو السماء صافات أجنحتهن وقابضات.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ بقدرته.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِياً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أعلم الله -عز وجل- أن المؤمن سالك الطريقة المستقيمة، وأن الكافر في ضلالته بمنزلة الذي يمشي مكباً على وجهه.

وجاء في التفسير: أن الكافر يمشي على وجهه في الآخرة.

وسئل رسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: «الذي مشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم».

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقرئت ﴿سيئت﴾ بإشمام السين الضَّم، ويجوز «سيت» على طرح الهمزة، وإلقاء الحركة على الياء.

والمعنى: فلما رأوا العذاب زلفة، أي: قريباً سِيئَتْ وجوه الذين كفروا تبين فيها السوء.

﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾، وقرئت ﴿تَدْعُونَ﴾، من: «دعوت أدعو».

فأما ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ فجاء في التفسير: تكذبون، وتأويله في اللغة: هذا الذي كنتم من أجله تدعون الأباطيل والأكاذيب أي: تدعون أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم لا تخرجون.

ومن قرأ ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتخفيف، فالمعنى: هذا الذي كنتم به تستعجلون وتدعون الله في قولكم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢].

ويجوز أن يكون معنى ﴿تَدْعُونَ﴾ هذا أيضاً: تفتعلون، من الدعاء. وتفتعلون من الدعوى، ويجوز ذلك -والله أعلم-.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾؛ أي: غائر، وهو مصدر يوصف به الاسم، فتقول: «ماء غور، وماءان غور، ومياه غور» كما تقول: «هذا عدل وهذان عدل وهؤلاء عدل».

ومعنى ﴿مَعِينٍ﴾ جار من العيون.

وجاء في التفسير: طاهر؛ والمعنى: أنه يظهر من العيون.

سورة القلم

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

قرئت بإدغام النون في الواو، وقرئت بتبيين النون عند الواو، وقرئت: «نونَ والقلم» بفتح النون.

والذي اختار إدغام النون في الواو كانت الواو ساكنة أو متحركة لأن الذي جاء في التفسير يباعدها من الإسكان والتبين، لأن من أسكنها وبينها فإنما يجعلها حرف هجاء، والذي يدغمها فجائز أن يدغمها وهي مفتوحة.

وجاء في التفسير: أن أول ما خلق الله القلم، فقال له: «اكتب»، فقال أي رب، وما أكتب؟ قال: «القدر»، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وجرى فيما جرى به القلم: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[المسد: ١].

وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ معناه: وما تكتب الملائكة.

وقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾؛ هذه مسألة من أبواب النحو تحتاج إلى تبين.

قوله: ﴿أَنْتَ﴾ هو اسم ﴿مَا﴾، و﴿بِمَجْنُونٍ﴾ الخبر، و ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ موصول بمعنى النفي.

المعنى: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما تقول: «أنت بنعمة الله فاهم، وما أنت بنعمة الله جاهل».

وتأويله: فارقك الجهل بنعمة الله وهذا جواب لقولهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: ٦].

قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، وجاء في التفسير: غير محسوب.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ قيل: على الإسلام، وقيل: على القرآن.

والمعنى: -والله أعلم- وأنت على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن.

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾؛ معنى ﴿الْمَفْتُونُ﴾: الذي قد فتن بالجنون.

قال أبو عبيدة معنى الباء: الطرح؛ المعنى: أيكم المفتون، قال: ومثله قول الشاعر [من الرجز]:

* نَضْرِبُ بالسَّيفِ وَنَرْجُو بالفَرَجْ [1] *

قال معناه: نرجو بالفرج، وليس كذلك؛ المعنى: نرجو كشف ما فيه نحن بالفرج، أو نرجو النصر بالفرج.

والباء في ﴿بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ﴾ لا يجوز أن تكون لغواً، وليس هذا جائزاً في اللغة العربية في قوله: «أحد من أهلها». وفيه قولان للنحويين:

قالوا: ﴿المَفْتُونُ﴾ ههنا بمعنى: الفتون، والمصادر تجيء على المفعول، تقول العرب: «ليس لهذا معقول» أي: عقل، «وليس له معقود رأي» بمعنى عقد رأي، وتقول: «دعه إلى ميسور» بمعنى إلى يسر.

فالمعنى: فستبصر ويبصرون بأيكم الفتون.

وفيه قول آخر: ﴿بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ﴾ بالفرقة التي أنت فيها، أو فرقة الكفار التي فيها أبو جهل والوليد بن المغيرة المخزومي، ومن أشبههم فالمعنى على هذا: فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون، أفي فرقة الإسلام أم في فرقة الكفر؟.

وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾؛ أي:: ودوا لو تصانعهم في الدين فيصانعونك.

وقوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ﴾؛ فعيل من المهانة، وهي القلة. ومعناه ههنا: القلة في الرأي والتمييز.

وقوله: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾؛ الهماز: الذي يغتاب الناس.

وقوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ معناه: كان يمنع أهله وولده ولحمته من الإسلام.

وجاء في التفسير: أنه الوليد بن المغيرة المخزومي وكان موسراً كثير المال، وكان له عشرة بنين فكان يقول لهم وللحمته: من أسلم منكم منعته رفدي.

وقوله: ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: متجاوز في الظلم وأثيم: أي: أثيم بربه، أي: أثيم باعتدائه وذنبه.

قوله -عز وجل-: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ﴾؛ جاء في التفسير: أن العتل ههنا الشديد

---

(١) ذكره البغدادي في الخزانة في الشاهد (٧٨٩) وقال فيه: وهذا الرجز لم ينسبه أحد إلى قائله.

الخصومة، وجاء في التفسير: أنه الجافي الخلق اللئيم الضريبة.

وهو في اللغة: الغليظ الجافي.

الزنيم: جاء في اللغة: أنه الملزق في القوم وليس منهم، قال حسان بن ثابت الأنصاري [من الطويل].

وأنتَ زنيمٌ نِيط في آلِ هاشمٍ كما نيطَ خلفَ الراكبِ القدحُ الفردُ

وقيل: إن «الزنيم» الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها، والزنمتان المعلقتان عند حلق المعزى.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ وقرئت على لفظ الاستفهام؛ والمعنى معنى التوبيخ.

وموضع ﴿أَن﴾ نصب على وجهين:

على معنى: الآن ذلك أَلِأَنْ كان ذا مال وبنين، أي: جعل مجازاة النعمة التي خولها في المال والبنين والكفر بآياتنا، وإذا جاءت ألف الاستفهام فهذا هو القول يصلح غيره.

وقيل في التفسير: «لا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين» أي: لا تطعه ليساره وعدده.

و﴿أَسَاطِيرُ﴾ مرفوعة بإضمار «هي»؛ المعنى: إذا تتلى عليه آياتنا قال: هي أساطير الأولين. وواحد الأساطير: أسطورة.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾؛ معناه: نسمه على أنفه، والخرطوم: الأنف، ومعنى سنسمه سنجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم.

وجائز -والله أعلم- أن يفرده بسمة لمبالغته في عداوة النبي -عليه السلام-، فيخص من التشويه بما يتبين به من غيره كما كانت عداوته لرسول الله ﷺ عداوة يتبين بها من غيره.

وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾؛ والجنة: البستان.

وهؤلاء قوم بناحية اليمن كان لهم أب يتصدق من جنته على المساكين، فجاء في التفسير: أنه كان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقي.

وجاء أيضاً: أنه كان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل، وما كان في أسفل الأكداس، وما أخطأه القطاف من العنب، وما خرج عن البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت،

فكان يجتمع من ذلك شيء كثير، فقال بنوه: نحن جماعة، وإن فعلنا بالمساكين ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر فحلفوا ليصرمنها بِسُدْفة من الليل، قال الله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾؛ فحلفوا ولم يقولوا: إن شاء الله، فلما كان الوقت الذي اتعدوا فيه بسدفة، غدوا إلى جنتهم ليصرموها.

﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾؛ من قولهم: «حاردت السنة» إذا منعت خيرها، وقيل: على غضب. فأما «الحرد» الذي هو القصد فأنشدوا فيه [من الرجز]:

أَقبَلَ سَيلٌ جاءَ مِن أَمرِ الله يَحرُدُ حِردَ الجَنَّةِ المُغِلَّه[1]

أي: يقصد قَصدَ الجنة المغلة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾[2].

قوله -تعالى-: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِن رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾؛ أي: أرسل عليها عذاباً من السماء فاحترقت كلها.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾؛ أي: فأصبحت كالليل سواداً.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾؛ أي: إن كنتم عازمين على صرام النخل.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾؛ أي: يسرون الكلام بينهم بأن: ﴿لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِسْكِينٌ﴾؛ والتخافت: إسرار الكلام.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ محترقة.

﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾، أي: قد ضللنا طريق جنتنا، أي: ليست هذه.

ثم علموا أنها عقوبة فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾؛ أي: حرمنا ثمر جنتنا بمنعنا المساكين.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾؛ ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[البقرة: ١٤٣]، أي: عدلاً.

﴿لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ قال لهم: استثنوا في يمينكم، لأنهم أقسموا ليصرمنها مصبحين ولم يستثنوا.

---

(١) هو لحسان بن ثابت.

(٢) سيفسرها فيما يلي من كلامه.

ومعنى التسبيح ههنا: الاستثناء، وهو أن يقول: إن شاء الله، فإن قال قائل التسبيح أن تقول سبحان الله؟

فالجواب في ذلك: أن كل ما عظمت الله به فهو تسبيح، لأن التسبيح في اللغة: فيما جاء عن النبي -عليه السلام- تنزيه الله عن السوء. فالاستثناء تعظيم الله والإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئته -عز وجل-.

فالمعنى في قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ﴾؛ إنا بلونا أهل مكة حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»، فابتلاهم الله بالجرب والهلاك وذهاب الأقوات كما بلي أصحاب هذه الجنة باحتراقها وذهاب قوتهم منها.

وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ هذه الألف ألف الاستفهام، ومجازها ههنا: التوبيخ والتقرير.

وجاء في التفسير: أن بعض كفار قريش قال: إن كان ما يذكرون أن لهم في الآخرة حقاً، فإن لنا في الآخرة أكبر منه كما أنا لنا في الدنيا أفضل منهم. فوبخهم الله فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾، وكذلك: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ معناه: على أي أحوال الكفر تخرجون حكمكم.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾؛ أي: أعندكم كتاب من الله -عز وجل- أن لكم لما تخيرون.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾؛ معناه: مؤكدة.

﴿إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾؛ أي: حلف على ما تدعون في حكمكم.

قوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾؛ والزعيم الكفيل والضامن؛ والمعنى: سلهم أيهم كفل بذلك.

قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾؛ أي: فليأتوا بشركائهم يوم القيامة.

ومعنى ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ في اللغة: يكشف عن الأمر الشديد، قال الشاعر:

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

والقوس فيها وترٌ عردّ

وجاء في التفسير عن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثنا أبي، قال حدثنا محمد بن جعفر يعني غندر، عن شعبة عن مغيرة عن إبراهيم قال: قال ابن عباس في قوله ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: «عن الأمر الشديد».

وقال ابن مسعود: «يكشف الرحمن عن ساقه، فأما المؤمنون فيخرون له سجداً وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً طبقاً كأن فيها السفافيد».

فهذا ما روينا في التفسير وما قاله أهل اللغة.

قال أبو إسحاق: هذا تأويل ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾؛ يعنى به المنافقون.

وقوله: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾؛ معناه: تغشاهم ذلة.

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾؛ يعنى به في الدنيا.

وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ﴾؛ ومثله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾[المدثر: ١١]، معناه: لا تشغل قلبك به كله إلي فإني أجازيه، ومثله قول الرجل: «ذرني وإياه». وليس أنه منعه به ولكن تأويله: كِلْهُ إليّ فإني أكفيك أمره.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ﴾؛ يعني يونس -عليه السلام-.

﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: أي: مملوء غماً وكرباً.

وقوله: ﴿لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِن رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾؛ والمعنى: أنه قد نبذ بالعراء وهو غير مذموم، ويدل على ذلك أن النعمة قد شملته.

قوله: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾؛ هذا تخليص له من الذم. والعراء: المكان الخالي قال الشاعر:

رَفَعْتُ سَاقاً لا أَخَافُ عِثارَها ... ونَبَذتُ بِالبَلَدِ العَرَاءِ ثِيَابِي

قوله -عز وجل-: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾؛ وقرئت «ليزهقونك» بالهاء، ولكن هذه تخالف المصحف أعني الهاء والقراءة على ما وافق المصحف.

وهذة الآية تحتاج إلى فصل إبانة في اللغة، فأما ما روي في التفسير: فروي أن الرجل كان إذا أراد أن يعتان شيئاً -أي: يصيبه بالعين- تجوع ثلاثة أيام، ثم يقول للذي يريد أن يعتانه: لا أرى كاليوم إبلاً أو شاء أو ما أراد؛ المعنى: لم أر كإبل أراها اليوم إبلاً فكأنه

يصيبها بالعين بهذا القول، فقالوا للنبي ﷺ لما سمعوا منه الذكر كما كانوا يقولون لما يريدون أن يصيبوه بالعين.

فأما مذهب أهل اللغة فالتأويل عندهم: أنه من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يضروك، وهذا مستعمل في الكلام، يقول القائل: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني به، ونظراً يكاد يأكلني فيه، وتأويله كله: أنه نظر إلي لو أمكنه معه أكلي أو أن يصرعني لفعل.

وهذا بين واضح.

* * *

سورة الحاقة

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾:

الأولى مرفوعة بالابتداء، و«ما» رفع بالابتداء أيضاً، والحاقة الثانية خبر «ما» والعائد على «ما» ﴿الحَاقَّةُ﴾ الثانية، على تقدير: «ما هي؟»، والمعنى: تفخيم شأنها، واللفظ لفظ استفهام كما تقول: «زيد ما هو؟» على تأويل التعظيم لشأنه في مدح كان أو ذم.

والحاقة الساعة والقيامة، وسميت «الحاقة» لأنها تحق كل شيء يعمله الإنسان من خير أو شر، وكذلك ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾.

ومعناه: أي شيء أعلمك ما الحاقة، و«ما» موضعها رفع، وإن كان ما بعد ﴿أَدْرَاكَ﴾ لأن ما كان في لفظ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله؛ المعنى: ما أعلمك أي شيء الحاقة.

ثم ذكر الله -عز وجل- من كذب بالحاقة والساعة وأمر البعث والقيامة وما نزل بهم وعظاً لأمة محمد ﷺ فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾؛ أي: بالقيامة.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾؛ ومعنى ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ عند أهل اللغة بطغيانهم، وفاعلة قد تأتي بمعنى المصادر نحو «عافية وعاقبة».

والذي يدل عليه معنى الآية -والله أعلم- أنهم أهلكوا بالرجفة الطاغية، كما قال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾؛ يقال للشيء العظيم عات وعاتية، وكذلك أهلكوا بالطاغية.

ودليل الوصف بالطغيان في الشيء العظيم قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾؛ فوصف الماء بالطغيان لمجاوزته القدر في الكثرة، وكذلك أهلكوا بالطاغية -والله أعلم-.

وقوله: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾؛ أي: بريح شديدة البرد جداً، والصرصر: شدة البرد وصرصر متكرر فيها البرد، كما تقول: «قد قلقلت الشيء، وأقللت الشيء» إذا رفعته من مكانه، إلا أن قلقلته رددته أي: كررت رفعه، وأقللته:رفعته. فليس فيه دليل تكرير وكذلك «صَرْصَرَ، وصَرَّ، وصَلْصَل وصَلَّ» إذا سمعت صوت الصرير غير مكرر قلت: «قد صَرَّ وصَلَّ»، فإذا أردت أن الصوت تكرر قلت: «قد صَلْصَل، وصَرْصَرَ».

وقوله -تعالى-: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾؛ معنى ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أقامها عليهم كما شاء.

ومعنى ﴿حُسُوماً﴾ دائمة وقالوا: متتابعة، فأما ما توجبه اللغة فعلى معنى تحسمهم حسوماً؛ أي: تذهبهم وتفنيهم.

وقوله -تعالى-: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾؛ ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصول نخل، وقيل: خاوية لأن النخل تذكر وتؤنث، يقال: «هذا نخل حسن، وهذه نخل حسنة»، فخاوية على التأنيث. وقال في موضع آخر: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾[القمر: ٢٠].

وقوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ﴾؛ وقرئت «ومن قِبَله» فمن قال: ﴿ومن قِبَله﴾ فمعناه: وتباعه، ومن قال ﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ فالمعنى: من تقدمه.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾؛ المؤتفكات: الذين ائتفكوا بذنوبهم، أي: أهلكوا بذنوبهم التي أعظمها الإفك، وهو الكذب في أمر الله بأنهم كفروا وكذبوا بالرسل فلذلك قيل لهم: مؤتفكون، وكذلك الذين ائتفكت بهم الأرض، أي: خسفت بهم؛ إنما معناه: انقلبت بهم كما يقلب بهم الكذاب الحق إلى الباطل.

ومعنى ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾؛ بالخطأ العظيم.

والدليل على أن من عظيم آثامهم الكذب قوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ﴾ لأنهم كذبوا رسلهم.

﴿أَخْذَةً رَابِيَةً﴾: معنى ﴿رَابِيَةً﴾ تزيد على الأحداث.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ معنى طغى الماء طما وارتفع، ومعنى ﴿الْجَارِيَةِ﴾ أي: سفينة نوح -عليه السلام- والله أعلم.

وقوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾؛ معناه: لنجعل هذه الفعلة لكم تذكرة، أي: إغراق قوم نوح ونجاته والمؤمنين معه.

وقوله: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾؛ معناه: أذن تحفظ ما سمعت وتعمل به، أي: ليحفظ السامع ما سمع ويعمل به. تقول لكل شيء حفظته في نفسك: «قد وَعَيْته»، يقال: «قد وَعيْتُ العلم وَوَعَيْتُ» قُلْتُ: وتقول لما حفظته في غير نفسك: «أَوْعَيْتُه»، يقال: «أوعيت المتاع في الوعاء».

وقوله ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾؛ القراءة بالرفع في ﴿نَفْخَةٌ﴾ على ما لم يسم فاعله.

وذكر الأخفش: ﴿نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب، ولم يذكر قرئ بها أم لا، وهي في العربية جائزة على أن قولك: ﴿فِي الصُّورِ﴾ يقوم مقام ما لم يسم فاعله، تقول: «في الصور نفخاً»، فـ«في الصور» لفظ الجر؛ والمعنى: نفخ الصور نفخة واحدة، وهذا على من نصب نفخة واحدة.

ومن رفع فعلى معنى: نفخ نفخة واحدة في الصور. فأما تذكير نفخ فلو كان نفخت في الصور نفخة جاز لأنه تأنيث ليس بحقيقي، فتذكيره جائز، لأن النفخة والنفخ بمعنى واحد، ومثله ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّهِ﴾[البقرة: ٢٧٥]؛ المعنى: معنى الوعظ، وقال في موضع آخر: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ﴾[يونس: ٥٧].

وقوله: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ يقال لكل ما ضعف جداً: قد وهى فهو واهٍ، ويجوز: «واهية» بإمالة الألف والواو لكسر الهاء.

وقوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾؛ المعنى: الملائكة على جوانبها، ورَجَا كل شيء: ناحيته -مقصور-، والتثنية: «رجوان» والجمع: «أرجاء».

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾؛ يروى: «ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة، والعرش فوق رؤوسهم وهم مطرقون يسبحون».

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُم اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ﴾؛ يروى: إذا كان يوم القيامة عرض الخلق ثلاث عرضات في الاثنين منها الاحتجاج والاعتذار والتوبيخ، وفي الثالثة تنثر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله.

و﴿هَاؤُمُ﴾ أمر للجماعة بمنزلة: «هاكم»، تقول للواحد: «هَاءَ يا رجل» وللاثنين: «هاؤما يا رجلان»، وللثلاثه: «هاؤم يا رجال»، وللمرأة: «هاءِ يا امرأة» بكسر الهمزة، وللاثنين: «هاؤما»، ولجماعة النساء: «هَاؤُنَّ»، وفي هذه ثلاث لغات قد ذكرتها في غير كتاب القرآن.

وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾؛ معناه: إني أيقنت بأني أحاسب وأبعث، فأما ﴿كِتَابِيَهْ﴾ و﴿حِسَابِيَهْ﴾ فالوجه أن يوقف على هذه الهاءات، ولا توصل لأنها أدخلت للوقف، وقد حذفها قوم في الأصل ولا أحب مخالفة المصحف، ولا أن أقرأ بإثبات الهاء في الوصل.

وهذه رؤوس آيات فالوجه أن يوقف عندها، وكذلك قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾[القارعة: ١٠].

وقوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾؛ معناه: ذهبت عني حجته، والسلطان الحجة، وكذلك قيل للأمراء: سلاطين، لأنهم الذين تقام بهم الحجج والحقوق.

وقوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾؛ معناه: تدنو من مريدها لا يمنعه من تناولها بعد ولا شوك.

وقوله: ﴿فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾، ومعناه: في الأيام التي مضت لهم.

قوله: ﴿صَلُّوهُ﴾؛ المعنى: اجعلوا يصلى النار.

قوله ﴿مِنْ غِسْلِينٍ﴾؛ معناه: من صديد أهل النار، واشتقاقه مما ينغسل من أبدانهم.

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾، و﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ «ما» مؤكدة، وهي لغو في باب الإعراب.

والمعنى: قليلا يؤمنون وقليلا يذكرون.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِن رَبِّ العَالَمِينَ﴾؛ رفعه بهو مضمرة يدل عليها قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، أي: هو تنزيل من رب العالمين.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾؛ يعنى به النبي ﷺ.

﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: بالقدرة والقوة وقال الشماخ [من الوافر]:

إذا ما رايَةٌ رُفِعَت لِمَجدٍ تَلَقَّاها عَرابَةُ بِاليَمينِ

قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ﴾: الوتين نياط القلب.

﴿فَمَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾؛ ﴿حَاجِزِينَ﴾ من نعت ﴿أَحَدٍ﴾، وأحد: في معنى جميع؛ المعنى: فما منكم يحجزون عنه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِينِ﴾؛ المعنى: إن القرآن لليقين حق اليقين.

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾؛ التسبيح: معناه: تنزيه الله عن السوء وتنزيهه تعالى.

* * *

سورة المعارج

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ قرئ: ﴿سَالَ﴾ بغير همز، يقال: سألت أسأل، والرجلان يتساءلان ويتساولان بمعنى واحد.

والتأويل: دعا داع بعذاب واقع.

وذلك كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢].

وقيل: معنى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ﴾؛ أي: عن عذاب واقع، فالجواب قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾؛ أي: يقع بالكافرين، وقيل: إن سأل سايل بغير همز، «سايل» واد في جهنم.

وقوله: ﴿ذِي المَعَارِجِ﴾؛ قيل: معارج الملائكة، وقيل: ذي الفواصل.

وقوله: ﴿تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ جاء في التفسير: أنه يوم القيامة، وجاء أيضاً: أن مقداره لو تكلفتموه خمسون ألف سنة، والملائكة تعرج في كل يوم واحد. وقرئت: ﴿تَعْرُجُ المَلائِكَةُ﴾، ويعرج. وقيل: منذ أول أيام الدنيا إلى انقضائها خمسون ألف سنة.

وجائز أن يكون ﴿فِي يَوْمٍ﴾ من صلة ﴿وَاقِعٍ﴾ فيكون المعنى: سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وذلك العذاب يقع في يوم القيامة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾؛ هذا يدل على أن ذلك قبل أن يؤمر النبي -عليه السلام- بالقتال.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾؛ يرونه بعيداً عندهم كأنهم يستبعدونه على جهة الإحالة، كما تقول لمناظرك: هذا بعيد لا يكون.

وقوله: ﴿وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾؛ أي: صحيحاً يقرب فهم مثله بما دل الله على يوم البعث بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وما أشبه هذا من الاحتجاجات في البعث.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾؛ العهن: الصوف،

والمهل دردي الزيت.

﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ وقرئت: ﴿وَلاَ يُسْأَلُ حَمِيمٌ﴾، فمن قرأ ﴿وَلاَ يَسْأَلُ﴾ فالمعنى: أنهم يعرف بعضهم بعضاً ويدل عليه قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ ومن قرأ ﴿وَلاَ يُسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾. فالمعنى: لا يسأل قريب عن قرابته، ويكون﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ -والله أعلم- للملائكة.

وقوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾؛ معناه: أدنى قبيلته منه.

وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى﴾ «كلا» ردع وتنبيه، أي: لا يرجع أحد من هؤلاء فاعتبروا.

وقرئت ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾؛ والقراءة ﴿نَزَّاعَةٌ﴾، والقراء عليها وهي في النحو أقوى من النصب.

وذكر أبو عبيد: أنها تجوز في العربية، وأنه لا يعرف أحداً قرأ بها، وقد رويت عن الحسن، واختلف فيها عن عاصم، فأما ما رواه أبو عمرو عن عاصم ف﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنصب وروى غيره ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بالرفع.

فأما الرفع فمن ثلاث جهات:

أحدها: أن تكون «لظى» و«نزاعة» خبراً عن الهاء والألف، كما تقول: إنه حلو حامض، تريد أنه جمع الطعمين، فتكون الهاء والألف إضمار للقصة، وهو الذي يسميه الكوفيون المجهول؛ المعنى: إن القصة والخبر لظى نزاعة للشوى، والشوى: الأطراف، اليدان والرجلان والرأس، والشوى جمع «شواة»، وهي جلدة الرأس، قال الشاعر.

قالتْ قَتيلةُ ما لَهُ   قد جُلِّلَتْ شَيْباً شَواتُهْ

فأما نصب﴿نَزَّاعَةً﴾ فعلى أنها حال مؤكدة كما قال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾[البقرة: ٩١]، وكما تقول: «أنا زيد معروفاً»، فيكون ﴿نَزَّاعَةً﴾ منصوباً مؤكداً لأمر النار، ويجوز أن ينصب على معنى: إنها تتلظى نزاعة كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾.

والوجه الثالث في الرفع: على الذم بإضمار «هي» على معنى: هي نزاعة للشوى، ويكون نصبها أيضاً على الذم فيكون نصبها على ثلاثة أوجه.

وقوله: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ تدعو الكافر باسمه والمنافق باسمه.

وقوله: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾؛ الهلوع على ما في الآية من التفسير يفزع ويجزع من البشر.

وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً﴾؛ الإنسان ههنا في معنى الناس، فاستثنى الله -عز وجل- المؤمنين المصلين فقال: ﴿إِلاَّ المُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾؛ يعنى به المحافظين على الصلاة المكتوبة.

ويجوز أن يكون الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة ولا يلتفتون، فيكون اشتقاقه من الدائم وهو الساكن، كما جاء النهي عن البول في الماء الدائم، والمحروم: الذي هو محارف قد حرم المكاسب وهو لا يسأل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾؛ أي: على هؤلاء.

وقيل: إنها في معنى «من»؛ المعنى عند قائل هذا: إلا من أزواجهم أو ما ملكت، وقيل: إن «على» محمول على المعنى؛ المعنى: فإنهم لا يلامون على أزواجهم، ويدل عليه ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ معناه: في العدوان، وهي المبالغة في مخالفة أمر الله ومجاوزة القدر في الظلم.

وقيل: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ أي: من طلب غير الأزواج وما ملكت الأيمان فقد اعتدى، و﴿العَادُونَ﴾: جمع عاد وعادون.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾؛ أي: يرعون العهد والأمانة ويحافظون عليها، وكل محافظ على شيء فهو مراع له. والإمام راع لرعيته.

وقوله: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾؛ ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ منصوب على الحال.

والمهطع: المقبل ببصره على الشيء لا يزايله، لأنهم كانوا ينظرون إلى النبي -عليه السلام- نظر عداوة، قال الله -تعالى-: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٨]، معناه: غيظاً وحقناً.

قوله: ﴿عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾؛ حلقاً حلقاً وجماعة جماعة.

و ﴿عِزِينَ﴾ جمع عزة، فكانوا عن يمينه وشماله مجتمعين.

فقالوا: إن كان أصحاب محمد يدخلون الجنة فإنا ندخلها قبلهم، وإن أعطوا فيها شيئا أعطينا أكثر منهم، فقال -عز وجل-: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؛ وقرئت ﴿أَن يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

ثم قال: ﴿كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من تراب ومن نطفة، فأي شيء لهم يدخلون به الجنة، وهم لك على العداوة وعلى البغضاء.

وقوله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ معناه: فأقسم برب المشارق والمغارب، و«لا» مؤكدة كما قال: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾[الحديد: ٢٩]؛ ومعناه ليعلم أهل الكتاب.

ومعنى﴿رَبِّ المَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾؛ أي: مشارق الشمس ومغاربها، وكذلك القمر، وهي مشارق الصيف ومشارق الشتاء ومغارب الصيف ومغارب الشتاء، فتشرق الشمس كل يوم من مشرق، وتغرب من مغرب، وكذلك القمر.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾؛ ﴿يَخُوضُوا﴾ جواب الأمر مجزوم، وقيل: إنه مجزوم وإن كان لفظه آلة الأمر لأنه وضع موضع الأمر، كأنه قال: ليخوضوا وليلعبوا، وهذا أمر على جهة الوعيد، كما تقول: «اصنع ما شئت فإني أعاقبك عليه»، وقد مر تفسير هذا مستقصى.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾؛ والأجداث: قبور، واحدها: جدث، ويقال أيضاً: «حَدَف» في هذا المعنى، وقرئت: «إلى نَصْب يوفقون»، و«إلى نُصْب» بضم النون وسكون الصاد، وقرئت: «إلى نُصُب» بضم النون والصاد، فمن قرأ «نُصْب»، فمعناه كأنهم إلى علم منصوب لهم، ومن قرأ «إلى نُصُب» فمعناه: إلى أصنام لهم، كما قال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾[المائدة: ٣].

ومعنى﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون، قال الشاعر(١):

لأَنْعَتَنْ نَعامةً مِيفاضا خَرْجاءَ تَغْدُو وتطلُبُ الإِضَاضا

الميفاض: السرعة، وخرجاء ذات لونين سوداً وبياض، ومعنى الأضاض: الموضع الذي يلجأ إليه، يقال: أضتني إليك الحاجة إضاضاً.

قوله: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم ذلة.

وقوله: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ قرئت بالفتح والكسر، فمن قرأ بكسر يوم فعلى أصل الإضافة لأن الذي يضاف إليه الأول مجرور بالإضافة.

ومن فتح «يوم» فلأنه مضاف إلى غير متمكن مضاف إلى «إذ» و«إذ» مبهمة، ومعناه:

---

(١) لم يعلم قائله، وهو في اللسان مادة: ((أضض)).

يوم إذ يكون كذا وكذا، فلما كانت مبهمة وأضيف إليها، بني المضاف إليها على الفتح، كذلك أنشدوا قول الشاعر:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرب مِنْهَا غَيْرَ أَن نَطَقَت حَمَامَة فِي غُصُون ذَات أَوْقَال

فلما أضاف «غير» إلى «أن» بناها على الفتح، وهي في موضع رفع، والرفع أيضاً قد روي، فقالوا: «غيرُ أن نطقت»، كما قرئ الحرف على إعراب الجر وعلى البناء على الفتح.

* * *

سورة نوح -عليه السلام-

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

«أن» في موضع نصب بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، لأن الأصل: «أنذر قومك» فلما أسقطت الباء أفضى الفعل إلى «أن» فنصبها.

وقد قال قوم يرتضى علمهم: إن موضع مثلها جر وإن سقطت الباء، لأن «أن» يحسن معها سقوط الباء. ولا تسقط من المصدر الباء لأنك لو قلت: «إني أرسلتك بالإنذار والتهدد» لم يجز أن تقول: «إني أرسلتك الإنذار والتهدد»، ولو قلت: «إني أرسلتك بأن تنذر وأن تهدد» لجاز: «وإني أرسلتك أن تنذر وأن تهدد».

وأصل الإنذار في اللغة: الإعلام بما يخاف منه فيحذر، وأن لا يتعرض له.

ويجوز أن يكون «أن» تفسير لما أرسل به، فيكون المعنى: إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أي: أنذر قومك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أرسل الله نوحاً وجميع الأنبياء بالأمر بعبادته، وإيثار تقواه وطاعة رسله.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ ﴿يَغْفِرْ﴾ جزم جواب الأمر ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ﴾، والنحويون البصريون كلهم ما خلا أبا عمرو بن العلاء لا يدغمون الراء في اللام، لا يجيزون: «يغفلكم»، وأبو عمرو بن العلاء يرى الإدغام جائزاً.

وزعم الخليل وسيبويه أن الراء حرف مكرر متى أدغم في اللام ذهب التكرير منه، فاختل الحرف، والمسموع من العرب وقراءة القراء إظهار الراء.

ومعنى﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ ههنا: يغفر لكم ذنوبكم، ودخلت «من» تختص الذنوب من سائر الأشياء، لم تدخل لتبعيض الذنوب، ومثله قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[الحج: ٣٠]؛ معناه: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ليس الرجس ههنا بعض الأوثان.

وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ﴾؛ معناه: اتقوا الله وأطيعون يؤخركم عن العذاب، أي: يؤخركم فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب.

ثم قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ﴾؛ معناه: إذا جاء الأجل في الموت لا يؤخر بعذاب كان أو باستئصال.

قوله: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا﴾ قيل: إنهم كانوا يسدون آذانهم ويغطون وجوههم لئلا يسمعوا قوله، وليبالغوا في الإعراض عنه بتغطية الوجوه.

وقوله: ﴿وَأَصَرُّوا﴾: أقاموا ولم ينووا توبة منه.

﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾: أخذتهم العزة من اتباع نوح والدليل على ذلك قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[الشعراء: ١١١].

وقوله: ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾؛ أي: دعوتهم مظهرًا لهم الدعوة.

و﴿جِهَاراً﴾ منصوب مصدر موضوع موضع الحال؛ المعنى: دعوتهم مجاهراً بالدعاء إلى توحيد الله وتقواه.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾؛ أي: خلطت لهم دعاءهم في العلانية بدعاء السر.

فقلت: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾؛ أي: استدعوا مغفرة ربكم.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً﴾؛ وقيل: إنهم كانوا قد أجدبوا، فأعلمهم أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا.

ومدراراً: كثيرة الدر أي: كثيرة المطر.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ يعطيكم زينة الدنيا وهي المال والبنون.

﴿وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً﴾: أي: بساتين..

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾؛ قيل: ما لكم لا تخافون لله عظمة، وقيل: لا ترجون عاقبة، وحقيقته -والله أعلم- ما لكم لا تخافون عاقبة الإيمان فتوحدون الله وقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده من خلقه إياكم، ومن خلق السماوات والأرضين والشمس والقمر.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ أي: طوراً بعد طور، نقلكم من حال إلى حال ومن جهة من الخلق إلى جهة، خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم جعل

المضغة عظماً، وكسا العظم لحماً.

ثم قررهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾؛ و﴿طِبَاقاً﴾ منصوب على جهتين:

إحداهما: مطابقة طباقاً، والأخرى من نعت ﴿سَبْعَ﴾؛ أي: خلق سبعاً ذات طباق.

﴿وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾؛ قال أهل العربية: يجوز أن يكون في السماء الدنيا، وقيل: فيهن لأنهن كالشيء الواحد.

وجاء في التفسير: أن وجه الشمس يضيء لأهل الأرض من ظهرها وقفاها ويضيء لأهل السماوات وكذلك القمر.

﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾؛ و﴿نَبَاتاً﴾ محمول في المصدر على المعنى، لأن معنى ﴿أَنْبَتَكُم﴾ جعلكم تنبتون نباتاً، والمصدر على لفظ أنبتكم إنباتاً أبلغ في المعنى.

قوله: ﴿وَوَلَدُهُ﴾ ويقرأ: ﴿وَوُلْدُهُ﴾؛ والوَلَد والوُلْد بمعنى واحد، مثل العَرَب والعُرْب، والعَجَم والعُجْم.

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ يقال: مكر كبير وكُبَّار وكبَار في معنى واحد.

﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَداً وَلاَ سُوَاعاً﴾، وقرئت ﴿وُدّاً﴾ بضم الواو.

﴿وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ هذه خمسة أصنام كانت في قوم نوح يعبدونها، ثم صارت إلى العرب فكان «ود» لكلب، وكان «سواع» لهمدان، وكان «يغوث» لمذحج، وكان «نسرٌ» لحمير. وقرئت «يغوثاً ويعوقاً».

ويغوث ويعوق: لا ينصرفان لأنهما في وزن الفعل وهما معرفتان، والقراءة التي عليها القراء والمصحف ترك الصرف، وليس في «يغوث ويعوق» ألف في الكتاب، ولذلك لا ينبغي أن يقرأ إلا بترك الصرف.

والذين صرفوا جعلوا هذين الاسمين الأغلب عليهما الصرف إذ كان أصل الأسماء عندهم الصرف، أو جعلوهما نكرة وإن كانا معرفتين، فكأنهم قالوا: ولا تذرون صنماً من أصنامكم، ولا ينبغي أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف.

قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾؛ ويقرأ: «مما خطاياهم»، وخطيئة يجمع على: «خطايا، وخطيئات»، وقد فسرنا ذلك فيما سلف من الكتاب.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾؛ ﴿دَيَّاراً﴾ في معنى واحد،

يقال: «ما في الدار أحد وما بها ديار»، وأصلها: ديوار، فيقالا، فقلبت الواو ياء أدغمت إحداهما في الأخرى.

وإنما دعا عليهم -عليه السلام- لأن الله -جل وعلا- أوحى إليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾[هود: ٣٦].

قوله -تعالى-: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾؛ قالوا: بيتي مسجداً، وإن شئت أسكنت الياء، وإن شئت فتحتها.

قوله: ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾؛ معناه: إلا تباراً، والتبار: الهلاك، وكل شيء أهلك فقد تبر، ولذلك سمي كل مكسر: «تبراً».

* * *

سورة الجن

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾؛ القراءة أوحي بإثبات الواو.

وقد قرئت: «قل أحي إلي» بغير واو، فمن قال: «أحى إلي» فهو من وحيت إليه، والأكثر: «أوحيت إليه»، والأصل: «وحي»، ولكن الواو إذا انضمت قد تبدل منها الهمزة نحو: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾[المرسلات: ١١]، أصله: «وقتت» لأنه من الوقت.

وجاء في التفسير: أن هؤلاء النفر الذين من الجن استمعوا على النبي ﷺ وهو يصلي الصبح ببطن نخلة، وهو قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾[الأحقاف: ٢٩]، أي قال بعضهم لبعض أمسكوا عن الكلام واستمعوا.

وقيل: إنهم كانوا من جن نصيبين، وقيل: إنهم كانوا مشركين.

فأما قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾؛ «أن» مفتوحة لا غير.

قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾؛ فهذه الثلاث مكسورة لا غير، وقد اختلف القراء فيما في هذه السور غير هذه الحروف الثلاث:

فقال بعضهم: «وأنه وأنا» فأما عاصم فروى عنه أبو بكر بن عياش مثل قراءة نافع ومن تابعه، وروى حفص بن سليمان عن الفتح فيما قرأه أبو بكر بالكسر، والذى يختاره النحويون قراءة نافع ومن تابعه في هذه الآية عندهم ما كان محمولاً على الوحي فهو «أنه» بفتح «أن»، وما كان من قول الجن فهو مكسور معطوف على قوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾، وعلى هذه القراءة يكون المعنى: وقالوا: إنه تعالى جد ربنا، وقالوا: إنه كان يقول سفيهنا.

ومن فتح فذكر بعض النحويين: إنه معطوف على الهاء؛ المعنى عنده: فآمنا به وبأنه تعالى جد ربنا، وكذلك ما بعد هذا عنده، وهذا رديء في القياس. لا يعطف على الهاء المكنية المخفوضة إلا بإظهار الخافض، ولكن وجهه أن يكون محمولاً على معنى: آمنا به، لأن معنى: «آمنا به» صدقناه وعلمناه، ويكون المعنى: وصدقنا أنه تعالى جد ربنا.

وتأويل ﴿تَعَالَى جدُّ رَبِّنَا﴾ تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبةً أو ولداً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾؛ كان أهل الجاهلية إذا مرت جماعة منهم بوادٍ يقولون: نعوذ بعزيز هذا الوادي من مردة الجن وسفهائهم.

ومعنى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ فزادوهم ذلة وضعفاً.

ويجوز -والله أعلم- أن الإنس الذين كانوا يستعيذون بالجن زادوا الجن رهقاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾؛ أي: كنا نسمع، فالآن حين حاولنا الاستماع ورمينا بالشهب، وهي الكواكب.

و﴿رَصَداً﴾؛ أي: حفظة تمنع من الاستماع.

وقيل: إن الانقضاض الذي رميت به الشياطين حدث بعد مبعث النبي -عليه السلام- وهو أحد آياته.

﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾؛ المعنى: إنا لا ندري بحدوث رجم الكواكب الصلاح في ذلك لأهل الأرض أو غيره.

وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾؛ ﴿قِدَداً﴾: متفرقون، أي: كنا جماعات متفرقين، مسلمين وغير مسلمين.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ﴾؛ هذا تفسير قولهم: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾، والقاسطون: الجائرون.

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾؛ يعني: قصدوا طريق الحق والرشد، ولا أعلم أحداً قرأ في هذه السورة: «رُشْداً»، والرُّشْد والرَّشَد يجوز في العربية، إلا أن أواخر الآي فيما قبل الرشد وبعده على الفتح، مبني على «فَعَل»، فأواخر الآي أن يكون على هذا اللفظ وتستوي أحسن، فإن ثبتت في القراءة بها رواية فالقراءة بها جائزة، ولا يجوز أن تقرأ بما يجوز في العربية إلا أن تثبت بذاك رواية، وقراءة عن إمام يقتدى بقراءته، فإن اتباع القراءة السنة، وتتبع الحروف الشواذ والقراءة بها بدعة.

قوله: ﴿وَأَمَّا القَاسِطُونَ﴾؛ يقال: قَسَط الرجل: إذا جار، وأقسط: إذا عدل.

وقوله: ﴿وَأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ وهذا

تفسيره: لو استقاموا على الطريقة التي هي طريق الهدى لأسقيناهم ماء غدقاً، والغدق: الكثير.

ودليل هذا التفسير قوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦]؛ وكقوله: ﴿لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[المائدة: ٦٦]؛ وقد قيل: إنه يعنى به: لو استقاموا على طريقة الكفر.

ودليل هذا التفسير عندهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[الزخرف: ٣٣].

والذي يختار وهو أكثر التفسير: أن يكون يعني بالطريقة طريق الهدى، لأن الطريقة معرفة بالألف واللام، والأوجب أن تكون طريقة الهدى -والله أعلم-.

وقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم بذلك.

وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾؛ معناه: -والله أعلم- عذاباً شاقاً.

وقيل: صخرة في جهنم – وهي في اللغة: -والله أعلم- طريقة شاقة من العذاب. يقال: قد وقع القوم في صعود وهبوط، إذا كانوا في غير استواء وكانوا في طريقة شاقة، ويقرأ: «لأسقيناهم ماء غَدِقاً»، والغَدْق المصدر، والغَدِق: اسم الفاعل، تقول: «غَدَق يَغْدِق غَدْقاً فهو غَدِق»، إذا كثر الندى في المكان أو الماء.

وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾؛ معناه: الأمر بتوحيد الله في الصلوات.

وقيل: المساجد مواضع السجود من الإنسان: الجبهة والأنف واليدان والركبتان والرجلان.

و«أن» ههنا يصلح أن يكون في موضع نصب ويصلح أن يكون في موضع جر؛ والمعنى: لأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، فلما حذفت اللام صار الموضع موضع نصب، ويجوز أن يكون جراً وإن لم تظهر اللام، كما تقول العرب: «وبلد ليس به أنيس» تريد رب بلد.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾؛ ويقرأ: «لُبَداً»، ويجوز: «لُبْداً».

والمعنى: أن النبي ﷺ لما صلى الصبح بذات نخلة كادت الجن -لما سمعوا القرآن وتعجبوا منه - أن يسقطوا على النبي ﷺ. وقيل: كادوا يعنى به جميع الملأ التي تظاهرت على النبي ﷺ.

ومعنى «لِبَد» يركب بعضه بعضاً، وكل شيء ألصقته بشيء إلصاقاً شديداً فقد لبدته، ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التي تفرش.

فأما من قرأ ﴿لِبَداً﴾ فهو جمع: «لِبْدَة ولِبَد»، ومن قرأ: «لُبَداً» فهو جمع: «لُبْدَة ولُبَد»، و«لُبْدَة ولِبْدَة» في معنى واحد. ومعنى من قرأ «لُبَّداً» فهو جمع: «لابد ولُبَّدٍ»، مثل: «رَاكِع ورُكَّع، وغاز وغُزَّى».

قوله: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾؛ أي: منجى إلا أن اشتقاقه من اللحد، وهو مثل ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً﴾[التوبة: ٥٧]، فالملتحد: من جنس المدخل.

ونصب ﴿إِلاَّ بَلاغاً﴾ على البدل من قوله: ﴿مُلْتَحَداً﴾؛ المعنى: ولن أجد من دونه منجى إلا بلاغاً؛ أي: لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به.

وقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾؛ أي: بعداً، كما قال: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾.

قوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾؛ هذه الآية توجب على من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة وموت وغير ذلك أن قد كفر بما في القرآن، وكذلك قوله: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[النمل: ٦٥]، والاستثناء بقوله: ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾، معناه: أنه لا يظهر على غيبه إلا الرسل، لأن الرسل يستدل على نبوتهم بالآيات المعجزات، وبأن يخبروا بالغيب فيعلم بذلك أنهم قد خالفوا غير الأنبياء.

ثم أعلم -عز وجل- أنه يحفظ ذلك بأن يسلك ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾؛ إذا نزل الملك بالوحي أرسل الله معه رصداً يحفظون الملك من أن يأتي أحد من الجن فيستمع الوحي فيخبر به الكهنة فيخبروا به الناس فيسألوا الأنبياء، فأعلم الله أنه يسلك من بين يدي الملك ومن خلفه رصداً.

﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ فيجوز أن يكون ليعلم النبي ﷺ أن الرسالة أتته ولم تصل إلى غيره.

ويجوز أن يكون -والله أعلم- ليعلم الله أن قد أبلغوا رسالاته، وما بعده يدل على هذا

وهو قوله: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾؛ فهذا المضمر في ﴿وَأَحْصَى﴾ لله -عز وجل- لا لغيره.

ونصب ﴿عَدَداً﴾ على ضربين؛ على معنى: وأحصى كل شيء في حال العدد، فلم تخف عليه سقوط ورقة ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب يابس، ويجوز أن يكون ﴿عَدَداً﴾ في موضع المصدر المحمول على معنى: وأحصى، لأن معنى أحصى عد كل شيء عدداً.

* * *

سورة المزمل

مكية ما خلا آيتين من آخرها مدنية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

هذا الخطاب للنبي -عليه السلام-، وقيل: إنه نزل عليه هذا قطيفة.

والمزمل: أصله: المتزمل، ولكن التاء تدغم في الزاي لقربها منها، يقال: «تزمل فلان» إذا تلفف بثيابه، وكل شيء لفف فقد زمل، قال امرؤ القيس [من الطويل]:

كَأَنَّ أَبانا في أَفانينِ وَدقِهِ　　كَبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ

وقيل: إنه كان متزملاً في حال هيئة الصلاة.

قوله: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾؛ فالمعنى: -والله أعلم- أن ﴿نِصْفَهُ﴾ بدل من ﴿اللَّيْلَ﴾ كما تقول: ضربت زيداً رأسه، فإنما ذكرت زيداً لتؤكد الكلام، وهو أوكد من قولك: «ضربت رأس زيداً».

فالمعنى: قم نصف الليل إلا قليلاً، أو انقص من النصف أو زد على النصف.

وذكر ﴿أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ بمعنى إلا قليلاً ولكنه ذكر مع الزيادة، فالمعنى: قم نصف الليل أو انقص من نصف الليل أو زد على نصف. هذا -والله أعلم- قبل أن يقع فرض الصلوات الخمس.

ومعنى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾؛ بينه تبييناً.

والتبيين: لا يتم بأن يعجل في القرآن، وإنما يتم بأن تبين جميع الحروف وتوفي حقها في الإشباع.

قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾؛ جاء في التفسير: أنه يثقل العمل به، لأن الحلال والحرام والصلاة والصيام وجميع ما أمر الله به أن يعمل، ونهى عنه، لا يؤديه أحد إلا بتكلف ما يثقل عليه.

ويجوز على مذهب أهل اللغة أن يكون معناه: إنه قول له وزن في صحته وبيانه ونفعه كما تقول: هذا كلام رصين، وهذا قول له وزن، إذا كنت تستجيده وتعلم أنه وقع موقع الحكمة والبيان.

قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً﴾، وتقرأ: ﴿وِطَاءً﴾.

﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ ساعات الليل كلها، كلما نشأ منه أي: كل ما حدث منه فهو ناشئة، ومعنى ﴿هِيَ أَشَدُّ وِطَاءً﴾ أي: أشد مواطأة لتقلب السمع.

ومن قرأ ﴿وَطْئاً﴾ فمعناه: هي أبلغ في القيام وأبين في القول.

ويجوز أن يكون ﴿أَشَدُّ وَطْئاً﴾ أغلظ على الإنسان من القيام بالنهار، لأن الليل جعل ليسكن فيه.

وقيل: ﴿أَشَدُّ وَطْئاً﴾ أي: أبلغ في الثواب، لأن كل مجتهد فثوابه على قدر اجتهاده.

قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾؛ معناه: فراغاً طويلاً ومتصرفاً طويلاً.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: إن فاتك شيء من الليل فلك في النهار فراغ.

وقرئت «سبخاً» بالخاء معجمة، والقراءة بالحاء غير معجمة، ومعنى «سبخاً» صحيح في اللغة، يقال للقطعة من القطن سبخة، ويقال: سبخت القطن بمعنى نفشته، ومعنى نفشته وسعته، فالمعنى على ذلك: إن لك في النهار توسعاً طويلاً، ومعناه قريب من معنى السبح.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾؛ المعنى: واذكر اسم ربك بالنهار.

ومعنى ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ انقطع إليه في العبادة ومن هذا قيل لمريم -عليها السلام-: البتول؛ لأنها انقطعت إلى الله -جل ثناؤه- في العبادة، والأصل في المصدر في «تَبَتَّل»: «تَبتلْتُ تَبَتيلا»، و«بَتَّلْتُ تبتيلاً»، فـ﴿تَبْتِيلاً﴾ محمول على معنى: تبتل إليه تبتيلاً.

قوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾: أي: اتخذه كفيلاً بما وعدك.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾؛ هذا يدل -والله أعلم- قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال.

وقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ ومثله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾[المدثر: ١١].

فإن قال قائل: ما مجاز ﴿ذَرْنِي﴾، والله -عز وجل- يفعل ما يشاء، لا يحول بينه وبين إرادته حائل؟

فالجواب في ذلك: أن العرب إذا أرادت أن تأمر الإنسان بأن له همة بأمر أو بإنسان تقول: «دعني وزيداً»، وليس أنه حال بينه وبين زيد أحد، ولكن تأويله: لا تهتم بزيد فإني أكفيكه.

وقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً﴾؛ الأنكال: واحدها: «نكل».

وجاء في التفسير: أنه ههنا قيود من نار.

﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾؛ طعامهم الضريع كما قال -عز وجل-: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾[الغاشية: ٦] وهو الشبرق، وهو شوك كالعوسج.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾؛ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب متعلق بقوله ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً﴾، أي: ينكل بالكافر ويعذبهم يوم ترجف الأرض والجبال، وترجف وتزلزل وتحرك أغلظ حركة.

﴿وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾؛ والكثيب: جمعه: «الكثبان»، وهي قطع العظام من الرمل.

ومعنى: ﴿مَهِيلاً﴾ سائلاً قد سيل، وأصل: «مهيل»: «مهيول»، يقال: «تراب مهيل، وتراب مهيول» أي: مصبوب مسيل، والأكثر: «مهيل»، وإنما حذفت الواو لأن الياء تحذف منها الضمة في «مهيول» فتسكن هي والواو وتحذف الواو لالتقاء الساكنين، وقد شرحنا هذا في مثل هذا الموضع أكثر من هذا الشرح، واختصرنا على ما سلف لاختلاف النحويين فيه، وأنه يطول شرحه في هذا الكتاب.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾؛ الوبيل: الثقيل الغليظ جداً، ومن هذا قيل للمطر الغليظ العظيم: «وابل».

وقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً﴾؛ المعنى: فكيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم، أي: بأي شيء تحصنون من عذاب الله في يوم من هوله يشيب فيه الصغير من غير كبر وتذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكرى وما هم بسكرى ولكن عذاب الله شديد.

ثم وصف من هول ذلك اليوم أن قال ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي: السماء تنشق به كما قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾[الانشقاق: ١].

وقيل: في التفسير: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي: السماء مثقلة بالله -عز وجل-.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾؛ فمن قرأ «نصفه» بالنصب و «ثلثه» فهو بين حسن، وهو تفسير مقدار قيامه لأنه لما قال: ﴿أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ كان نصفه مبيناً لذلك، ومن قرأ: «ونصفِهِ وثلثِهِ» فالمعنى: وتقوم أدنى من نصفه ومن ثلثه.

وقوله: ﴿مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ ولم يقل: «منفطرة»، ومنفطرة: جائز وعليه جاء: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[الانفطار: ١]، ولا يجوز أن يقرأ في هذا الموضع السماء منفطرة لخلاف المصحف.

والتذكير على ضربين:

أحدهما: على معنى السماء؛ معناه: السقف قال الله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾. والوجه الثاني: على قوله: «امرأة مرضع». أي: على جهة النسب؛ المعنى: السماء ذات انفطار، كما تقول امرأة مرضع أي: ذات رضاع.

وقوله: ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾؛ النعمة: التنعيم، والنعمة: اليد الجميلة عند الإنسان، والصنع من الله -تعالى-.

ولو قرئت: «أولي النِّعمة» لكان وجهاً، لأن النعم عليهم يكونون مؤمنين وغير مؤمنين، قال الله -عز وجل-: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة: ٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾؛ معناه: خيراً لكم من متاع الدنيا.

و﴿خَيْراً﴾ منصوب مفعول ثان لـ﴿تَجِدُوهُ﴾، ودخلت «هو» فصلاً. وقد فسرنا ذلك فيما سلف من الكتاب، ولو كان في غير القرآن لجاز: «تجدوه هو خير» فكنت ترفع بـ«هُوَ»، ولكن النصب أجود في العربية ولا يجوز في القرآن غيره.

* * *

سورة المدثر

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾؛ القراءة بالتشديد، والأصل: «المتدثر»، والعلة فيها كالعلة في المزمل، وتفسيرها كتفسير المزمل. وقد رويت «المتدثر» -بالتاء-.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: صفه بالتعظيم وأنه أكبر، ودخلت الفاء على معنى جواب الجزاء؛ المعنى: قم فأنذر أي: قم فكبر ربك ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ مثلها.

وتأويل ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: لا تكن غادراً، ويقال: للغادر دنس الثياب، ويكون ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: نفسك فطهر، وقيل: ﴿فَطَهِّرْ﴾ أي: ثيابك فقصر لأن تقصير الثواب، أبعد من النجاسة، وأنه إذا انجر على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه.

﴿وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ بكسر الراء، وقرئت بضم الراء، ومعناها واحد، وتأويلهما اهجر عبادة الأوثان.

والرجز في اللغة: العذاب، قال الله -تعالى-: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾[الأعراف: ١٣٤]، فالتأويل على هذا: ما يؤدي إلى عذاب الله فاهجره.

﴿وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾؛ أي: لا تعط شيئاً مقدراً أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه، و﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ حال متوقعة منه، وهذا للنبي ﷺ خاصة، وليس على الإنسان إثم أن يهدي هديةً يرجو بها ما هو أكثر منها، والنبي ﷺ أدبه الله بأشرف الآداب وأجل الأخلاق.

وقوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾؛ الناقور: الصور.

وقيل في التفسير: إنه يعنى به النفخة الأولى.

و﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ يرتفع بقوله: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ﴾؛ المعنى: فذلك يوم عسير يوم ينفخ في الصور، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يجوز أن يكون رفعاً، ويجوز أن يكون نصباً، فإذا كان رفعاً فإنما بني على الفتح لإضافته إلى «إذ» لأن «إذ» غير متمكنة، وإذا كان نصباً فهو على معنى: فذلك يوم عسير في يوم ينفخ فيه الصور.

وقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾؛ قد فسرنا معنى «ذرني» في المزمل، و﴿وَحِيداً﴾ منصوب على الحال، وهو على وجهين:

أحدهما: أن يكون وحيداً من صفة الله -عز وجل-؛ المعنى: ذرني ومن خلقته وحدي

لم يشركني في خلقه أحد، ويكون وحيداً من صفة المخلوق، ويكون المعنى: ذرني ومن خلقته وحده لا مال له ولا ولد.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً﴾؛ تقديره: مال غير منقطع عنه، وقيل: ألف دينار.

﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ أي: شهود معه لا يحتاجون إلى أن يتصرفون ويغيبون عنه.

وهذا قيل: يعنى به الوليد بن المغيرة، كان له بنون عشرة وكان موسراً.

وقوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ أي: سأحمله على مشقة من العذاب.

قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، معنى ﴿فَقُتِلَ﴾ هنا لعن، ومثله: ﴿قُتِلَ الخَرَّاصُونَ﴾[الذاريات: ١٠].

وكان الوليد بن المغيرة قال لرؤساء أهل مكة: قد رأيتم هذا الرجل -يعني النبي ﷺ- وعلمتم ما فشا من أمره، فإن سألكم الناس عنه أأنتم قائلون؟ قالوا: نقول: هو مجنون، قال: إذن يخاطبوه فيعلموا أنه غير مجنون، قالوا: فنقول: إنه شاعر، قال: هم العرب يعلمون الشعر ويعلمون أن ما أتى به ليس بشعر، قالوا: فنقول: إنه كاهن، قال: الكهنة لا تقول إنه يكون كذا وكذا -إن شاء الله-، وهو يقول: إن شاء الله، فقالوا: قد صبأ الوليد.

وجاء أبو جهل ابن أخيه، فقالوا: إن القوم يقولون: إنك قد صبوت، وقد عزموا على أن يجمعوا لك مالاً فيكون عوضاً مما تقدر أن تأخذ من أصحاب محمد، فقال: والله ما يشبعون، فكيف أقدر أن آخذ منهم مالاً، وإني لمن أيسر الناس، ومر به جماعة فذكروا له ما أتى به النبي ﷺ ففكر وعبس وجهه وبسر، أي: نظر بكراهة شديدة فقال: ما هذا الذي أتى به محمد إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل.

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ﴾؛ أي: ما هذا إلا قول البشر.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾؛ ﴿سَقَرَ﴾ لا ينصرف لأنها معرفة، وهي مؤنثة، وسقر: اسم من أسماء جهنم.

ثم أعلم الله -تعالى- شأن سقر في العذاب فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾؛ تأويله: وما أعلمك أي شيء سقر فقال: ﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾؛ البشر: جمع بشرة، أي: تحرق الجلد حتى يسود.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؛ أي: على سقر تسعة عشر ملكاً، ووصفهم الله في موضع آخر

فقال: ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦]؛ الذي حكاه البصريون: «تسعة عشر» بفتح العين في «عشر»، وقد قرئت بتسكين العين والقراءة بفتحها، وإنما أسكنها لكثرة الحركات، وذلك أنهما اسمان جعلا اسماً واحداً، ولذلك بنيا على الفتح، وقرأ بعضهم: «تسعَةُ عشر» فأعربت على الأصل، وذلك قليل في النحو.

والأجود: «تسعةَ عشر» على البناء على الفتح، وفيها وجه آخر «تسعةُ أعشر» وهي شاذة، كأنها على جمع: «فعيل وأفعل»، مثل: «يمين وأيمن».

وقوله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: محنة، لأن بعضهم قال: «بعضنا يكفي هؤلاء».

وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ أي: يعلمون أن ما أتى به النبي -عليه السلام- موافقاً لما في كتبهم.

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾؛ لأنهم كلما صدقوا بما يأتي في كتاب الله -عز وجل- زاد إيمانهم.

﴿وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يشكون.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾؛ جاء في التفسير: أن النار في الدنيا تذكر بالنار في الآخرة.

وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾، ويقرأ ﴿إِذْ دَبَرَ﴾، وكلاهما جيد في العربية، يقال: «دَبَر الليل وأدبر»، وكذلك: «قبل الليل وأقبل»، وقد قرئت أيضاً ﴿إذا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ بإثبات الألف فيهما.

وقوله: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الكُبَرِ * نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾؛ هذه الهاء كناية عن النار، أي: إنها لكبيرة في حال الإنذار.

ونصب ﴿نَذِيراً﴾ على الحال، وذكر ﴿نَذِيراً﴾ لأن معناه: معنى العذاب، ويجوز أن يكون التذكير على قولهم: «امرأة طاهر وطالق»، أي: ذات طلاق، وكذلك: نذير ذات إنذار، ويجوز: أن يكون ﴿نَذِيراً﴾ منصوباً معلقاً بأول السورة على معنى: «قم نذيراً للبشر».

وقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾؛ أي: أن يتقدم فيما أمر به أو يتأخر، فقد أنذرتم.

قوله -عز وجل-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾؛ قيل: أصحاب اليمين الأطفال لأنهم لا يسألون، تفضل الله عليهم بأن أعطاهم الجنة، وكل نفس رهينة بعملها إما خلصها وإما أوبقها، والتخليص مع عملها بتفضل الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ﴾؛ أي: نتبع الغاوين.

وقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾؛ يعني الكفار، وفي هذا دليل أن المؤمنين تنفعهم شفاعة بعضهم لبعض.

وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ منصوب على الحال.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ﴾؛ وقرئت «مستَنْفَرة» قال الشاعر[1]:

ارْبُطْ حِمارَكَ إنه مُسْتَنْفِرٌ   في إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ

وقوله: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾؛ القسورة: الأسد، وقيل أيضاً: القسورة: الرماة الذين يتصيدونها.

وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾؛ قيل: كانوا يقولون: كان كل من أذنب من بني إسرائيل يجد ذنبه مكتوباً من غد على بابه، فما بالنا لا نكون كذلك.

وقد جاء في القرآن تفسير طلبهم في سورة بني إسرائيل في قوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾[الإسراء: ٩٣].

وقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾؛ أي: هو أهل أن يتقى عقابه، وأهل أن يعمل بما يؤدي إلى مغفرته.

* * *

---

(١) هو: نافع بن لقيط الفقعسي. انظر: المعاني الكبير (٥/٥).

سورة القيامة

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

لا اختلاف بين الناس أن معناه: أقسم بيوم القيامة.

واختلفوا في تفسير«لا»، فقال بعضهم: «لا» لغو متصل بعضه ببعض فجعلت «لا» ههنا بمنزلتها في قوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾[الحديد: ٢٩].

وقال بعض النحويين: «لا» رد لكلامهم، كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة وقوله: ﴿إِنَّكُم مَبْعُوثُونَ﴾[هود: ٧]؛ دل على الجواب.

قوله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ﴾؛ المعنى: بلى لنجمعنكم قادرين؛ المعنى: أقسم بيوم القيامة والنفس اللوامة لنجمعنهما قادرين على أن نسوي بنانه.

وجاء في التفسير: بلى نقدر على أن نجعله كخف البعير، والذي هو أشكل بجمع العظام بلى نجمعها قادرين على تسوية بنانه على ما كانت، وإن قل عظامها وصغرت وبلغ منها البلى.

«والنفس اللوامة» تفسيرها: أن كل نفس تلوم صاحبها في الآخرة إن كان عمل شراً لامته نفسه وإن كان عمل خيراً لامته على ترك الاستكثار منه.

وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾؛ معناه: أنه يسوف بالتوبة، ويقدم الأعمال السيئة.

ويجوز -والله أعلم- أن يكون معناه: ليكفر بما قدامه، ودليل ذلك قوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾ فيفجر أمامه على هذا، وهو -والله أعلم- يكذب بما قدامه من البعث.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ﴾ ويقرأ ﴿بَرَقَ البَصَرُ﴾، فمن قرأ ﴿بَرِقَ﴾ فمعناه: فزع وتحير، ومن قرأ ﴿بَرَقَ﴾ فهو من بَرَق يَبْرُق، من بريق العينين.

وقوله: ﴿وَخَسَفَ القَمَرُ﴾؛ أي: ذهب ضوء القمر.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾؛ أي: جمعاً في ذهاب نورهما.

﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ﴾ ويقرأ: ﴿أَيْنَ المَفِرُّ﴾ بكسر الفاء، فمن فتح فهو بمعنى أين الفرار، ومن كسر فعلى معنى: أين مكان الفرار، والمفعل من مثل «جلست»

بفتح العين، وكذلك المصدر، تقول: «جلست مجلَساً» بفتح اللام، بمعنى: جُلوساً، فإذا قلت: «جَلَست مجلِساً» فأنت تريد المكان.

ثم أعلم -تعالى- أنه لا حرز لهم ولا محيص فقال: ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ﴾؛ الوزر في كلام العرب: الجبل الذي يلجأ إليه، هذا أصله، وكل ما التجأت إليه وتخلصت به فهو وزر.

وقوله: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾؛ معناه: بل الإنسان تشهد عليه جوارحه، قال الله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤]، وقال في موضع آخر: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[فصلت: ٢٠] فأعلم الله أن هذه الجوارح التي يتصرفون بها شواهد عليهم.

قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾؛ ولو أدلى بكل حجة عنده.

وجاء في التفسير: «المعاذير»: الستور، واحدها: «معذار».

وقوله: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ كان جبريل -عليه السلام- إذا نزل بالوحي على النبي ﷺ تلاه النبي -عليه السلام- عليه كراهة أن ينفلت منه، فأعلم الله -عز وجل- أنه لا ينسيه إياه، وأنه يجمعه في قلبه فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾؛ أي: إن علينا أن نقرئك فلا تنسى، وعلينا تلاوته عليك.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾؛ أي: لا تعجل بالتلاوة إلى أن تقرأ عليك ما ينزل في وقته.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾؛ أي: إن علينا أن ننزله قرآناً عربياً غير ذي عوج، فيه بيان للناس.

قوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ نضرت بنعيم الجنة والنظر إلى ربها، قال الله -عز وجل-: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[المطففين: ٢٤].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ ﴿بَاسِرَةٌ﴾ كريهة مقطبة، قد أيقنت بأن العذاب نازل بها.

ومعنى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ توقن أن يفعل بها داهية من العذاب.

وقوله: ﴿كَلاَّ﴾: ردع وتنبيه، ومعناه: ارتدعوا عما يؤدي إلى العذاب.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾؛ ذكرهم الله بصعوبة أول أيام الآخرة عند بلوغ النفس الترقوة.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؛ أي: من يشفي من هذا الحال، وهذا -والله أعلم- يقوله القائل عند

اليأس، أي: من يقدر أن يرقي من الموت.

وقيل في التفسير: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ من يرقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ﴾؛ أي: وأيقن الذي تبلغ روحه إلى تراقيه أنه مفارق للدنيا.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ عند الموت تلتصق الساق بالساق، قيل: والتفت آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة.

وقوله: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى﴾؛ يعنى به أبو جهل بن هشام.

وجاء في التفسير: إن لكل أمة فرعوناً، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾؛ معناه: يتبختر، مأخوذ من «المطا» وهو الظهر.

وقوله: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾؛ معناه: -والله أعلم- وَلِيَك المكروه يا أبا جهل، والعرب تقول: «أولى لفلان» إذا دعت عليه بالمكروه.

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؛ أي: أن يترك غير مأمور وغير منهي.

ثم دلهم على البعث بالقدرة على الابتداء فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ وقرئت ﴿تُمْنَى﴾، فمن قرأ ﴿تُمْنَى﴾ فللفظ «النطفة»، ومن قرأ ﴿يُمْنَى﴾ فللفظ: «مني».

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾، ثم قررهم فقال: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾.

* * *

سورة الإنسان

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً﴾.

المعنى: ألم يأت على الإنسان حين من الدهر، وقد كان شيئاً إلا أنه كان تراباً وطيناً إلى أن نفخ فيه الروح، فلم يكن قبل نفخ الروح فيه شيئاً مذكوراً.

وجوز أن يكون يعنى به جميع الناس، ويكون المعنى: أنهم كانوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن صاروا شيئاً مذكوراً.

ومعنى ﴿هَلْ أَتَى﴾: قد أتى على الإنسان، أي: ألم يأت على الإنسان حين من الدهر.

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾؛ ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط مني ودم، ثم ينقل من حال إلى حال.

وواحد «الأمشاج»: «مشج».

ومعنى ﴿نَبْتَلِيهِ﴾: نختبره يدل عليه: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾؛ أي: جعلناه كذلك لنختبره.

قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾؛ معناه: هديناه الطريق إما لشقاوة، وإما لسعادة.

وقوله: ﴿سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾؛ الأجود في العربية ألا يصرف «سلاسل»، ولكن لما جعلت رأس آية صرفت ليكون آخر الآي على لفظ واحد.

قوله: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾؛ الأبرار: واحدهم بر.

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾؛ يجوز في اللغة: أن يكون طعم الطيب فيها الكافور.

وجائز أن يمزج بالكافور، فلا يكون في ذلك ضرراً لأن أهل الجنة لا يمسهم فيما يأكلون ويشربون ضرر ولا نصب.

والكأس في اللغة: الإناء إذا كان فيه الشراب، فإذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأساً،

قال الشاعر[١] [من الوافر]:

صَدَدتِ الكَأسَ عَنّا أُمَّ عمرٍو وَكانَ الكَأسُ مَجراها اليَمينا

وقوله: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾؛ ﴿عَيْناً﴾ جائز أن يكون من صفة الكأس، والأجود أن يكون المعنى: من عين.

قوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾؛ معناه: تجري لهم تلك العين كما يحبون.

قوله: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾؛ معناه: يبلغ أقصى المبالغ فيه.

قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً﴾؛ هذه الهاء تعود على الطعام؛ المعنى: يطعمون الطعام أشد ما تكون حاجتهم إليه للمسكين، ووصفهم الله بالأثرة على أنفسهم.

﴿وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾؛ الأسير: قيل كان في ذلك الوقت من الكفار، وقد مدح من يطعم الأسير وهو كافر، فكيف بأسارى المسلمين.

وهذا يدل على أن في إطعام أهل الحبوس ثواباً جزيلاً، وأهل الحبوس أُسَرَاء.

قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾؛ المعنى: يقولون إنما نطعمكم لوجه الله، أي: لطلب ثواب الله -عز وجل-.

وجائز أن يكونوا يطعمون ولا ينطقون هذا القول، ولكن معناهم في إطعامهم هذا، فترجم ما في قلوبهم، وكذلك: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾؛ العبوس: الذي يعبس الوجوه، وهذا مثل قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٤].

و﴿قَمْطَرِيراً﴾؛ يقال: يوم قمطرير ويوم قماطر، إذا كان شديداً غليظاً.

وجاء في التفسير: ان ﴿قَمْطَرِيراً﴾ معناه: تعبس فيجمع ما بين العينين وهذا سائغ في اللغة: يقال أقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها.

وقولها: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾؛ واحدتها: أريكة.

وجاء في التفسير: أنها من الحجال فيها الفرش وفيها الأسرة.

وفي اللغة: إن كل متكأ عليه فهو أريكة، ونصب ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ على الحال؛ المعنى: وجزاهم جنة في حال اتكائهم فيها وكذلك: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا﴾ وجائز أن تكون دانية نعتاً للجنة؛ المعنى: وجزاهم جنة دانية عليهم ظلالها.

---

(١) هو: عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ هذا كقوله -تعالى-: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[الحاقة: ٢٣]، وقيل: كلما أرادوا أن يقطعوا شيئاً منها ذلل لهم، ودنا منهم قعوداً كانوا أو مضطجعين أو قياماً.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ﴾؛ قرئت غير مصروفة، وهذا الاختيار عند النحويين البصريين، لأن كل جمع يأتي بعد ألفه حرفان لا ينصرف وقد فسرنا ذلك فيما سلف من الكتاب.

ومن قرأ: «قواريراً» فصرف الأول فلأنه رأس آية، وترك صرف الثاني لأنه ليس بآخر آية، ومن صرف الثاني اتبع اللفظ اللفظ لأن العرب ربما قلبت إعراب الشيء ليتبع اللفظ اللفظ، فيقولون: «هذا حجر ضب خرب»، وإنما الخرب من نعت الحجر، فكيف بما يترك صرفه، وجميع ما يترك صرفه يجوز صرفه في الشعر.

ومعنى ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾، أصل «القوارير» التي في الدنيا من الرمل، فأعلم الله أن فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما في داخلها.

ومعنى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾؛ أي: جعلت بكون الإناء على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه.

وقرئت: «قدِّروها تقديراً»؛ أي: جعلت لهم على قدر إرادتهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ أي: يجمع طعم الزنجبيل، والعرب تصف الزنجبيل، وهو مستطاب عندها جداً قال الشاعر[1][من المتقارب]:

كَأَنَّ القَرَنْفُلَ وَالزَّنجَبِيـ ـلَ بَاتَا بِفِيهَا وَأَرْياً مَشورا

فجائز أن يكون طعم الزنجبيل فيها، وجائز أن يكون مزاجها ولا غائلة له كما قلنا في الكافور.

وقوله: ﴿عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾؛ المعنى: يسقون عيناً، وسلسبيل اسم العين، إلا أنه صرف لأنه رأس آية.

وسلسبيل في اللغة: صفة لما كان في غاية السلاسة، فكأن العين -والله أعلم- سميت بصفتها.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾؛ أي: يخدمهم وصفاء مخلدون.

وتأويل مخلدين؛ أي: لا يجوز واحد منهم حد الوصافة أبداً هو وصيف، والعرب

(١) هو: الأعشى.

تقول للرجل الذي لا يشيب: «هو مخلد».

ويقال ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ مُجَلَّون عليهم الحلي، ويقال لجماعة الحلي الخَلَدَة.

وقوله: ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾؛ أي: هم في أحسن ألوانهم وصفائهم كاللؤلؤ المنثور.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾؛ جاء في التفسير أن ﴿وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ أنهم تسلم عليهم الملائكة.

وجاء أيضاً: تستأذن عليهم الملائكة، و﴿ثَمَّ﴾ يعنى به الجنة، والعامل في ﴿ثَمَّ﴾ معنى: «رأيت»؛ المعنى: وإذا رأيت ببصرك ثَمَّ، وقيل: المعنى: وإذا رأيت ما ثَمَّ رأيت نعيماً، وهذا غلط لأن «ما» موصولة بقوله: ﴿ثَمَّ﴾ على هذا التفسير، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن «رأيت» يتعدى في المعنى إلى «ثَمَّ».

وقوله: ﴿عَالِيهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ بإسكان الياء.

وقرئت: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بفتح الياء، وقرئت: «عليهم» بغير ألف، وهذة الثلاثة توافق المصحف وكلها حسن في العربية، وقرئ على وجهين غير هذه الثلاثة؛ قرئت: «عالِيَتُهم ثياب سندس» بالرفع والتأنيث، و«عالِيَتَهُم» بالنصب، وهذان الوجهان جيدان في العربية إلا أنهما يخالفان المصحف، ولا أرى القراءة بهما، وقراء الأمصار ليس يقرؤون بهما.

فأما تفسير إسكان «عاليْهم» بإسكان الياء، فيكون رفعه بالابتداء، ويكون خبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ ومن نصب فقال: «عاليَهم» بفتح الياء، فقال بعض النحويين: إنه ينصبه على الظرف، كما تقول: «فوقهم ثياب»، وهذا لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء. ولكن نصبه على الحال من شيئين:

أحدهما من الهاء والميم؛ المعنى: يطوف على الأبرار ولدان مخلدون عالياً الأبرار ثياب سندس، لأنه وقد وصف أحوالهم في الجنة فيكون المعنى: يطوف عليهم في هذه الحال هؤلاء.

ويجوز أن يكون حالاً من الولدان؛ المعنى: إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً في حال علو الثياب إياهم، فالنصب على هذا بين.

فأما ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ فرفع كقولك: «عليك مال» فترفعه بالابتداء، ويكون المعنى: وثياب سندس عليهم، وتفسير نصب «عاليتهم» ورفعها كتفسير «عاليهم».

والسندس الحرير، وقد قرئت: «خُضرٌ وخُضْرٍ»، فمن قرأ ﴿خُضْرٌ﴾ فهو أحسن لأنه

يكون نعتاً للثياب، فلفظ الثياب لفظ الجميع، وخضر لفظها لفظ الجمع.

ومن قرأ «خُضْرٍ» فهو من نعت السندس، السندس في المعنى راجع إلى الثياب.

وقرئت ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾؛ وهو الديباج الصفيق الغليظ الخشن.

وقرئت بالرفع والجر. فمن رفع فهو عطف على ﴿ثِيَابُ﴾؛ المعنى: عليهم إستبرق، ومن جر عطف على السندس، ويكون المعنى: عليهم ثياب من هذين النوعين ثياب سندس وإستبرق.

وقرئت على وجهين غير هذين الوجهين، كلاهما ضعيف في العربية جداً:

قرئت «وإستبراق وحلوا» بنصب «إستبراق» وهو في موضع الجر، ولم يصرف، قرأها ابن محيصن، وزعموا أنه لم يصرفه لأن إستبراق اسم أعجمي، وأصله بالفارسية: «إستبره»، فلما حول إلى العربية لم يصرف وهذا غلط لأنه نكرة، ألا ترى أن الألف واللام يدخلانه، تقول: السندس والإستبرق.

والوجه الثاني: «وإستبرق وحلوا» بطرح الألف، جعل الألف ألف وصل، وجعله مسمى بالفعل من البريق، وهذا خطأ لأن الإستبرق معروف معلوم أنه اسم نقل من العجمية إلى العربية كما سمي الديباج وهو منقول من الفارسية.

قوله -عز وجل-: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾؛ جاء في التفسير أنهم شربوه ضمرت بطونهم ورشحت جلودهم عرقاً كرائحة المسك.

وقيل: إنه طهور ليس برجس كخمر الدنيا.

وقوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾؛ أو ههنا أوكد من الواو، لأن الواو إذا قلت: «لا تطع زيداً وعمراً» فأطاع أحدهما كان غير عاص، لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال: «ولا تطع آثماً أو كفوراً» فـ«أو» قد دلت على أن كل واحد منهما أهل لأن يعصى، كما أنك إذا قلت: «لا تخالف الحسن أو ابن سيرين»، أو «اتبع الحسن أو ابن سيرين»، فقد قلت: هذان أهل أن يتبعا، وكل واحد منهما أهل، وقد فسرنا مثل هذا التفسير في غير هذا الحرف في أول سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾[البقرة: ١٧] إلى آخر الآية، وبعد ذلك ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾[البقرة: ١٩]، وتأويله: مثلهم، لأنك إن جعلت مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً، أو مثلهم بالصيب أو بهما جميعاً فأنت مصيب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾؛ الأصيل: العشي، يقال: قد أصلنا إذا دخلوا في الأصيل، وهو العشي.

قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾؛ ﴿أَسْرَهُمْ﴾ خَلْقهم، جاء في التفسير أيضاً: مفاصلهم.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ أي: لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله.

﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾؛ نصب «الظالمين» لأن قبله منصوباً؛ المعنى: يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين أعد لهم عذاباً أليماً، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيراً لهذا المضمر؟

وقرئت «والظالمون» ولا أرى القراءة بها من وجهين أحدهما خلاف المصحف، والآخر: إن كانت تجوز في العربية على أن يرفع «الظالمين» بالابتداء، والذي بعد «الظالمين» خبر الابتداء، فإن الاختيار عند النحويين البصريين النصب.

يقول النحويون: «أعطيت زيداً وعمراً أعددت له براً»، فيختارون النصب على معنى: «وبررت عمراً وأبر عمراً أعددت له براً»، فلا يختارون للقرآن إلا أجود الوجوه، وهذا مع موافقة المصحف.

* * *

سورة المرسلات

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو إسحاق: قوله -عز وجل-: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾.

جاء في التفسير: أنها الرياح أرسلت كعرف الفرس، وكذلك: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾، الرياح: تأتي بالمطر كما قال -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[الفرقان: ٤٨].

وقوله: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾؛ يعنى به الملائكة جاءت بما يفرق بين الحق والباطل.

وكذلك ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾؛ يعنى الملائكة.

وقيل: في تفسير ﴿وَالْمُرْسَلاتِ﴾ إنها الملائكة أرسلت بالمعروف.

وقيل: إنها لعرف الفرس.

وقيل: - ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ الملائكة تعصف بروح الكافر، والباقي إلى آخر الآيات يعنى به الملائكة أيضاً.

وفيه وجه ثالث، ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ يعنى به الرسل، ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾: الرياح، ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾: الرياح، ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾؛ على هذا التفسير الرسل أيضاً، وكذلك ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾.

وهذه كلها مجرورة على جهة القسم، وجواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾.

وقال بعض أهل اللغة: المعنى: ورب المرسلات، وهذه الأشياء كما قال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[الذاريات: ٢٣].

وقرئت: «عَرْفاً وعُرفَاً»؛ والمعنى واحد في العَرْف والعُرْف.

وقوله: ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾؛ وقرئت: «عُذُراً أو نُذُراً»، فمعناها المصدر، والعذْرُ والعُذارُ بمعنى واحد، ونصب ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ على ضربين:

أحدهما: مفعول على البدل من قوله ﴿ذِكْراً﴾؛ المعنى: فالملقيات عذراً أو نذراً. ويكون نصباً بذكراً، فالمعنى: فالملقيات إن ذكرت عذراً أو نذراً.

ويجوز أن يكون نصب ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ على المفعول له، فيكون المعنى: فالملقيات ذكراً للإعذار والإنذار.

وقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾؛ معناه: أذهبت وغطيت.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾؛ معناه: شقت كما قال -عز وجل-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾[الانشقاق: ١].

﴿وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ﴾؛ ذهب بها كلها بسرعة، يقال: «انتسفت الشيء» إذا أخذته كله بسرعة.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾؛ وقرئت: «وقتت» بالواو؛ والمعنى واحد، فمن قرأ ﴿أُقِّتَتْ﴾ بالهمز فإنه أبدل الهمزة من الواو لانضمام الواو، فكل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة جاز أن تبدل منها همزة، ومعنى «وقتت» جعل لها وقت وأجل.

قوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾؛ ثم بين فقال: ﴿لِيَوْمِ الفَصْلِ﴾؛ أي: أجلت القضاء فيما بينها وبين الأمم ليوم الفصل.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ ﴿وَيْلٌ﴾ مرفوع بالابتداء، و﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الخبر، ويجوز في العربية: «ويلا يومئذ» ولا يجيزه القراء لمخالفة المصحف.

قوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ﴾؛ على الاستئناف، ويقرأ ﴿ثُمَّ نُتْبِعْهُمْ﴾ بالجزم، عطف على ﴿نُهْلِكِ﴾، ويكون المعنى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ﴾ أي: أولاً وآخراً.

ومن رفع فعلى معنى: ثم نتبع الأول الآخر من كل مجرم.

قوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾؛ موضع الكاف نصب؛ المعنى: مثل ذلك نفعل بالمجرمين.

قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾؛ ﴿كِفَاتاً﴾ ذات جمع؛ المعنى: تضمهم أحياء على ظهورها، وأمواتاً في بطنها.

و﴿أَحْيَاءً﴾ منصوب بقوله ﴿كِفَاتاً﴾، يقال: «كفت الشيء أكفته» إذا جمعته وضممته.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت، يقال: «رسا الشيء يرسو» إذا ثبت، وشامخات: مرتفعات.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَاءً فُرَاتاً﴾، أي: عذباً.

قوله: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ يعني النار لأنهم كذبوا بالبعث والنشور والجنة والنار.

﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾؛ يعنى بالظل ههنا دخان جهنم.

ثم أعلم -عز وجل- أنه ليس بظليل ولا يدفع من لهب النار شيئاً فقال: ﴿لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾.

جاء في التفسير: أنه القصرُ من هذا القصور، وقيل: القصر جمع قصرةٍ، وهو الغليظ من الشجر، وقرئت «كالقَصَر» بفتح الصاد، جمع: «قصرة» أي: كأنها أعناق الإبل.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾؛ يقرأ: «جِمَالاتٌ وجُمَالاتٍ»، بضم الجيم وكسرها، يعني أن الشرر كالجمال السود، يقال للإبل التي هي سود تضرب إلى الصفرة: إبل صفر، فمن قرأ ﴿جِمَالاتٌ﴾ بالكسر فهو جمال، كما تقول: «بيوت وبيوتات» وهو جمع الجمع، ومن قرأ: «جُمَالاتٍ» بالضم فهو جمع: «جمالة»، وهو القلس من قلوس سفن البحر، ويقال كالقلس من قلوس الجسر.

ويجوز أن يكون جمع جَمَلٍ وجمالٍ وجمالات، كما قيل: رجال جمع رجل.

وقرئت ﴿جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ على جمع جمل وجِمالة كما قيل: حجر وحجارة، وذكر وذكارة، وقرئت «جُمالة صفر» على ما فسرنا في «جُمَالاتٍ».

وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؛ يوم القيامة له مواطن ومواقيت، فهذا من المواقيت التي لا يتكلمون فيها.

وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ﴾؛ أي: هذا يوم يفصل فيه بين أهل الجنة والنار وأهل الحق والباطل.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ ههنا إضمار القول؛ المعنى: إن المتقين في ظلال وعيون، وفواكه مما يشتهون يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾؛ إذا أمروا بالصلاة لم يصلوا.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فبأي حديث بعد القرآن الذي آتاهم فيه البيان، وأنه معجزة وهو آية قائمة، دليل على الإسلام مما جاء به النبي -عليه السلام-.

* * *

سورة النبأ

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

أصله: «عن ما يتساءلون» فأدغمت النون في الميم، لأن الميم تشرك النون في الغُنَّة في الأنف، وقد فسرنا لم حذفت الألف فيما مضى من الكتاب.

والمعنى: عن أي شيء يتساءلون، فاللفظ لفظ الاستفهام والمعنى تفخيم القصة كما تقول: أي شيء زَيْد.

ثم بيّن فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ العَظِيمِ﴾؛ قيل: هو القرآن، وقيل: عن البعث، وقيل: عن أمر النبي ﷺ، والذي يدل عليه قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾ يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث.

وقوله: ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾؛ وقرئت: «كلا ستعلمون» بالتاء، والذي عليه القراء: ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ بالياء، وهو أجود، والتاء تروى عن الحسن.

وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً﴾؛ وقرئت «مهداً»، وأكثر القراء يقرؤونها ﴿مِهَاداً﴾، والمعنى واحد، وتأويله: إنا ذللناها لهم حتى سكنوها وساروا في مناكبها.

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾؛ خلق الذكر والأنثى، وقيل: أزواجاً أي: ألواناً.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾؛ والسبات: أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه، أي: جعلنا نومكم راحة لكم.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾؛ أي: تسكنون فيه وهو مشتمل عليكم.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾؛ أي: سبع سماوات.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾؛ أي: جعلنا فيها الشمس سراجاً، وتأويل ﴿وَهَّاجاً﴾: وقاداً.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾؛ المعصرات: السحائب لأنها تعصر الماء، وقيل: المعصرات كما يقال: «قد أجز الزرع فهو مجز» إذا صار إلى أن يمطر. وقد أعصر، ومعنى «ثجاج»: صباب.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَباً وَنَبَاتاً﴾؛ كل ما حصد فهو حب، وكل ما أكلته الماشية من الكلأ فهو نبات.

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾؛ أي: وبساتين ملتفة.

فأعلم الله -عز وجل- ما خلق وأنه قادر على البعث فقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾؛ بدل من ﴿يَوْمَ الفَصْلِ﴾، إن شئت كان مفسراً ليوم الفصل، وقد فسرنا «الصور» فيما مضى.

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾؛ أي: تأتي كل أمة مع إمامهم.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾؛ أي: تشققت كما قال -عز وجل-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[الانفطار: ١]، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾[الانشقاق: ١]؛ أي: يرصد أهل الكفر ومن حق عليه العذاب، ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾[الملك: ٨]، فلا يجاوزها من حقت عليه كلمة العذاب.

ومعنى ﴿مَآباً﴾: إليها يرجعون.

وقوله: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾؛ و«لبثين»، يقال: لبث الرجل فهو لابث، ويقال: «هو لبث بمكان كذا» أي: صار اللبث شأنه.

والأحقاب واحدها: «حقب»، والحقب: ثمانون سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، وكل شهر ثلاثون يوماً، وكل يوم مقداره ألف سنة من سني الدنيا.

والمعنى: أنهم يلبثون أحقاباً لا يذوقون في الأحقاب برداً ولا شراباً، وهم خالدون في النار أبداً كما قال -عز وجل-: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[النساء: ١٦٩].

ومعنى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً﴾؛ قيل: نوماً، وجائز أن يكون لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم.

﴿إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً﴾؛ أي: لا يذوقون فيها إلا حميماً، وهو في غاية الحرارة.

«والغساق» قيل: ما يغسق من جلودهم، أي: يسيل، وقيل: «الغساق» الشديد البرد.

﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾؛ أي: جوزوا وفق أعمالهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم يحاسبون، ويرجون ثواب حساب.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً﴾ هذا أكثر القراءة، وقد قرئت ﴿كِذَاباً﴾ بالتخفيف، و﴿كِذَّاباً﴾ بالتشديد أكثر، وهو في مصادر فعلت أجود من فعال، قال الشاعر:

حوج الحاجَةُ والحائِجَةُ: المَأْرَبَةُ، معروفة. وقوله تعالى: ﴿ولِتَبْلُغُوا عليها حاجةً في صدوركم﴾؛ قال ثعلب: يعني الأسفارَ، وجمعُ الحاجة حاجٌ وحِوَجٌ؛ قال الشاعر[1]:

لَقَدْ طالَ ما ثَبَّطْتَني عن صَحابَتي ... وعَنْ حِوَجٍ قَضاؤُها مِنْ شِفَائِيَا

من قضيت قضاء. ومثل: «كِذَابا» بالتخفيف قول الشاعر[2]:

فصدَقْتُها وكَذَبْتُها ... والمَرْءُ يَنْفَعُه كِذابُهْ

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتاباً﴾؛ ﴿وَكُلَّ﴾ منصوب بفعل مضمر تفسيره أحصيناه كتاباً.

المعنى: كل شيء أحصيناه، وقوله: ﴿كِتَاباً﴾ توكيد لقوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ لأن معنى ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وكتبناه فيما يحصل ويثبت واحد، فالمعنى: كتبناه كتاباً.

وقوله -جل وعز- ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾ قال أبو إسحاق: الكأس كل إناء فيه شراب فهو كأس، فإذا لم يكن فيه شراب فليس بكأس، وكذلك المائدة: ما كان عليها من الأخونة طعام فهو مائدة.

ومعنى ﴿دِهَاقاً﴾ مليء، وجاء في التفسير أيضاً: أنها صافية، قال الشاعر:

* يَلَذُّه بكَأْسِه الدِّهاق[3]*

وقوله: ﴿جَزَاءً مِن رَبِّكَ﴾ منصوب بمعنى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾؛ المعنى: جازاهم بذلك جزاء، وكذلك ﴿عَطَاءً حِسَاباً﴾، لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد.

و﴿حِسَاباً﴾ معناه: ما يكفيهم، أي: فيه ما يشتهون. يقال: «أحسبني كذا وكذا» بمعنى كفاني.

وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قرئت بالجر على الصفة من قوله: ﴿مِن رَبِّكَ﴾ ربِّ.

وقرئت ﴿رَبُّ﴾ على معنى: هو رب السماوات والأرض، وكذلك قرئت ﴿الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ بالجر والرفع، وتفسيرها: رب السماوات والأرض.

---

(١) لم يعلم قائله وهو في اللسان مادة: ((حوج)).

(٢) هو للأعشى، والبيت في اللسان: ((صدق)).

(٣) انظر اللسان مادة: ((دهق)).

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾؛ ﴿الرُّوحُ﴾ خلق كالإنس، وليس هو «إنس»، وقيل: الروح جبريل -عليه السلام-.

وقوله: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾، أي: مرجعاً.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾؛ جاء في التفسير: أنه إذا كان يوم القيامة اقتص للجماء من القرناء -والجماء: التي لا قرن لها- ثم يجعل الله -تعالى- الجميع تراباً، وذلك التراب هو القترة التي ترهق وجوه الكفار وتعلو وجوههم، فيتمنى الكافر أن يكون تراباً.

وقد قيل: إن معنى ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾؛ أي: ليتني لم أبعث، كما قال: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾[الحاقة: ٢٥].

* * *

سورة النازعات

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾.

قيل في التفسير: يعنى به الملائكة تنزع روح الكافر وتنشطها فيشتد عليه أمر خروج نفسه.

وقوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾؛ أرواح المؤمنين تخرج بسهولة.

وقيل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾ القسي، ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾ الأوهاق، ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ السفن، ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ الخيل.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ الملائكة، جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت فجبريل بالوحي والتنزيل وميكائيل بالقطر والنبات، وإسرافيل للصور وملك الموت لقبض الأرواح.

وقيل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾: النجوم تنزع من مكان إلى مكان، وكذلك ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ النجوم تسبح في الفلك كما قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠]، وكذلك ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾، فأما ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ فالملائكة.

وقيل: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء كل هذا جاء في التفسير والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾؛ ترجف تتحرك حركة شديدة.

وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ النفخة الأولى التي تموت معها جميع الخلق.

وقوله: ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قيل: النفخة الثانية التي تبعث معها الخلق، وهو كقوله -تعالى-: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: ٦٨].

و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على معنى: قلوب يومئذ واجفة يوم ترجف الراجفة، ومعنى واجفة شديدة الاضطراب.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾؛ ذليلة.

وجواب والنازعات -والله أعلم- محذوف؛ والمعنى:كأنه أقسم فقال: وهذه الأشياء

لتبعثن، والدليل على ذلك قوله: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي: إنا نرد في الحياة بعد الموت إذا كنا عظاماً نخرة، أي: نرد ونبعث.

ويقال: رجع فلان في حافرته إذا رجع في الطريق الذي جاء فيه.

وقرئت ﴿نَخِرَةً﴾، و«ناخرة» أكثر في القراءة وأجود لشبه آخر الآي بعضها ببعض، «الحافرة وناخرة وخاسرة». ونخرة جيدة أيضاً، يقال: نخر العظم يَنْخَر فهو نَخِر مثل عفن الشيء يعفن فهو عفن.

و«ناخرة» على معنى: عظاماً فارغة يصير فيها من هبوب الريح كالنخير، ويجوز «ناخرة» كما تقول: بلي الشيء وبليت العظام فهي بالية.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: هذه الكرة كرة خسران؛ والمعنى: أهلها خاسرون.

ثم أعلم -عز وجل- سهولة البعث عليه فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ والساهرة: وجه الأرض.

وقوله: ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي: المبارك، وقرئت «طُوَى * اذهب» غير مصروفة، وطوًى منونة وقرئت طِوى بكسر الطاء.

وطوى: اسم الوادي الذي كلم الله عليه موسى، فمن صرفه فهو بمنزلة «نغر وصرد» إذا سميت به مذكراً، ومن لم يصرفه فهو على ضربين:

إحداهما: أن يكون اسم البقعة التي هي مشتملة على الوادي، كما قال: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[القصص: ٣٠]، وقيل: إنه منع الصرف لأنه معدول نحو: «عمر»، فكأن طوى عدل عن: «طاو» كما أن عمر عدل عن «عامر»، ومن قال: «طِوى» بالكسر فعلى معنى المقدس مرة بعد مرة، كما قال طرفة بن العبد[1] [من الطويل]:

أَعاذِلَ إِنَّ اللَّوْمَ في غيرِ كُنْهِهِ   عليَّ طُوًى من غَيِّكِ المُتَرَدِّدِ

أي: إن اللوم المكرور علي.

وقوله: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾؛ يعنى به اليد التي أخرجها تتلألأ من غير سوء.

قوله -عز وجل-: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾؛ ﴿نَكَالَ﴾ منصوب مصدر مؤكد لأن معنى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ نكل به ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي: أغرقه في الدنيا ويعذبه في الآخرة.

---

(١) في اللسان نسبه إلى عديّ بن زيد، مادة: «طوى».

وجاء في التفسير: إن ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ نكال قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[القصص: ٣٨]، وقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ فنكل الله به نكال هاتين الكلمتين.

قوله: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾؛ قال بعض النحويين: «بناها» من صلة السماء؛ المعنى: أم التي بناها.

وقال قوم: السماء ليس مما يوصل، ولكن المعنى: أأنتم أشد خلقاً أم السماء أشد خلقاً.

ثم بين كيف خلقها فقال: ﴿بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ أي: أظلم ليلها.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾؛ أظهر نورها بالشمس.

وقوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾؛ القراءة على نصب الأرض على معنى: ودحا الأرض بعد ذلك، وفسر هذا المضمر فقال: ﴿دَحَاهَا﴾، كما تقول: «ضربت زيداً وعمراً أكرمته»، وقد قرئت: ﴿وَالأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ على الرفع بالابتداء، والنصب أجود، لأنك تعطف بفعل على فعل أحسن، فيكون على معنى: بناها وفعل وفعل ودحا الأرض بعد ذلك.

قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾؛ تفسير نصب الجبال كتفسير نصب الأرض، وكذلك يجوز الرفع وقد قرئ به في الجبال على تفسير والأرض.

ومعنى ﴿أَرْسَاهَا﴾ أثبتها.

وقوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾؛ نصب ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ بمعنى قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ للإمتاع لكم.

لأن معنى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ أمتع بذلك.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ﴾ إذا جاءت الصيحة التي تطم كل شيء، الصيحة التي يقع معها البعث والحساب والعقاب والعذاب والرحمة.

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى﴾؛ هذا جواب ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى﴾ فإن الأمر كذلك.

ومعنى ﴿هِيَ المَأْوَى﴾؛ أي: هي المأوى له، وقال قوم: الألف واللام بدل من الهاء؛ المعنى: فهي مأواه لأن الألف واللام بدل من الهاء، وهذا كما تقول للإنسان: «غض

الطرف يا هذا» فلابس الألف واللام بدل الكاف وإن كان المعنى: غض طرفك، لأن المخاطب يعلم أنك تأمره بغض طرف غيره، قال الشاعر[1] [من الوافر]:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنَّكَ مِن نُمَيرٍ ... فَلا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِلابا

وكذلك معنى ﴿فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ على ذلك التفسير.

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؛ معناه: متى وقوعها وقيامها.

ومعنى ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾؛ أي: منتهى علمها.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾؛ وقرئت «منذر» بالتنوين على معنى: إنما في حال إنذار من يخشاها، وتنذر أيضاً فيما يستقبل من يخشاها.

و«مُفْعِل وفَاعِل» إذا كان واحد منها ومما كان في معناهما لما يستقبل وللحال نونته لأنه يكون بدلاً من الفعل، والفعل لا يكون إلا نكرة.

وقد يجوز حذف التنوين على الاستخفاف؛ والمعنى: معنى ثبوته يعني ثبوت التنوين، فإذا كان لما مضى فهو غير منون البتة، تقول: أنت منذر زيداً، أي: أنت أنذرت زيداً.

قوله: ﴿إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾؛ هذه الألف والهاء عائدة على عشية،؛ المعنى: ﴿إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أو ضحى العشية، فأضفت الضحى إلى العشية والغداوة والعشي والضحوة والضحى لليوم الذي يكون فيه، فإذا قلت آتيتك صباحاً ومساءه، أو مساءً وصباحه، فالمعنى: آتيتك صباحاً ومساءً يلي الصباح، وآتيتك مساء وصباحاً يلي المساء.

* * *

---

(١) هو: جرير.

سورة عبس

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾.

﴿أَن﴾ في موضع نصب مفعول له؛ المعنى: لأن جاءه الأعمى.

وهذه الآيات وما بعدها إلى قوله ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ نزلت في عبد الله ابن أم مكتوم.

كان صار إلى النبي ﷺ والنبي ﷺ يدعو بعض أشراف قريش إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامه غيره، فتشاغل -عليه السلام- بدعائه عن الإقبال على عبد لله ابن أم مكتوم، فأمره الله ألا يتشاغل عن الإقبال على أحد من المسلمين بغيره، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾؛ ويقرأ: «فتنفعُه الذكرى».

فمن نصب فعلى جواب «لعل» ومن رفع فعلى العطف على ﴿يَزَّكَّى﴾.

وقوله: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾؛ أي: أنت تقبل عليه، ويقرأ: «تصَّدَّى»، فمن قرأ ﴿تَصَدَّى﴾ بتخفيف الصاد، فالأصل: «تتصدى»، ولكن حذفت التاء الثانية لاجتماع تاءين، ومن قرأ «تصَّدَّى» بإدغام التاء، فالمعنى أيضاً: تتصدى، إلا أن التاء أدغمت في الصاد لقرب المخرجين، مخرج التاء من الصاد.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾؛ أي: أي شيء عليك أن لا يسلم من تدعوه إلى الإسلام.

وقوله: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ معناه: تتشاغل، يقال: لهيت عن الشيء ألهى عنه إذا تشاغلت عنه.

وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾؛ يعنى به هذه الموعظة التي وعظ الله بها النبي -عليه السلام-.

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾؛ ذُكِّرَ، لأن الموعظة والوعظ واحد؛ والمعنى راجع إلى حملة القرآن؛ المعنى: فمن شاء أن يذكره ذَكَره.

ثم أخبر -جل وعز- أن الكتاب في اللوح المحفوظ عنده، فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾؛ والسفرة: الكتبة، يعنى به الملائكة، واحدهم:

«سافر وسفرة» مثل: «كاتب وكتبة»، و«كافر وكفرة».

وإنما قيل للكتَّاب: «سفرة»، وللكاتب: «سافر» لأن معناه: أنه يبين الشيء ويوضحه، يقال: «أسفر الصبح» إذا أضاء، وسفرت المرأة إذا كشفت النقاب عن وجهها، ومنه: «سفرت بين القوم» أي: كشفت قلب هذا وقلب هذا لأصلح بينهم.

وقوله: ﴿بَرَرَةٍ﴾: جمع بار.

وقوله: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾؛ يكون على جهة لفظ التعجب، ويكون التعجب مما يؤمر به الآدميون، ويكون المعنى: كقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[البقرة: ١٧٥] أي: اعجبوا أنتم من كفر الإنسان، ويجوز على معنى: التوبيخ ولفظه لفظ الاستفهام، أي: أي شيء أكفره.

ثم بين من أمره ما كان ينبغي أن يعلم معه أن الله خالقه، وأنه واحد فقال: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾؛ على لفظ الاستفهام، ومعناه: التقرير.

ثم بين فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾؛ المعنى: فقدره على الاستواء كما قال -عز وجل-: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[الكهف: ٣٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾؛ أي: هداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾؛ معنى «أقبره» جعل له قبراً يوارى فيه، يقال: «أقبرت فلاناً» جعلت له قبراً، وقبرت فلاناً دفنته فأنا قابره، قال الشاعر(١) [من السريع]:

لَو أَسنَدَت مَيتاً إِلى نَحرِها   عاشَ وَلَم يُنقَل إِلى قابِرِ

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾؛ معناه: بعثه، يقال: أنشر الله الموتى، ونشروا، فالواحد: ناشر، قال الشاعر(٢):

حَتّى يَقولَ الناسُ مِمّا رَأَوا   يا عَجَبا لِلمَيِّتِ الناشِرِ

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾؛ أي: فلينظر الإنسان كيف خلق الله طعامه وطعام جميع الحيوان الذي جعله الله سبباً لحياتهم.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَباً﴾؛ ويقرأ ﴿إِنَّا صَبَبْنَا﴾، فمن قرأ «إنا» فعلى الابتداء والاستئناف، ومن قرأ «أنا» فعلى البدل من الطعام، ويكون «إنا» في موضع جر.

---

(١) هو: الأعشى.

(٢) هو الأعشى، والبيت عقب بيته السابق.

المعنى: فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صباً.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقاً﴾؛ أي: بالنبات.

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَباً﴾، والحب كل ما حصد، كالحنطة والشعير وكل ما يتغذى به من ذي حبّ. والقضب: الرطبة.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْباً﴾؛ حدائق، واحدتها: حديقة، وهي البساتين، والشجر الملتف.

قوله ﴿غُلْباً﴾ معناه: متكاثفة عظام.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَباً﴾؛ الأب جميع الكلأ الذي تعتلفه الماشية.

وذكر الله -عز وجل- من آياته ما يدل على وحدانيته في إنشاء ما يغذو جميع الحيوان.

وقوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾؛ منصوب، مصدر مؤكد لقوله ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ الأشياء التي ذكرت، لأن إنباته هذه الأشياء قد أمتع بها الخلق من الناس وجميع الحيوان.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾؛ التي تكون عنها القيامة، تصخ الأسماع أي: تصمها فلا يسمع إلا ما يدعى فيه لإحيائها.

ثم فسر في أي وقت تجيء فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ بالغين معجمة، وقد قرئت «شان يغنيه»، أي: شان لا يهمه معه غيره وكذلك ﴿يُغْنِيهِ﴾ لا يقدر مع الاهتمام به على الاهتمام بغيره.

ثم بين أحوال المؤمنين والكافرين فوصف أحوال المؤمنين فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ مسفرة مضيئة، قد علمت ما لها من الفوز والنعيم.

ووصف الكفار وأهل النار فقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ أي: غبرة، يعلوها سواد كالدخان.

ثم بين من أهل هذه الحال فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ﴾.

* * *

سورة التكوير

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

معنى ﴿كُوِّرَتْ﴾ جمع ضوؤها ولفت كما تلف العمامة، يقال: كرت العمامة على رأسي أكورها، وكورتها أكورها إذا لففتها.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾؛ انكدرت: تهافتت وتناثرت.

﴿وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾؛ صارت سراباً.

﴿وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ﴾؛ ﴿العِشَارُ﴾: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، والواحدة: ((عشراء)).

وإنما قيل لها: ((عشار)) لأنها إذا أتت عليها عشرة أشهر -وهي تضع إذا وضعت لتمام في سنة- فهي عُشَراء، أحسن ما يكون في الحمل، فليس يعطلها أهلها إلا في حال القيامة.

وخوطبت العرب بأمر العِشار لأن مالها وعيشها أكثره من الإبل.

﴿وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾؛ قيل: تحشر الوحوش كلها حتى الذباب يحشر للقصاص.

﴿وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ﴾؛ بالتثقيل: ويقرأ: ﴿سُجِرَتْ﴾ بالتخفيف.

ومعنى ﴿سُجِّرَتْ﴾ قيل: إنه في معنى فجرت، وقيل: ﴿سُجِّرَتْ﴾ ملئت، ومنه البحر المسجور المملوء.

وقيل: معنى ﴿سُجِّرَتْ﴾ جعلت مياهها نيراناً بها يعذب أهل النار.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؛ قرنت كل شيعة بمن شايعت، وقيل: قرنت بأعمالها، وقيل: قرنت الأجسام بالأرواح.

﴿وَإِذَا المَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾؛ ويقرأ: ((وإذا الموؤودة سَأَلت بأي ذنب قُتِلت))، والموؤودة: التي كانت العرب تَئِدها، كانوا إذا ولد لأحدهم بنت دفنها حية، فمعنى سؤالها: بأي ذنب قتلت؟ تبكيت قاتلها في القيامة لأن جوابها: قتلت بغير ذنب، ومثل هذا التبكيت قول الله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[المائدة: ١١٦]

فإنما سؤاله وجوابه تبكيت لمن ادعى هذا عليه.

يقال: «وأدت أئد وأداً» إذا دفنت المولود حياً، والفاعل: «وائد»، والفاعلة: «وائدة»، والفاعلات: «وائدات»، قال الفرزدق [من المتقارب]:

وَمِنّا الَّذي مَنَعَ الوائِدا تِ وَأَحيا الوَئيدَ فَلَم يوأَدِ

وكذلك من قرأ: «سَأَلت بأي ذنب قُتِلت»، سؤالها تبكيت لقاتلها.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾؛ و«نَشَّرَت»، نشرت الصحف وأعطي كل إنسان كتابه بيمينه أو بشماله على قدر عمله.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾؛ وقرئت: «قشطت» بالقاف، ومعناهما: قلعت كما يقلع السقف، يقال: كَشَطت السقف وقشطت السقف بمعنى واحد، والقاف والكاف تبدل إحداهما من الأخرى كثيراً. ومثل ذلك: «لبكت الشيء ولبقته» إذا خلطته.

﴿وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾؛ و﴿سُعِرَتْ﴾ بالتشديد والتخفيف، ومعناه أوقدت، وكذلك سعرت، إلا أن ﴿سُعِّرَتْ﴾ أوقدت مرة بعد مرة.

﴿وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾؛ أي: قربت من المتقين.

وجواب هذه الأشياء قوله ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾؛ أي: إذا كانت هذه الأشياء التي هي في يوم القيامة، عَلِمت في ذلك الوقت كل نفس ما أحضرت، أي: من عمل، فأثيبت على قدر عملها.

قوله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾؛ الخنس: جمع خانس، والجوار: جمع جارية، من جرى يجري.

والخنس: جمع «خانس وخانسة»، وكذلك الكنس: جمع «كانس وكانسة».

والمعنى: فأقسم، و «لا» مؤكدة والخنس ههنا أكثر التفسير يعني بها النجوم، لأنها تخنس أي: تغيب، لأن معنى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، ومعنى ﴿بِالْخُنَّسِ﴾؛ و ﴿الكُنَّسِ﴾ في النجوم أنها تطلع جارية، وكذلك تخنس، أي: تغيب، وكذلك تكنس تدخل في كناسها، أي: تغيب في المواضع التي تغيب فيها.

وقيل: الخنس ههنا يعني: بقر الوحش وظباء الوحش. ومعنى «خنس» جمع خانس، والظباء «خنس» والبقر «خنس». والخنس: قصر الأنف وتأخره عن الفم، وإذا كان للبقر أو كان للظباء فمعنى الكنس أي: التي تكنس، أي: تدخل الكِنَاس وهو الغصن من أغصان

الشجر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾؛ يقال: «عَسْعَسَ الليل» إذا أقبل. و«عَسْعَسَ»: إذا أدبر؛ والمعنى: أن يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إذا امتد حتى يصير نهاراً بيناً. وجواب القسم في هذه الأشياء أعني ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ وما بعده قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ يعني أن القرآن نزل به جبريل -عليه السلام-.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾؛ قيل: إنه من قوة جبريل ﷺ أنه قلب مدينة لوط بقوادم جناحه وهي قرى أربع.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ هذا أيضاً جواب القسم؛ المعنى: فأقسم بهذه الأشياء أن القرآن نزل به جبريل -عليه السلام-.

وأقسم بهذه الأشياء ما صاحبكم بمجنون يعنى به النبي ﷺ لأنهم قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: ٦]، فقال ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[القلم: ١، ٢]، وقال في هذا الموضع: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ وقد فسرنا ذلك في سورة والنجم.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾؛ ويقرأ ﴿بِظَنِينٍ﴾ فمن قرأ: ﴿بِظَنِينٍ﴾ فمعناه: ما هو على الغيب بمهتم وهو الثقة فيما أداه عن الله -جل وعز-، يقال: «ظننت زيداً» في معنى: اتهمت زيداً، ومن قرأ ﴿بِضَنِينٍ﴾ فمعناه: ما هو على الغيب ببخيل، أي: هو ﷺ يؤدي عن الله ويعلم كتاب الله.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ معناه: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾؛ أي: الاستقامة واضحة لكم، فمن شاء أخذ في طريق الحق والقصد وهو الإيمان بالله -عز وجل- ورسوله.

ثم أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه فقال: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ودليل ذلك أيضاً: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[هود: ٨٨] فهذا إعلام أن الإنسان لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله ولا شراً إلا بخذلان من الله، لأن الخير والشر بقضائه وقدره يضل من يشاء ويهدي من يشاء كما -جل وعز- قال ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى: ١٣].

سورة الانفطار

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾:

أي: انشقت، تتشقق السماء يوم القيامة بالغمام، كما قال -عز وجل-: ﴿وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾؛ أي: تساقطت وتهافتت.

﴿وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ﴾؛ فجر العذب إلى المالح.

﴿وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ يعني: بحثرت، أي: قلب ترابها وبعث الموتى الذين فيها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾؛ ما قدمت من عمل أمرت به وما أخرت منه فلم تعلمه.

وقيل: ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ سَنَّت من سُنَّةٍ عمل بها بعدها.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾؛ أي: ما خدعك وسوَّل لك حتى أضعت ما وجب عليك.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾؛ أي: خلقك في أحسن تقويم وتقرأ ﴿فعَدَلَكَ﴾ بالتخفيف والتشديد جميعاً.

وقوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾؛ يجوز أن تكون «ما» صلة مؤكدة، ويكون المعنى: في أي صورة شاء ركبك، إما طويلاً وإما قصيراً، إما مستحسناً وإما غير ذلك.

ويجوز أن تكون «ما» في معنى الشرط والجزاء، فيكون المعنى: في أي صورة ما شاء أن يركبك فيها ركبك.

وقوله: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾؛ أي: بل تكذبون بأنكم تبعثون وتدانون، أي: تجازون بأعمالكم.

ثم أعلمهم -عز وجل- أن أعمالهم محفوظة فقال: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيكتبونه عليهم.

وقوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء وهو يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾؛ فكرر ذكر اليوم تعظيماً لشأنه.

وقوله: ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً﴾ وقرئت: «يومُ لا يملك نفس»، فمن قرأ بالرفع فعلى أن «اليوم» صفة لقوله: ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾، ويجوز أن يكون رفعاً بإضمار: «هو». فيكون المعنى: هو لا تملك لنفس شيئاً، ويجوز أن يكون في موضع رفع، وهو مبني على الفتح لإضافته إلى قوله: ﴿لاَ تَمْلِكُ﴾ لأن ما أضيف إلى غير المتمكن قد يبنى على الفتح، وإن كان في موضع رفع أو جر كما قال الشاعر[١]:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات أوقال

فأضاف «غير» إلى «أن نطقت» فبناه على الفتح، وجائز أن يكون نصبه على معنى: هذه الأشياء المذكورة تكون يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً.

* * *

---

(١) هو: أبو قيس بن رفاعة.

سورة المطففين

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾ رفع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، ولو كان في غير القرآن لجاز «ويلاً للمطففين»، على معنى: جعل الله لهم ويلاً، والرفع أجود في القراءة لأن المعنى: قد ثبت لهم هذا.

والويل: كلمة تقال لكل من هو في عذاب وهلكة، والمطففون الذين ينقصون المكيال والميزان، وإنما قيل للفاعل من هذا: «مطفف»، لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء الحقير الطفيف، وإنما أخذ من: «طف الشيء» وهو جانبه.

وقد فسر أمره في السورة فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾؛ المعنى: إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل وكذلك إذا اتزنوا استوفوا الوزن، ولم يذكر «إذا اتزنوا» لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يكال ويوزن.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾؛ أي: إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾، أي: ينقصون في الكيل والوزن.

ويجوز في اللغة «يَخْسرون» يقال: أخسرت الميزان وخسرته، ولا أعلم أحد قرأ في هذا الموضع «يَخسرون»، ومن تأول معنى: ﴿كَالُوهُمْ﴾ كالوا لهم لم يجز أن تقف على كالوا حتى يصلها بـ «هم» فيقول «كالوهم».

ومن الناس من يجعل «هم» توكيدًا لما في «كالوا»، فيجوز أن تقف فتقول: إذا كالوا، والاختيار أن تكون «هم» في موضع نصب، بمعنى: كالوا لهم، ولو كانت على معنى: كالوا، ثم جاءت «هم» توكيداً لكان في المصحف ألف مثبتة قبل «هم».

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ يعني يوم القيامة، أي: إنهم لو ظنوا أنهم مبعوثون ما نقصوا في الكيل والوزن.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾؛ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله ﴿مَبْعُوثُونَ﴾؛ المعنى: ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة، ولو قرئت «يوم تقوم الناس» بكسر «يوم» لكان جيداً على معنى: ليوم يقوم الناس، ولو قرئت بالرفع لكان جيداً «يومُ يقوم الناس»،

على معنى: ذلك يوم يقوم الناس، ولا يجوز القراءة إلا بما قرأ به القراء ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ بالنصب، لأن القراءة سنة، ولا يجوز أن تخالف بما يجوز في العربية.

وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾؛ «كلا» ردع وتنبيه؛ المعنى: ليس الأمر على ما هم عليه، فليرتدعوا عن ذلك.

وقوله: ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ زعم أهل اللغة أن ﴿سِجِّينٍ﴾ فعيل من السجن؛ المعنى: كتابهم في حبس، جعل ذلك دلالة على خساسة منزلتهم، وقيل: ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ في حساب، وفي سجين: في حجر من الأرض السابعة.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

ثم فسر فقال: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾؛ أي: مكتوب.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾؛ أساطير: أباطيل، واحدها: أسطورة، مثل: أحدوثة وأحاديث.

وقوله: ﴿كَلاَّ﴾ تفسيرها تفسير التي قبلها.

﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾؛ بإدغام اللام في الراء وتفخيم الألف وقد قرئت: ﴿بَلْ رَانَ﴾ بإمالة الألف والراء إلى الكسر، وقرئت: ﴿بَلْ رَانَ﴾ بإظهار اللام والإدغام. والإدغام أجود لقرب اللام من الراء، ولغلبة الراء على اللام، وإظهار اللام جائز إلا أن اللام من كلمة، والراء من كلمة أخرى.

وران: بمعنى غطى على قلوبهم، يقال: «رَان على قلبه الذنب يَرين ريْناً» إذا غشي على قلبه. ويقال: «غَانَ على قلبه يَغِين غَيناً»، والغين: كالغيم الرقيق، والرين: كالصدأ يغشى على القلب.

وقوله -جل ثناؤه- ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾؛ وفي هذه الآية دليل على أن الله يرى في الآخرة، لولا ذلك لما كان في هذه الآية فائدة، ولا خسست منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن الله -عز وجل-، وقال -تعالى- في المؤمنين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢، ٢٣].

فأعلم الله -عز وجل- أن المؤمنين ينظرون إلى الله، وأن الكفار يحجبون عنه.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الجَحِيمِ﴾ ثم بعد حجبهم عن الله يدخلون النار ولا يخرجون منها خالدين فيها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: كنتم تكذبون بالبعث والجنة والنار.

ثم أعلم -عز وجل- أين محل كتاب الأبرار، وما لهم من النعيم فرفع كتابهم على قدر مرتبتهم كما سفل وخسس كتاب الفجار: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أي: أعلى الأمكنة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؛ وإعراب هذا الاسم كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع، كما تقول: «هذه قنسرون، ورأيت قنسرين»، وقال بعض النحويين: هذا جمع لما لا يحد واحده، نحو: «ثلاثون وأربعون، فثلاثون كان لفظ جمع ثلاث وكذلك قول الشاعر [من الرجز]:

قَدْ شَرِبَتْ إِلاَّ الدُّهَيْدِهِينَا قُلَيِّصَاتٍ وأُبَيْكِرِينَا[1]

يعني أن الإبل قد شربت الأجمع «الدَّهْدَاةِ»، والدَّهْدَاةِ: حاشية الإبل، كأن: «قليصات وأبيكرين ودهيدين» جميع ليس واحده محدوداً معلوم العدد، والقول الأول قول أكثر النحويين وأبينها.

وقوله: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾؛ ﴿الأَرَائِكِ﴾ واحدها: أريكة، وهي الأسرة في الحجال.

وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾؛ الرحيق: الشراب الذي لا غش فيه قال حسان [من الكامل]:

يَسقونَ مَن وَرَدَ البَريصَ عَلَيهِم بَرَدى يُصَفِّقُ بِالرَّحيقِ السَّلسَلِ

ومعنى ﴿مَخْتُومٍ﴾: في انقطاعه خاصة.

ثم بين فقال: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾، وقرئت: «خاتَمه مسك» بفتح التاء، وقرئت: «خاتِمَه مسك»؛ والمعنى: أنهم إذا شربوا هذا الرحيق فني ما في الكأس وانقطع الشرب، انختم ذلك بطعم المسك ورائحته.

﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً﴾؛ تأتيهم من علو ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عليهم من الغرف، فعيناً في هذا القول منصوبة مفعولة كما قال: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً﴾.

ويجوز أن تكون ﴿عَيْناً﴾ منصوبة بقوله: ﴿يُسْقَوْنَ﴾ ﴿عَيْناً﴾؛ أي: من عين، ويجوز أن تكون ﴿عَيْناً﴾ منصوبة على الحال، وتكون ﴿تَسْنِيمٍ﴾ معرفة، و«عيناً» نكرة.

---

(١) ذكره البغدادي في الخزانة الشاهد (٥٨٣). وانظر: اللسان مادة: ((بكر)).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾؛ هؤلاء جماعة من كفار قريش كان يمر بهم من قدم إسلامه مع النبي ﷺ علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه- وغيره -رحمهم الله- فيغيرونهم بالإسلام على وجه السِّخرية منهم.

﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾؛ معجبين بما هم فيه يتفكهون بذكرهم.

﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي: ما أرسل هؤلاء القوم على أصحاب النبي ﷺ يحفظون عليهم أعمالهم.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾؛ يعني يوم القيامة.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: هل جوزوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا، ويقرأ: «هَثُّوِّبَ»، بإدغام اللام في الثاء.

* * *

سورة الانشقاق

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾.

تنشق يوم القيامة بالغمام، وجواب «إذا» يدل عليه: ﴿فَمُلاقِيهِ﴾؛ المعنى: إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله.

ومعنى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾؛ أي: سمعت، يقال: أذنت للشيء آذن إذا سمعت قال الشاعر(1) [من البسيط]:

صمٌّ إذَا سمعُوا خيراً ذكرتُ بهِ وإنْ ذكرتُ بسوءٍ عندهمْ أذنُوا

أي: سمعوا.

ومعنى ﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أي: حق لها أن تفعل.

﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أذيلت عن هيئتها وبدلت.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾: ألقت ما فيها من الموتى والكنوز.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾؛ جاء في التفسير: إنك عامل لربك عملاً فملاقيه.

وجاء أيضاً: ساع إلى ربك سعياً فملاقيه.

والكدح في اللغة: السعي والدُّؤوب في العمل في باب الدنيا وباب الآخرة، قال تميم ابن مقبل [من الطويل]:

ومَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ

أي: وتارة أسعى في طلب العيش وأدأب.

وقيل: ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ فملاق ربك، وقيل: فملاق عملك.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾؛ روينا عن النبي ﷺ أن ذلك العرض على الله -عز وجل-، وأنه من نوقش الحساب عذب، وروينا أيضاً: أنه من نوقش الحساب هلك.

---

(1) هو: قعنب ابن أم صاحب.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبوراً﴾؛ أي: يقول: يا ويلاه، يا ثبوراه، وهذا يقول من وقع في هلكة؛ أي: من أوتي كتابه وراء ظهره، دليل ذلك على أنه من المعذبين.

قوله: ﴿وَيَصْلَى سَعِيراً﴾؛ وقرئت «ويُصْلَى سعيراً» أي: يكثر عذابه.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾؛ فمن صفة المؤمن، وينقلب إلى أهله في الجنان التي أعدهن الله لأوليائه.

وقوله: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحُورَ﴾ هذه صفة الكافر ظن أن لن يحور بأن لن يبعث.

ومعنى يحور في اللغة: أن يرجع إلى الله -عز وجل-.

﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾؛ قبل أن يخلقه، عالماً بأن مرجعه إليه -عز وجل.

قوله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾؛ معناه: فأقسم وقد فسرنا ذلك.

والشفق: الحمرة التي ترى في الأفق في المغرب بعد سقوط الشمس، وقيل: الشفق النهار.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾؛ معنى ﴿وَسَقَ﴾ جمع وضم، قال الشاعر [من الرجز]:

* مُسْتَوسَقاتٍ لو يَجِدن سَائِقاً *

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ؛﴾ اجتمع واستوى ليلة ثلاثة عشرة وأربعة عشرة.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾؛ أي: حالاً بعد حال حتى يصير إلى الله -عز وجل-، من إحياء وإقامة وبعث، وقرئت: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾، أي: لتركبن يا محمد طبقاً عن طبقٍ من أطباق السماء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يحملون في قلوبهم.

يقال: أوْعَيت المتاع في الوعاء، وَوَعِيت العلم.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ المعنى: اجعل بدل البشارة للمؤمنين بالجنة والرحمة والرضوان، للكفار العذاب الأليم.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ لا يمن عليهم، قال أهل اللغة: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، يقال: منيت الحبل إذا قطعته.

* * *

سورة البروج

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾.

جواب القسم: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ وقيل: ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ذات الكواكب، وقيل: ذات القصور لقُصُورٍ في السماء.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾؛ يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾؛ شاهد: يوم الجمعة، ومشهود: يوم عرفة.

وقيل: وشاهد يعنى به النبي ﷺ ومشهود يوم القيامة، كما قال -تعالى-: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[هود: ١٠٣].

وقوله -عز وجل-: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾؛ الأخدود: شق في الأرض، ويجمع: أخاديد.

وقيل: أصحاب الأخدود قوم كانوا يعبدون صنماً، وكان معهم قوم يكتمون إيمانهم، يعبدون الله -عز وجل-، ويوحدونه، فعلموا بهم فخدوا لهم أخدوداً وملؤوه ناراً، وقذفوا بهم في تلك النار فتقحموها ولم يرتدوا عن دينهم ثبوتاً على الإسلام، ويقيناً أنهم يصيرون إلى الجنة.

فجاء في التفسير: أن آخر من ألقي منهم امرأة معها صبي رضيع فلما رأت النار صدت بوجهها وأعرضت فقال الصبي: يا أمتاه قفي ولا تنافقي.

وقيل: إنه قال لها: ما هي إلا غميضة، فبصرت فألقيت في النار.

وكان النبي ﷺ إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ من جهد البلاء.

فأعلم الله – -عز وجل- – قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله -عز وجل-.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم.

ثم أعلم -عز وجل- ما أعد لأولئك الذين أحرقوا المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: أحرقوا المؤمنين والمؤمنات، يقال: «فتنت الشيء» أحرقته،

والفتين: حجارة سود كأنها محرقة.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾؛ فالمعنى -والله أعلم- فلهم عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين والمؤمنات.

قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾؛ أي: يبدئ الخلق ثم يعيده بعد بلاه.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾؛ أي: المحب أولياءه.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾؛ ويقرأ: «المجيدِ».

ومعنى «المجيد»: الكريم. فمن جر «المجيد» فمن صفة العرش، ومن رفع فمن صفة «ذو».

وقوله -عز وجل-: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾؛ في موضع جر بدلاً من الجنود؛ المعنى: هل أتاك حديث فرعون وثمود.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾؛ أي: لا يجزه منهم أحد، قدرته مشتملة عليهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾؛ ويقرأ: «قرآن مجيدٍ»، والقراءة: ﴿قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾. من نعت قرآن، ومن قرأ «قرآن مجيدٍ»، فالمعنى: هو قرآن رب مجيد.

وقوله: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾؛ القرآن في اللوح وهو أم الكتاب عند الله، وقرئت: «محفوظٌ»، من نعت قرآن، المعنى: بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح.

* * *

سورة الطارق

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾؛ جواب القسم: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

والطارق: النجم، والنجم يعنى به النجوم، وإنما قيل للنجم: «طارق» لأنه طلوع بالليل، وكل ما أتى ليلاً فهو طارق، لأن الليل يسكن فيه، ومن هذا قيل: «أطرق فلان» إذا أمسك عن الكلام وسكن.

و ﴿الثَّاقِبُ﴾المضيء، يقال: «يَثْقُبُ ثُقُوباً» إذا أضاء، ويقال للموقد: «أثقب نارك» أي: أضئها.

وقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَما عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾؛ معناه: لعليها حافظ، و«ما» لغو، وقرئت ﴿لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ بالتشديد، والمعنى معنى «إلا»، استعملت «لما» في موضع «إلا» في موضعين؛ أحدهما: هذا، والآخر: في باب القسم، يقال: سألتك لما فعلت بمعنى إلا فعلت.

وقوله -عز وجل-: ﴿مِن مَاءٍ دَافِقٍ﴾؛ معناه: من فوق.

ومذهب سيبويه وأصحابه أن معناه: النسب إلى الاندفاق، المعنى: من ماء ذي اندفاق.

قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾؛ الترائب: جاء في التفسير أنها أربعة أضلاع من يمنة الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر.

وجاء في التفسير: أن الترائب: اليدان والرجلان والعينان.

وقال أهل اللغة أجمعون: الترائب موضع القلادة من الصدر، وأنشدوا لامرئ القيس [من الطويل]:

مُهَفهَفَةٌ بَيضاءُ غَيرُ مُفاضَةٍ   تَرائِبُها مَصقولَةٌ كَالسَّجَنجَلِ

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾؛ جاء التفسير: على رجع الماء إلى الإحليل لقادر.

وجاء أيضاً: على رجعه إلى الصلب، وجاء أيضاً: على رجعه على بعث الإنسان، وهذا يشهد له قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾؛ أي: إنه قادر على بعثه يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾؛ ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ذات

المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر.

قال أبو عبيدة: الرجع: الماء، وأنشد بيت المتنخل الهذلي [من السريع]:

أَبيَضُ كَالرَّجعِ رَسوبٌ إِذا ما ثاخَ في مُحتَفَلٍ يَختَلي

قال يصف السيف، يقول: هو أبيض كالماء.

﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾، أي: تصدع بالنبات.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾؛ جواب القسم يعنى به القرآن، يفصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾؛ ما هو باللعب.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً﴾؛ يعنى به الكفار، إنهم يخاتلون النبي -عليه السلام-، ويظهرون ما هم خلافه.

﴿وَأَكِيدُ كَيْداً﴾: كيد الله لهم استدراجهم من حيث لا يعلمون.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ أي: أمهلهم قليلاً.

* * *

سورة الأعلى

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.

أي: نزه ربك عن السوء وقل: سبحان ربي الأعلى.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾؛ خلق الإنسان مستوياً، أشهده على نفسه بأنه ربه، وخلقه على الفطرة.

وقوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾؛ هداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً.

وقال بعض النحويين: فهدى وأضل، ولكن حذف وأضل لأن في الكلام دليلاً عليه، قال -عز وجل-: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[النحل: ٩٣].

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾؛ ﴿أَحْوَى﴾ في موضع نصب حال من ﴿الْمَرْعَى﴾.

المعنى: الذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخرجه أخضر يضرب إلى الحوة، والحوة السواد.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾، جففه حتى صيره هشيماً جافاً كالغثاء الذي تراه فوق ماء السيل.

قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾؛ أعلم الله -عز وجل- أنه سيجعل للنبي -عليه السلام- آيه يتبين له بها الفضلية بأن جبريل -عليه السلام- ينزل عليه بالوحي وهو أمي لا يكتب كتاباً ولا يقرؤه، ويقرئ أصحابه ولا ينسى شيئاً من ذلك ولا يكرر عليه الشيء، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩].

فأما ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فقيل: إلا ما شاء الله ثم يذكره بعد، وقيل: إلا ما شاء الله أن يؤخره من القرآن.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾؛ المعنى: يتجنب الذكرى الأشقى.

وقوله: ﴿ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾؛ لا يموت موتاً يستريح به من العذاب، ولا يحيا حياة يجد معها روح الحياة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾؛ أي: قد صادق البقاء الدائم والفوز بالنعيم.

ومعنى ﴿تَزَكَّى﴾ تكثر بتقوى الله، ومعنى «الزاكي» النامي الكثير.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ وقرئت: «بل يؤثرون الحياة الدنيا» بالياء، والأجود التاء، لأنها رويت عن أبي بن كعبٍ: بل أنتم تؤثرون الحياة الدنيا.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾؛ يعنى من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ إلى هذا الموضع، وقيل: بل السورة كلها.

* * *

سورة الغاشية

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾.

قيل: إن الغاشية القيامة لأنها تغشى الخلق، وقيل: الغاشية: النار لأنها تغشي وجوه الكفار.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾؛ ﴿خَاشِعَةٌ﴾ خبر ﴿وُجُوهٌ﴾.

ومعنى ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة.

﴿تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾، ويقرأ: «تُصْلَى».

وقوله ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾؛ أي: متناهية في شدة الحر: كقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾[الرحمن: ٤٤].

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾؛ يعني لأهل النار.

والضريع: الشبرق، وهو جنس من الشوك، إذا كان رطباً فهو شبرق، فإذا يبس فهو الضريع.

قال كفار قريش: إن الضريع لتَسْمَنُ عليه إبلنا، فقال الله -عز وجل- ﴿لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.

ومعنى ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾؛ أي: هذا لم يكن من علمك ولا من علم قومك، وكذلك الأقاصيص التي أخبر بها النبي -عليه السلام- قال الله -عز وجل- ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾[هود: ٤٩].

ومعنى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾؛ قيل: إنها عاملة ناصبة في الدنيا لغير ما يقرب إلى الله تعالى، وقيل: إنهم الرهبان ومن أشبههم، وقيل: عاملة ناصبة في النار، فوصف مقاساتها العذاب.

وقوله في صفة أهل الجنة: ﴿لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾، وقرئت: «لا يسمع فيها لاغية»، وقرئت: ﴿لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾، أي لا تسمع فيها آثمة.

ويجوز أن يكون لا تسمع فيها كلمة تلغى، أي: تسقط، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة، وحمد الله على ما رزقهم من نعيمه الدائم.

قوله: ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾؛ الأكواب: آنية شبيهة بالأباريق لا عرى لها.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾؛ واحدتها: «نمرقة».

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾: الزرابي: البسط، واحدتها: «زربية».

وقوله: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؛ نبههم الله على عظيم من خلقه قد ذلَّله للصغير يقوده وينتجه وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحوامل غيره، فأراهم عظيماً من خلقه ليدلهم بذلك على توحيده.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ يعني بغير عمد.

﴿وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾؛ ﴿نُصِبَتْ﴾ مرساة مثبتة لا تزول.

﴿وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؛ أي: دحيت وبسطت.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾؛ هذا قبل أن يؤمر النبي -عليه السلام- بالحرب.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ أي: بمسلط.

﴿إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ﴾؛ أي: عذاب جهنم.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ وقرئت: ﴿إِيَّابَهُمْ﴾، بالتخفيف والتثقيل.

ومعنى ﴿إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم، ومعنى ﴿إِيَّابَهُمْ﴾ على مصدر: «أَيَّب إِياباً»، على معنى: «فيعل فيعالا»، من آب يؤوب، والأصل: إيواباً، فأدغمت الياء في الواو، وانقلبت الواو إلى الياء لأنها سبقت بسكون.

* * *

سورة الفجر

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿وَالْفَجْرِ﴾.

الفجر: انفجار الصبح من الليل، وجواب القسم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾؛ ليالي عشر ذي الحجة.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوِتْرِ﴾؛ قرئت: ﴿وَالْوَتْرِ﴾ بفتح الواو، والوتر: يوم النحر، والوتر: يوم عرفة.

وقيل: «الشفع والوتر»: الأعداد، والأعداد كلها شفع ووتر.

وقيل: «الوتر» الله -عز وجل- الواحد، والشفع: جميع الخلق، خلقوا أزواجاً.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾: إذا مضى، سرى يسري، كما قال – -عز وجل-: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾[المدثر: ٣٣].

و﴿يَسْرِ﴾ حذفت الياء لأنها رأس آية، وقد قرئت: «والليل إذا يسري» بإثبات الياء، واتباع المصحف وحذف الياء أحب إلي لأن القراءة بذلك أكثر، ورؤوس الآي فواصل تحذف معها الياءات وتدل عليه الكسرات.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾؛ أي: لذي عقل ولب، ومعنى «القسم»: توكيد ما يذكر وتصحيحه بأن يقسم عليه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ﴾؛ قيل: هما عادان عاد الأولى وهي: «إرم»، وعاد الأخيرة، وقيل: إرم أبو عاد، وهو عاد بن إرم، وقيل: إرم اسم لبلدتهم التي كانوا فيها.

وإرم: لم تنصرف لأنها جعلت اسماً للقبيلة، فلذلك فتحت وهي في موضع جر.

وقوله: ﴿ذَاتِ العِمَادِ﴾؛ أي: ذات الطول، يقال: رجل معمد إذا كان طويلاً، وقيل: ﴿ذَاتِ العِمَادِ﴾ ذات البناء الطويل الرفيع.

وقوله: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾؛ جابوا: قطعوا، كما قال -عز وجل- ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾[الشعراء: ١٤٩].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾؛ فرعون: لم ينصرف لأنه أعجمي.

وقيل: ﴿ذِي الأَوْتَادِ﴾ لأنه كان له أربع أساطين؛ ومعناه: ألم تر كيف أهلك ربك هذه الأمم التي كذبت رسلها.

وكيف جعل عقوبتها أن جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب فقال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾؛ أي: يرصد من كفر به وعبد غيره بالعذاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾؛ والمعنى: إذا ما اختبره ربه وأوسع عليه فيقول: ربي أكرمن.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾؛ أي: جعل مقدراً.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَّ﴾؛ أي: ليس الأمر كما يظن الإنسان، وهذا يعنى به الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا، وصفة المؤمن أن الإكرام عنده توفيق الله إياه أي: ما يؤديه إلى حظ الآخرة.

﴿كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ﴾ - ويقرأ ﴿وَلاَ تَحُضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

وكانوا يأكلون أموال اليتامى إسرافاً وبداراً فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَماً﴾؛ أي: تراث اليتامى ﴿لَماً﴾ يَلِمُّون بِجَمِيعِهِ.

وقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُباً جَماً﴾؛ أي: كثيراً، والتراث: أصله الوُراث من وَرِثْتُ، ولكن التاء تبدل من الواو إذا كانت الواو مضمومة، نحو: «تراث» وأصله: وُرَاث، ونحو: «تُجاه» وأصله: «وُجَاه» من «وَاجَهت».

وقوله: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكاً دَكاً﴾؛ إذا زلزلت فدك بعضها بعضاً.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾، والمعنى: والملائكة كما قال -جل ثناؤه-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾[البقرة: ٢١٠].

قوله: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾؛ كما قال: ﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[الشعراء: ٩١].

وقيل في التفسير: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ﴾ تقاد بألف زمام كل زمام في أيدي سبعين ألف ملك.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ﴾ يومئذ يظهر الإنسان التوبة.

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾؛ أي: ومن أين له الذكرى، أي: التوبة.

﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أي: لدار الآخرة التي لا موت فيها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾؛ المعنى: لا يعذب عذاب هذا الكافر وعذاب هذا الصنف من الكفار أحد.

﴿وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾؛ ومن قرأ ﴿يُعَذِّبُ﴾، وهو أكثر القراءة، فالمعنى: لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد، الملك يومئذ لله وحده -جل وعز-، وقيل: ﴿لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾؛ أي: عذاب الله أحد، فعلى هذا لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله في الآخرة.

وقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي﴾؛ أي: تؤنث إذا دعوت بها مونثاً وتذكر، تقول: يا أيتها المرأة، وإن شئت يا أيها المرأة، فمن ذكره فلأن «أنا» مبهمة ومن أنث فلأنها مع إبهامها قد لزمها الإعراب والإضافة.

وزعم سيبويه: أن بعض العرب تقول: «كلتهن» في: «كلهن».

والمطمئنة: التي اطمأنت بالإيمان وأخبتت إلى ربها.

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾؛ أصل ﴿مَرْضِيَّةً﴾ مرضوة أي: راضية بما أتاها، قد رضيت وزكيت.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾، في جملة عبادي المصطفين، وقرئت: «فادخلي في عبدي».

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾؛ فعلى هذه القراءة -والله أعلم- ادخلي إلى صاحبك الذي خرجت منه فادخلي فيه، والأكثر في القراءة والتفسير: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

* * *

سورة البلد

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ﴾.

يعنى بالبلد ههنا مكة؛ والمعنى: أقسم بهذا البلد، و«لا» أدخلت توكيداً كما قال -عز وجل-: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾[الحديد: ٢٩]؛ وقرئت: «لأُقْسِم بهذا البلد»، تكون اللام لام القسم والتوكيد، وهذه القراءة قليلة، وهي في العربية بعيدة لأن لام القسم لا تدخل على الفعل المستقل إلا معه النون، تقول: «لأضربن زيداً»، ولا يجوز: «لأضرب» تريد الحال.

وزعم سيبويه والخليل أن هذه اللام تدخل مع «إن» فاستغني بها في باب «إن»، تقول: «إني لأحبك».

ومعنى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا﴾؛ أحلت مكة للنبي -عليه السلام- ساعة من النهار، ولم تحل لأحد قبله ولا لأحد بعده، ومعنى أحلت له أحل له صيدها، وأن يتخلى خلالها، وأن يعضد شجرها.

يقال: رجل حِلٌّ وحَلال ومُحَلٌّ، وكذلك رجل حَرام وحِرم ومُحْرِم.

وقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾؛ جاء في التفسير: أن معناه آدم وولده، وجاء معناه أيضاً: كل والد وكل مولود.

وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾؛ هذا جواب القسم؛ المعنى: أقسم بهذه الأشياء ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾؛ أي: يكابد أمره في الدنيا والآخرة.

وقيل: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: خلق منتصباً يمشي على رجليه وسائر الأشياء والحيوان غير منتصبة، وقيل: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ خلق الإنسان في بطن أمه ورأسه قبل رأسها، فإذا أرادت الولادة انقلب الرأس إلى الأسفل.

وقوله: ﴿أَن لَن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؛ هذا جاء في التفسير أنه رجل كان شديداً جداً، وكان يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه فيهده فلا يخرج من تحت رجليه إلا قطعاً من شدته، وكان يقال له: «كلدة» فقيل: أيحسب لشدته أن لن يقدر عليه أحد وأنه لا يبعث.

وقيل: أن لن يقدر عليه الله -عز وجل- لأنه كان لا يؤمن بالبعث.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾؛ وقرئت: ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبداً﴾ ويقرأ: «لُبَّدا».

ومعنى ﴿لُبَداً﴾ كثير بعضه قد لبد ببعض، وفعل للكثرة، يقال: «رجل حُطَم» إذا كان كثير الْحَطْمِ، ومن قرأ: «لُبَّداً» فهو جمع لابد.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾؛ أي: أيحسب أن لم يحص عليه ما أنفق، وفي الكلام دليل على أنه ادعى أنه أنفق كثيراً لم ينفعه.

وقوله -جل وعز-: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾؛ أي: ألم نفعل به ما يستدل به على أن الله قادر على أن يبعثه وأن يحصي عليه ما يعمله.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾؛ الطريقين الواضحين، النجد: المرتفع من الأرض، فالمعنى: ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر بينين كبيان الطريقين العاليين.

وقوله: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾؛ المعنى: فلم يقتحم العقبة كما قال: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى﴾[القيامة: ٣١]، ولم يذكر «لا» إلا مرة واحدة، وقلما يتكلم العرب في مثل هذا المكان إلا بـ«لا» مرتين أو أكثر، لا تكاد تقول: «لا حييتني» تريد: «ما حييتني»، فإن قلت: «لا حييتني ولا زرتني» صلح.

والمعنى: في ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ موجود في «لا» الثانية كأنها في الكلام لأن قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تدل على معنى: فلا اقتحم العقبة ولا آمن.

وقرئت: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، وقرئت: ﴿فَكَّ رَقَبَةٍ * أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ وكلاهما جائز.

فمن قال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾؛ فالمعنى: اقتحام العقبة فك رقبة أو إطعام، ومن قرأ: ﴿فَكَّ رَقَبَةٍ﴾ فهو محمول على المعنى: والمسغبة: المجاعة.

وقوله: ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾؛ معناه: ذا قرابة، تقول: «زيد ذو قرابتي وذو مقربتي»، و و«زيد قرابتي» قبيح لأن القرابة المصدر قال الشاعر [من البسيط]:

يَبكي الْغَريبُ عليْه ليْس يعرفُهُ   وذُو قرابته في الحَيِّ مسْرورُ

وقوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾؛ يعني: أنه من فقره قد لصق بالتراب.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ معناه: إذا فعل ذلك وكان عقده الإيمان ثم أقام على إيمانه.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؛ أي: طاعة الله، والصبر عن الدخول في معاصيه.

ثم كان مع ذلك من الذين يتواصون ﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أولئك أصحاب اليمن على أنفسهم أي: كانوا ميامين على أنفسهم غير مشائيم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾؛ أي: هم المشائيم على أنفسهم -نعوذ بالله من النار-.

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾؛ ويقرأ بغير همز، ومعناه: مطبقة، يقال: «أصدت الباب وأوصدته»: إذا أطبقته.

* * *

سورة الشمس

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ هذا قسم وجوابه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾.

ومعناه: لقد أفلح، ولكن اللام حذفت لأن الكلام طال فصار طوله عوضاً منها.

ومعنى﴿وَضُحَاهَا﴾: وضيائها، وقيل: «ضحاها» النهار، وقرأ الأعمش وأصحابه «ضحاهَا، وتلاهَا، وطحاهَا» بالفتح، وقرأوا باقي السورة بالكسر. وقرأ الكسائي السورة كلها بالإمالة، وقرأها أبو عمرو بن العلاء باللفظين، وهذا الذي يسميه الناس الكسر وليس بكسر صحيح، يسميه الخليل وأبو عمرو: «الإمالة»، وإنما كُسر من هذه الحروف ما كان منها من ذوات الياء ليدلوا على أن الشيء من ذوات الياء.

ومن فتح «ضحاهَا، وتلاهَا، وطحاهَا» فلأنه من ذوات الواو، ومن كسر فلأن ذوات الواو كلها إذا رد الشيء إلى ما لم يسم فاعله انتقل إلى الياء وتقول: «قد تلي ودحي وطحي».

وقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾؛ معناه: حين تلاها، وقيل: حين استدار فكان يتلو الشمس في الضياء والنور.

وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾؛ قالوا معناه: إذا جلَّى الظلمة، وإن لم يكن في الكلام ذكر الظلمة فالمعنى يدل عليها كما تقول: أصبحت باردة، تريد أصبحت غداتنا باردة.

وقيل: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾؛ إذا بينت الشمس لأنها تبين إذا انبسط النهاو.

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾؛ معناه: والسماء وبنيانها.

وكذلك ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾؛ معناه: والأرض وطحوها.

وكذلك معنى «ما» ههنا معنى «من»؛ المعنى: والسماء والذي بناها.

ويحكى عن أهل الحجاز «سبحان ما سبحت له» أي: سبحان الذي سبحت، ومن سبحت له.

فأقسم الله -عز وجل- بهذه الأشياء العظام من خلقه لأنها تدل على أنه واحد وهو الذي ليس كمثله شيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾؛ قيل: علمها طريق الفجور وطريق

الهدى، والكلام على أن «ألهمها التقوى»: وفقها للتقوى، «وألهمها فجورها»: خذلها -والله أعلم-.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾؛ أي: قد أفلحت نفس زكاها الله.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾؛ خابت نفس دساها الله.

ومعنى ﴿دَسَّاهَا﴾: جعلها خسيسة، والأصل: «دسسها»، ولكن الحروف إذا اجتمعت من لفظ واحد بدل من أحدها ياء، وقال الشاعر [(١)] [من الرجز]:

* تَقَضِّيَ البازي إِذا البازي كَسَر *

قالوا معناه: تقضض.

وقيل: قد أفلح من زكى نفسه بالعمل الصالح.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾؛ أي: بطغيانها، وأصل «طغواها»: «طغيها»، و«فعلى» إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واواً ليفصل بين الاسم والصفة، وتقول: «هي التقوى» وإنما هي من أيقنت، وهي التقوى وإنما هي من: «يقنت»، وقالوا: «امرأه خَزْياً» لأنها صفة.

وقوله -تعالى-: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾؛ ﴿نَاقَةَ﴾ منصوب على معنى: ذروا ناقة الله، كما قال سبحانه: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾[الأعراف: ٧٣]، أي: ذروا سقياها، وكان للناقة يوم ولهم يوم في الشرب.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فلم يوقنوا أنهم يعذبون حين قال لهم: ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء: ١٥٦].

﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ معناه: دمدم عليهم أطبق عليهم، وكذلك: «دممت عليه القبر» وما أشبهه، وكذلك ناقة مدمومة، أي: قد ألبسها الشحم، فإذا كررت الإطباق قلت: «دمدمت عليه».

وقوله: ﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أكثر ما جاء في التفسير: لا يخاف الله -تعالى- تبعة ما أنزل بهم.

---

(١) هو: العجاج.

وقيل: لا يخاف رسول الله صالح -عليه السلام- الذي أرسل إليهم عقباها. وقيل: إذا ﴿انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ وهو لا يخاف عقباها.

سورة الليل

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ هذا القسم جوابه ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، أي: إن سعي المؤمن والكافر لمختلف بينهما بعد.

ومعنى «إذا يغشى الليل الأرض» توارى الأفق وجميع ما بين السماء والأرض.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾؛ إذا بان وظهر.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ كما فسرنا في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾[الشمس: ٥].

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾؛ في التفسير: أنها نزلت في أبي بكر الصديق -رحمه الله- وكان اشترى جماعة كان يعذبهم المشركون ليرتدوا عن الإسلام، فيهم بلال فوصفه الله -عز وجل- على أنه أعطى تقوى، وصدق بالحسنى، لأنه يجازى عليه، وقيل: صدق لأنه يخلف عليه لقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[سبأ: ٣٩].

وقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾؛ أي: للأمر السهل الذي لا يقدر عليه أحد إلا المؤمنون.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾؛ نزلت في رجل أكره ذكره، وهي جامعة لكل من بخل وكذب لأن الله -جل وعز- يجازيه أو يخلف عليه.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾؛ العذاب والأمر العسير.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾، قيل: إذا مات، وقيل: إذا تردى في النار.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾؛ أي: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾؛ ﴿تَلَظَّى﴾ معناه: تتوهج وتتوقد.

وهذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر لقوله: ﴿لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾، وليس كما ظنوا، هذه نار موصوفة بعينها لا يصلى هذه النار إلا الأشقى الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل فمنها قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[النساء: ١٤٥]، والله -عز وجل- كل ما

وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به، وقال -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨]، فلو كان كل من لم يشرك بالله لا يعذب، لم يكن في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فائدة، وكان يغفر ما دون ذلك.

وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾؛ أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يطلب بذلك رياء ولا سمعة، ونزلت في أبي بكر – رضي الله عنه-.

﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى﴾؛ أي: لم يفعل ذلك مجازاة ليد أسديت إليه.

﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ أي: إلا طلب ثوابه.

وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أي: سوف يدخل الجنة كما قال: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر: ٢٨-٣٠].

* * *

سورة الضحى

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ هذا قسم وجوابه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾،

والضحى: النهار، وقيل: ساعة من ساعات النهار.

وقوله: ﴿إِذَا سَجَى﴾ معناه: إذا سكن، قال الشاعر [من الرجز]:

يَا حَبَّذَا القَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجِ وَطُرُقٌ مِثْلَ مُلاءِ النُّسَّاجِ

ومعنى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾؛ أي: لم يقطع الوحي عنك ولا أبغضك.

وذلك أنه تأخر عن رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً، فقال ناس من الناس: إن محمداً قد ودعه صاحبه وقلاه، فأنزل الله -عز وجل- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

المعنى: ما قلاك، كما قال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾[الأحزاب: ٣٥]، المعنى: والذاكرات له.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾؛ وكان النبي -عليه السلام- يكفله عمه أبو طالب.

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾؛ معناه: -والله أعلم- أنه لم يكن يدري القرآن ولا الشرائع فهداه الله إلى القرآن والشرائع والإسلام.

ودليل ذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾[الشورى: ٥٢].

وقال قوم: كان على أمر قومه أربعين سنة.

وقوله: ﴿فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾؛ أي: لا تقهره على ماله.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾؛ أي: لا تنهره، إما أعطيته، وإما رددته رداً ليناً.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؛ أي: بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله وهي أجل النعم.

* * *

سورة الشرح

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ أي: شرحناه للإسلام.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؛ أي وضعنا عنك إثمك أن غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ جعل ذكر رسول الله ﷺ مقروناً بذكر توحيد الله في الأذان، وفي كثير مما يذكر الله -جل وعز-، يقول فيه: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

وقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾؛ فذكر العسر مع الألف واللام ثم ثني ذكره فصار المعنى: إن مع العسر يسرين.

وقال النبي -عليه السلام-: «لا يغلب عسر يسرين». وقيل: لو دخل العسر جحراً لدخل اليسر عليه.

وذلك أن أصحاب النبي ﷺ كانوا في ضيق شديد، فأعلمهم الله أنهم سيوسرون وأن يفتح عليهم، وأبدلهم بالعسر اليسر.

وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾؛ أي: اجعل عينك إلى الله وحده.

* * *

سورة التين

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.

قيل: «التين» دمشق، «والزيتون» بيت المقدس، وقيل: «التين» جبل عليه دمشق، «والزيتون» جبل عليه بيت المقدس، وقيل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ جبلان، وقيل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ هذا التين الذي نعرفه، وهذا الزيتون الذي نعرفه.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ جبل، وقرأ بعضهم: «وطور سيناء»، وهذا القول -والله أعلم- أشبه لقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[المؤمنون: ٢٠].

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ يعني مكة.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: في أحسن صورة.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾؛ إلى أرذل العمر، وقيل: إلى الضلال كما قال -عز وجل-: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[وَالعصر: ٢، ٣].

وهو -والله أعلم- أن الله خلق الخلق على الفطرة فمن كفر فهو المردود إلى أسفل السافلين.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: إلا هؤلاء فلم يردوا إلى أسفل سافلين.

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: لا يمن عليهم، وقيل: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع.

وجواب القسم في قوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

سورة العلق

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

جاء في التفسير أن أول آية نزلت من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

وقوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾؛ أي: الذي علم الكتابة.

وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَآهُ اسْتَغْنَى﴾؛ هذه نزلت في أبي جهل بن هشام، وكذلك ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾.

لأن أبا جهل قال: إن رأيت محمداً يصلي وطأت عنقه.

وقوله: ﴿كَلاَّ لَئِن لَمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنجرَّن ناصيته إلى النار، ويقال: سفعت بالشيء إذا أقبضت عليه وجذبته جذباً شديداً.

وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ وتأويله: بناصية صاحبها كاذب خاطىء، كما يقال: «فلان نهاره صائم وليله قائم»؛ المعنى: هو صائم في نهاره وقائم في ليله.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَه﴾؛ معناه: فليدع أهل ناديه، وهم أهل مجلسه وكانوا عشيرته أي: فليستنصر بهم.

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾؛ الزبانية: الغلاظ الشداد، واحدهم: «زبينة»، وهم ههنا الملائكة، قال الله -عز وجل-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ﴾[التحريم: ٦] وهم الزبانية.

﴿كَلاَّ﴾ أي: ليس الأمر على ما عليه أبو جهل.

﴿لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾؛ أي: وتقرب إلى ربك بالطاعة.

* * *

سورة القدر

مدنية، وقيل: الصحيح مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

الهاء ضمير القرآن ولم يجر له ذكر في أول السورة ولكنه جرى ذكره فيما قبلها.

وهو قوله: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[الدخان: ١-٢] وهي ليلة القدر.

ومعنى ليلة القدر ليلة الحكم، قال الله -تعالى-: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان: ٤] نزل القرآن كله إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل جبريل -عليه السلام- على النبي ﷺ في عشرين سنة.

وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ من ألف شهر ليس فيه ليلة القدر.

وقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ تنزل الملائكة بما يقضي الله -عز وجل- في ليلة القدر للسنة إلى أن تأتي ليلة القدر.

وقرئت: «من كل أمري» وهذه القراءة تخالف المصحف، إلا أنها قد رويت عن ابن عباس.

وقوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾؛ أي: لا أداء فيها، ولا يستطيع الشيطان أن يصنع فيها شيئاً، والروح جبريل -عليه السلام-.

وقرئت ﴿مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، و﴿مَطْلِعِ الْفَجْرِ﴾ بفتح اللام والكسر، فمن فتح فهو المصدر بمعنى الطلع، تقول: «طَلَع الفجر طَلوعاً ومَطْلعاً»، ومن قال: ﴿مَطْلِعِ﴾ فهو اسم لوقت الطلوع، وكذلك لمكان الطلوع، الاسم بكسر اللام.

* * *

سورة البينة

مدنية، وقيل: الصحيح مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾.

﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ في موضع جر عطف على ﴿أَهْلِ الكِتَابِ﴾؛ المعنى: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين.

وقوله: ﴿مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ﴾ أي: لم يكونوا منفكين أحدهما على البدل من ﴿البَيِّنَةُ﴾.

المعنى: حتى يأتيهم رسول من الله، والضرب الثاني على تفسير ﴿البَيِّنَةُ﴾.

والبينة ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ أي: مطهرة من الأدناس والباطل، قال الله -عز وجل-: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾[عبس: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾؛ أي: كتب غير ذات عوج مستقيمة تبين الحق من الباطل على الاستواء والبرهان.

قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ﴾؛ أي: ما تفرقوا في ملكهم وكفرهم بالنبي -عليه السلام- إلا من بعد أن تبينوا أنه الذي وعدوا به في التوراة والإنجيل.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره.

﴿حُنَفَاءَ﴾ على دين إبراهيم ودين محمد -عليهما السلام-.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ أي: يؤمنون مع التوحيد بالنبي ﷺ ويقيموا شرائعه.

﴿وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾؛ أي: ذلك دين الأمة القيمة بالحق، فيكون ذلك دين الملة المستقيمة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ﴾؛ القراءة «البرية» بترك الهمزة، وقد قرأ نافع: «البريئة» بالهمز، والقراء غيره مجمعون على ترك الهمز. كما أجمعوا في النبي، والأصل: «النبيء»، إلا أن الهمزة خففت لكثرة الاستعمال.

يقولون: «هذا خير البرية وشر البرية وما في البرية مثله»، واشتقاقه من: «برأ الله الخلق».

وقال بعضهم: جائز أن يكون اشتقاقها من «البري» وهو: التراب، ولو كان كذلك لما قرأوا: «البريئة» بالهمز، والكلام برأ الله الخلق يبرؤهم ولم يحك أحد: «براهم يبريهم»، فيكون اشتقاقه من: «البري» وهو التراب.

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة.

* * *

سورة الزلزلة

مدنية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

إذا حركت حركة شديدة، والقراءة: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ بكسر الزاي، ويجوز في الكلام: «زَلْزالها»، وقرئت: «زلْزالها»، وليس في الكلام «فَعلال» بفتح الفاء إلا في المضاعف نحو: «الزلزال والصلصال».

والاختيار كسر الزاي والفتح جائز.

﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾؛ أخرجت كنوزها وموتاها.

﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾؛ هذا قول الكافر لأنه لم يكن يؤمن بالبعث فقال: ﴿مَا لَهَا﴾ أي: لأي شيء زلزالها.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وأخرجت في ذلك اليوم.

ومعنى ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تخبره بما عمل عليها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: يصدرون متفرقين منهم من عمل صالحاً ومنهم من عمل شراً.

والقراءة ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ويروى: «لِيَرَوْا أعمالهم»، ولا أعلم أحد قرأ بها ولا يجوز أن يقرأ بما يجوز في العربية إذا لم يقرأ به من أخذت عنه القراءة.

ومعنى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾؛ تأويله: أن الله -جل وعز- قد أحصى أعمال العباد من خير، وكل يرى عمله، فمن أحب الله أن يغفر له غفر له، ومن أحب أن يجازيه جازاه.

وقيل: من يعمل مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، وكذلك شر يره في الدنيا -والله أعلم-

* * *

سورة العاديات

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾.

يعني بالعاديات ههنا الخيل، وهذا قسم جوابه: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.

وقوله: ﴿ضَبْحاً﴾ معناه: والعاديات تضبح ضبحاً، وضبحها صوت أجوافها إذا عدت.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾؛ إذا عدت الخيل بالليل وأصابت حوافرها الحجارة انقدح منها النيران.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾؛ يعني الخيل.

وجاء في التفسير: أنها سرية كانت لرسول الله ﷺ إلى كندة.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ النقع: الغبار، فقال: ﴿بِهِ﴾ ولم يتقدم ذكر المكان، ولكن في الكلام دليل عليه؛ المعنى: فأثرن بمكان عدوها.

﴿نَقْعاً﴾؛ أي: غباراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾؛ القراءة ﴿فَوَسَطْنَ﴾ أي: فتوسطن المكان، ولو قال: «فوسطن به جمعاً» لجازت، إلا أني لا أعلم أحد قرأ بها.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾؛ معناه: لكفور، يعنى بذلك الكافر.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾؛ معنى ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيل، أي: وإنه من أجل حب المال لبخيل، قال طرفة [من الطويل]:

أَرى المَوتَ يَعتامُ الكِرامَ وَيَصطَفي عَقيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

وقوله: ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ﴾ بعثر وبحثر بمعنى واحد؛ والمعنى: أفلا يعلم إذا بعث الموتى.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾؛ الله -عز وجل- خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى: أن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم، وليس يجازيهم إلا بعلمه أعمالهم، ومثله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[النساء: ٦٣]، فمعناه: أولئك الذين لا يترك مجازاتهم.

* * *

سورة القارعة

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ﴾.

«القارعة والواقعة والحاقة» من صفات ساعة القيامة، والقارعة: التي تقرع بالأهوال، وقد فسرنا إعراب ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ﴾[الحاقة: ١، ٢] ومثلها: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرف؛ المعنى: يكون يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، والفراش: ما تراه كصغار البق يتهافت في النار، وشبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر والفراش المبثوث لأنهم إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد الذي يموج بعضه في بعض.

وقوله: ﴿كَالْعِهْنِ المَنفُوشِ﴾؛ العهن: الصوف، واحدته: «عهنة» يقال: «عهنة وعهن»، مثل: «صوفة وصوف».

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾؛ ذات رضى.

معناه: من ثقلت موازينه بالحسنات، كما تقول لفلان: «عندي وزن ثقيل»، تأويله: له وزن في الخير ثقيل.

ومعنى ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ذات رضى يرضاها من يعيش فيها، وقال قوم: معناه مرضية، وهو يعود إلى هذا المعنى في التفسير.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ أي: فمسكنه النار.

وقيل: ﴿فَأُمُّهُ﴾ لمسكنه لأن الأصل في السكون إلى الأمهات فأبدل فيما يسكن إليه ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ الوقف «هيه»، والوصل: «هي * نار حامية» إلا أن الهاء دخلت في الوقف تبين فتحة الياء، والذي يجب اتباع المصحف فيوقف عليها ولا توصل، فيقرأ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، لأن السنة اتباع المصحف، والهاء ثابتة فيه.

* * *

سورة التكاثر
مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.

أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد عن طاعة الله.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ﴾؛ أي: حتى أدرككم الموت على تلك الحال.

وجاء في التفسير: أن حي من العرب، وهم بنو عبد مناف وبنو سهم تفاخروا وتكاثروا، ففخرت بنو عبد مناف على بنو سهم بأن عَدوا الأحياء، فقالت بنو سهم: فاذكروا الموتى.

وقوله: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾:

﴿كَلاَّ﴾ ردع وتنبيه؛ المعنى: ليس الأمر الذي ينبغي أن يكونوا عليه التكاثر، والذي ينبغي أن يكونوا عليه طاعة الله والإيمان بنبيه ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ﴾؛ المعنى: لو علمتم الشيء حق علمه، وصرفتم التفهم إليه، لارتدعتم.

ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ﴾ كما قال: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[مريم: ٧١]؛ والقراءة: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ بضم الواو غير مهموزة، فضمت الواو لسكونها وسكون النون، وقد همزها بعضهم «لترؤن»، والنحويون يكرهون همزة الواو، لأن ضمتها غير لازمة لأنها حركت لالتقاء الساكنين، ويهمزون الواو التي ضمتها لازمة نحو: «ادؤر» جمع: «دار»، فيجوز «أَدْؤُر» بالهمز و«أدور» بغير الهمز، وأنت مخير فيهما، فأما «لترؤن الجحيم»، على ما لم يسم فاعله.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: يوم القيامة، عن كل ما يتنعم به في الدنيا.

وجاء في الحديث أن النبي -عليه السلام- أكل هو وجماعة من أصحابه تمراً -وروي: «بسراً»-، وشربوا عليه ماء فقال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين**».

وجاء: أن مما لا يُسأل العبد عنه لباساً يواري سوأته وطعاماً يقيم به صلبه، ومكاناً يكنه من الحر والبرد.

سورة العصر

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

الإنسان: ههنا في معنى الناس، كما تقول: قد كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس، تريد قد كثر الدراهم.

وقوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ الخسر والخسران في في معنى واحد؛ المعنى: إن الناس الكفار والعاملين بغير طاعة الله لفي خسر.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؛ تواصوا بالإقامة على توحيد الله والإيمان بنبيه -عليه السلام-.

وتواصوا بالصبر على طاعة الله والجهاد في سبيله والقيام بشرائع نبيه.

والعصر: هو الدهر، والعصران: اليوم، والعصر: الليلة، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

ولن يَلْبَثَ العَصْرانِ يوماً ولَيْلَةً إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدرِكَا ما تَيَمَّما

﴿وَالْعَصْرِ﴾ قسم وجوابه ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

وقال بعضهم معناه: ورب العصر كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[الذاريات: ٢٣].

* * *

---

(١) هو: حميد بن ثور.

سورة الهمزة

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾ مرفوع بالابتداء، والخبر: ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، ولو كان في غير القرآن جاز النصب، ولا يجوز في القرآن لمخالفة المصحف، فمن قال: ويلاً للكافرين، فالمعنى: جعل الله له ويلاً، ومن قال: ويلٌ فهو أجود في العربية لأنه ثبت له الويل.

والويل: كلمة تقال لكل من وقع في هلكة.

والهمزة اللمزة: الذي يغتاب الناس ويَغَضُّهم قال الشاعر:

إذا لَقِيتُك عن شَحْطٍ تُكاشِرُني ... وإن تَغَيَّبْتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ

وقرئت: ﴿الَّذِي جَمَّعَ مَالاً﴾، وقرئت ﴿جَمَعَ مَالاً﴾، والتخفيف، وقرئت ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ بالتشديد، وقرئت ﴿وَعَدَدَهُ﴾ بالتخفيف، فمن قرأ ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ فمعناه: وعدده للدهور، ومن قرأ ﴿وَعَدَدَهُ﴾ فمعناه: جمع مالاً وعدداً، أي: وقوماً أعدهم نصاراً.

وقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾؛ أي: يعمل عمل من لا يظن مع يساره أنه يموت.

وقوله: ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ﴾ أي: يرمى به في النار.

والحطمة: اسم من أسماء النار، وقرئت «لينبذان» في الحطمة، ورويت عن الحسن، على أن المعنى: لينبذن هو وماله في الحطمة، وقرئت: «لتنبذن في الحطمة»، فمعناه: أنه لينبذ هو وجمعه في الحطمة. والقراءة المعروفة ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾.

قوله: ﴿نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾؛ هذه نار معدة لهؤلاء الكفار ومن كان مثلهم.

ومعنى ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾؛ يبلغ ألمها وإحراقها إلى الأفئدة.

وقوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ﴾ قرئت بالهمز وبغير همز، وقرئت «موصدة»، والعرب تقول: «أوصدته» فعلى هذا: «موصدة»، وتقول أصدته فعلى هذا: «مؤصدة» بالهمزة، ومعنى «موصدة» مطبقة، أي: العذاب مطبق عليهم.

وقوله: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ وقرئت: «في عُمُد» وهو جمع «عِمَاد وعَمَد وعُمُد»، كما قالوا: «إِهَاب وأَهَب وأُهُب». ومعناه: أنها في عمد من النار.

سورة الفيل

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ لا بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، لأن «كيف» من حروف الاستفهام.

ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم.

فأعلم الله -عز وجل- رسوله ﷺ ما كان مما سلف من الأقاصيص، وما فيه دال على توحيد الله وتعظيمه أمر كعبته، وكان من قصة أصحاب الفيل أن قوماً من العرب -كانوا ببلاد النجاشي-، وكانوا بحضرة بيت هو مصلى للنصارى وأصحاب النجاشي، فأججوا ناراً استعملوها لبعض ما احتاجوا إليه، ثم رحلوا ولم يطفئوها فحملتها الريح حتى أحرقت البيت الذي كان مصلاهم ومثابةً للنجاشي وأصحابه.

فقصد مكة مقدراً أن يحرق بيت الحرام ويستبيح أهل مكة، فلما قربوا من الحرم لم تسر بهم دوابهم نحو البيت فإذا عطفوها راجعين سارت.

فوعظهم الله بأبلغ موعظة، فأقاموا على قصد البيت وعلى أن يحرقوه، فأرسل الله ﴿عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾، فجعل ﴿كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في ذهاب وهلاك.

وكان مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره وحجران في رجليه، يقع الحجر منها على رأس الرجل فيخرج من دبره على كل حجر اسم الرجل الذي وقع عليه.

فقال الله -جل ثناؤه-: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾؛ جماعات من ههنا وجماعات من ههنا.

والمعنى: أرسل الله عليهم هذا الطير بهذه الحجارة من كل جانب.

ومعنى ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ﴾ وصف الله كل من عذبه بالحجارة أنها ﴿سِجِّيلٍ﴾، فقال في قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَنضُودٍ﴾[هود: ٨٢].

فالمعنى: وأرسل عليهم ما يرميهم بحجارة من سجيل، أي: من شديد عذابه، والعرب

إذا وصفت المكروه بسجيل كأنها تعني به الشدة ولا يوصف به غير المكروه قال الشاعر[1] [من البسيط]:

وَرَجْلَةً يَضْرِبُونَ البَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْباً تَوَاصَت بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلا

أي: ضرباً شديداً.

وأما ﴿أَبَابِيلَ﴾ قال أبو عبيدة: لا واحد لها، وقال غيره: «إبالة وأبابيل»، و«إبالة» كأنها جماعة، وقال بعضهم واحدها «أبول وأبابيل»، مثل: «عجول وعجاجيل».

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾؛ أي: جعلهم كورق الزرع الذي جز وأكل، أي: وقع فيه الآكال.

وجاء في التفسير: إن الله -تعالى- أرسل عليهم سيلاً فحملهم إلى البحر.

* * *

(١) هو: تميم بن أبي.

سورة قريش

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾.

فيه ثلاثة أوجه: «لِإلافِ قريش»، و«لِإيلاف قريش»، ووجه ثالث «لإِلْفِ قريش» وقد قرئ بالوجهين الأولين.

وقوله: ﴿إِيلَافِهِمْ * رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾؛ يجوز فيه ما جاز في ﴿لِإِيلَافِ﴾ إلا أنه قد قرئ في هذه «إِلْفِهِم» و«إِيلافهم» ويجوز: «إِلافِهم».

وهذه اللام قال النحويون فيها ثلاثة أوجه:

قيل: هي موصلة بما قبلها؛ المعنى: فجعلهم كعصف مأكول لإلف قريش، أي: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف.

وقال قوم: هذه لام التعجب، فكان المعنى: أعجبوا لإيلاف قريش.

وقال النحويون الذين ترتضي عربيتهم: هذه اللام معناها متصل بما بعد فليعبدوا؛ والمعنى: فليعبد هؤلاء رب هذا البيت لإلفهم رحلة الشتاء والصيف.

والتأويل: أن قريشاً كانوا يرحلون في الشتاء إلى الشام وفي الصيف إلى اليمن فيمتارون، وكانوا في الرحلتين آمنين والناس يتخطفون، وكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: «نحن أهل حرم الله» فلا يتعرض لهم.

فأعلم الله سبحانه أن من الدلالة على وحدانيته ما فعل بهؤلاء لأنهم ببلد لا زرع فيه وأنهم فيه آمنون، قال الله – جل ثناؤه – ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[العنكبوت: ٦٧]؛ أي: يؤمنون بالأصنام ويكفرون بالله -عز وجل- الذي أنعم عليهم بهذه النعمة، فأمرهم بعبادته وحده لأن آلفهم هاتين الرحلتين.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ﴾؛ وكانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الميتة والجيف.

﴿وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾؛ آمنهم من أن يخافوا في الحرام، ومن أن يخافوا في رحلتهم، يقال: «أَلِفت المكان آلفه إِلفاً»، و«آلفت المكان» بمعنى «ألفت، أولِفهُ إِيلافاً».

* * *

سورة الماعون

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.

وقرئت «أريت» والاختيار: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ بإثبات الهمزة الثانية.

لأن الهمزة إنما طرحت للمستقبل في: «ترى ويرى وأرى»، والأصل: «ترأى ويرأى»، فأما «رأيت» فليس يصح عن العرب فيها: «ريت»، ولكن ألف الاستفهام لما كانت في أول الكلام سهلت إلقاء الهمزة، والاختيار إثباتها.

وقوله: ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾؛ معنى يدع في اللغة: يدفع، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعاً﴾[الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعاً بعنف، فذلك الذي يدع اليتيم عن حقه.

وقوله: ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾؛ أي: لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه.

ويقرأ: ﴿فذلك الذي يَدَعُ اليتيم﴾، تأويله: فذلك الذي لا يعبأ باليتيم ويتركة مهملاً.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾؛ يعنى بهذا المنافقون، لأنهم كانوا إنما يراؤون بالصلاة إذا هم رآهم المؤمنون صلوا معهم، وإذا لم يروهم لم يصلوا.

وقيل: ﴿هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يؤخرونها عن وقتها، ومن تعمد تأخيرها عن وقتها حتى يدخل وقت غيرها فالويل له أيضاً كما قال الله -عز وجل-.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ﴾؛ أي: يمنعون ما فيه منفعة.

والماعون في الجاهلية: ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة وكل ما انتفع به من قليل أو كثير قال الأعشى [من المتقارب]:

بِأَجوَدَ مِنهُ بِما عِندَهُ　　　إِذا ما سَماؤُهُم لَم تَغِم

والماعون في الإسلام؛ قيل: هو الزكاة والطاعة، قال الراعي [من الكامل]:

قَومٌ عَلى الإِسلامِ لَمّا يَمنَعوا　　　ماعونَهُم وَيُضَيِّعوا التَّهليلا

* * *

سورة الكوثر

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

جاء في التفسير: أن الكوثر نهر في الجنة أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، حافتاه قباب الدر، مجوف.

وجاء في التفسير أيضاً أن الكوثر الإسلام والنبوة.

وقال أهل اللغة: «الكوثر» فوعل من الكثرة، ومعناه: الخير الكثير.

وجميع ما جاء في تفسير هذا قد أعطيه النبي -عليه السلام-؛ قد أعطي الإسلام والنبوة وإظهار الدين الذي أتى به على كل دين والنصر على عدوه والشفاعة، وما لا يحصى مما أعطيه، وقد أعطي من الجنة على قدر فضله على أهل الجنة.

ومعنى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: وانحر أيضاً لربك، وقيل: يعنى به صلاة الغداة في يوم النحر، أي: وانحر بعد صلاة الفجر، والأكثر فيما جاء ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ صلاة يوم الأضحى ثم النحر بعد الصلاة.

وقيل: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾؛ أي: اجعل يمينك على شمالك إذا وقفت في الصلاة وضمهما إلى صدرك.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾:

﴿شَانِئَكَ﴾ مبغضك وهذا هو العاص بن وائل، دخل النبي -عليه السلام- وهو جالس فقال: هذا الأبتر، أي: هذا الذي لا عقب له، فقال الله -تعالى-: ﴿شَانِئَكَ﴾ يا محمد هو الأبتر. فجائز أن يكون هو المنقطع العقب، وجائز أن يكون هو المنقطع عنه كل خير، والبتر استئصال القطع.

* * *

سورة الكافرون

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ﴾؛ أي: لست في حالي هذه عابداً ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم.

أي: ولا أعبد فيما أستقبل ما عبدتم، ولا أنتم فيما تستقبلون عابدون ما أعبد، فهذا نفي الحال، وأن يكون أيضاً فيما يستقبل، ينتقل عن الحال، وكذلك نفي عنهم العبادة في الحال لله -عز وجل- في الاستقبال، وهذا والله أعلم في قومه، أعلمه الله أنهم لا يؤمنون كما قال -عز وجل- في قصة نوح: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾[هود: ٣٦].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؛ قيل: هذا قبل أن يؤمر ﷺ بالقتال.

* * *

سورة النصر

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قيل: إن الفتح كما جاء في التفسير أنه نعيت إلى النبي ﷺ نفسه في هذه السورة.

فأعلم الله -عز وجل- أنه إذا جاء فتح مكة ودخل الناس في الإسلام أفواجاً فقد قرب أجله ﷺ وكان يقول ذلك أنه قد نعيت إلي نفسي في هذه السورة.

فأمره الله -عز وجل- أن يكثر التسبيح والاستغفار ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح باتباع ما أمره به.

ومعنى: ﴿أَفْوَاجاً﴾ جماعات كثيرة، أي: بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام.

* * *

سورة المسد

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ معناه: خسرت يد أبي لهب، وتب أي: خسر.

وجاء في التفسير: أن النبي ﷺ دعا عمومته وقدم إليهم صحفة فيها طعام فقالوا: أحدنا وحده يأكل الشاة وإنما قدم إلينا هذه الصحفة، فأكلوا منها جميعاً ولم ينقص منها إلا الشيء اليسير، فقالوا: ما لنا عندك إن اتبعناك قال: «لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، وإنما تتفاضلون في الدين»، فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وقوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾؛ المفسرون قالوا: ما كسب ههنا ولده. موضع «ما»؛ المعنى: ما أغنى عنه ماله وكسبه.

﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾؛ أي: وولده سيصلى ناراً ذات لهب، ويقرأ: «سَيُصْلَي ناراً».

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةُ الحَطَبِ﴾؛ ويقرأ: ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ بالنصب، وامرأته رفع من وجهين؛ أحدهما: العطف على ما في «سيصلى»؛ المعنى: سيصلى هو وامرأته، ويكون ﴿حَمَّالَةُ الحَطَبِ﴾ نعتاً لها. ومن نصب فعلى الذم؛ والمعنى: أعني حمالة الحطب. ويجوز رفع امرأته على الابتداء و«حمالة» من نعتها ويكون الخبر ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ خبر الابتداء.

وجاء في التفسير: ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ أنها أم جميل وأنها كانت تمشي بالنميمة قال الشاعر:

مِنَ البِيضِ لم تُصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لامَةٍ   وَلم تَمْشِ بين الحَيّ بالحطَبِ الجزْل

أي: بالنميمة، وقيل: إنها كانت تحمل الشوك، شوك العضاة فتطرحه في طريق النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ﴾ الجيد: العنق، وقيل في التفسير: ﴿حَبْلٌ مِن مَسَدٍ﴾؛ سلسلة طولها سبعون ذراعاً، يعني أنها تسلك في السلسلة سبعون

ذراعاً، والمسد في لغة العرب: الحبل إذا كان من ليف المقل، وقد يقال لما كان من أدبار الإبل من الحبال مسد.

قال الشاعر:

* ومسد أمِرَّ مِن أَيانق *

* * *

سورة الإخلاص

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾ بتنوين «أحد»، وقرئت بترك التنوين «أحدُ * الله الصمد» وقرئت بإسكان الدال، وحذف التنوين، أما حذف التنوين، فلالتقاء الساكنين أيضاً، إلا أنه سكون الساكنين، فمن أسكن أراد الوقف ثم ابتدأ فقال: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ وأما «هو» فإنما هو كناية عن ذكر الله -عز وجل-، المعنى: الذي سألتم تبيين نسبته «هو الله».

و﴿أَحَدٌ﴾ مرفوع على معنى: هو أحد هو الله فهو مبتدأ، ويجوز أن يكون «هو» للأمر كما تقول: هو زيد قائم، أي: الأمر زيد قائم؛ والمعنى: الأمر الله أحد.

وقوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ روي في التفسير: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ انسب لنا ربك، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾، وتفسير ﴿الصَّمَدُ﴾: السيد الذي ينتهي إليه السؤدد قال الشاعر:

لقد بكَّر النَّاعِي بخيري بني أسد ... بِعمروِ بن مَسعود وبالسَّيد الصَّمَدِ

وقيل: ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له، وقيل: ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي صمد له كل شيء والذي خلق الأشياء كلها، لا يستغني عنه شيء وكلها تدل على وحدانيته وهذه الصفات كلها يجوز أن تكون لله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ فيها أربعة أوجه في القراءة:

﴿كُفُواً﴾ بضم الكاف والفاء و«كُفْواً» بضم الكاف وسكون الفاء، و«كِفْواً» بكسر الكاف وسكون الفاء، وقد قرىء بها و«كِفَاء» بكسر الكاف.

والكَفْء: بفتح الكاف وسكون الفاء اسم، لم يقرأ بها، وفيها وجه آخر لا يجوز في القراءة، ويقال: «فلان كفء، فلان مثل كُفِيّ فلان» .

جاء في الحديث أن ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن.

* * *

سورة الفلق

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ وهو فلق الصبح وهو ضياؤه، ويقال أيضاً: «فرق الصبح» . يقال: «هو أبين من فلق الصبح» .

ومعنى ﴿الفَلَقِ﴾ الخلق، قال الله -عز وجل-: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾[الأنعام: ٩٦]، ﴿فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى﴾[الأنعام: ٩٥]، وكذلك فلق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن خلقه أكثره عن انفلاق فالق جميع المخلوقات وفلق الصبح من ذلك.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾:

﴿غَاسِقٍ﴾ يعنى به الليل، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذا دخل، وقيل: الليل غاسق -والله أعلم- لأنه أبرد من النهار، والغاسق البارد.

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ﴾:

﴿النَّفَّاثَاتِ﴾: السواحر، تنفث: تتفل بلا ريق كأنه نفخ كما يفعل كل من يرقي.

* * *

خاتمة فيها الكلام حول سورة الناس

لم يفسر الزجاج سورة الناس آخر سور المصحف، ومن باب التمام للنفع نورد بعض المعلومات عنها ليكون ذلك خير ختام فأقول:

عدد آياها ست آيات، وجاءت تسميتها «الناس» لتكريمهم بإضافة الربِّ سبحانه إليهم، وهي إضافة للتشريف والتكريم، وسورة الناس من السور المكية، وهي ثاني المعوذتين، ومحور الاستعاذة والاحتماء برب الأرباب.

وفيها الاستجارة بالله رب كل شيء من شرّ أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء.

وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين، وبدأ بالفاتحة، ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم، وذلك غاية الحسن والجمال، لأن العبد يستعين بالله ويلتجئ إليه من بداية الأمر إلى نهايته.

قوله -تعالى: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾: هو الشيطان، يقال: «وسوس في صدره ووسوس إليه»، والوسوسة: الكلام الخفي في اختلاط، والوسواس: اسم منه، وفسرت هنا بأن المعنى: من شر ذي الوسواس، أي: الشيطان، فيكون الوسواس مصدراً، وهذا الوزن يأتي في المضعف نحو: «زلزال» وهو قليل من غيره نحو: «تحنان» .

قوله: ﴿الْخَنَّاسِ﴾: صيغة مبالغة من خنس بمعنى: انقبض وتأخر، والمصدر: «خنوس»، كجلوس، والمادة كلها تدور على هذا الأصل، فالنجوم الخنس هي التي تخنس عن مجراها وتختفي بضياء الشمس، وفي الحديث: «الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خنس»، أي: انقبض وتأخر، والخنس في الأنف تأخره إلى الرأس وارتفاعه عن الشفة.

قوله: ﴿الْجِنَّةِ﴾ الجن، وسبق اللفظ كثيراً.

وذكرا الجنه والناس للاستعاذة بكل ما يوسوس بسوء سواء كان من الشياطين أو الأناسيّ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المحقق

فهرس المحتويات

الموضـــــــــوع	الصفحة
سورة سبأ	٣
معنى ﴿سَابِغَاتٍ﴾	٦
السرد في اللغة	٦
معنى: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾	٧
معنى ﴿خَمْطٍ﴾	٨
﴿كَافَّةً﴾ في اللغة	١١
معنى ﴿يَفْتَحُ﴾	١١
معنى ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾	١٤
سورة الملائكة	١٦
معنى ﴿أُوْلِي﴾	١٦
معنى ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ﴾	١٦
معنى ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾	٢١
معنى ﴿أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾	٢١
معنى ﴿لُغُوبٌ﴾	٢٢
معنى ﴿إِن يَعِدُ﴾	٢٣
معنى ﴿يُمْسِكُ﴾	٢٣
سورة يس	٢٦
معنى ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾	٢٨
معنى ﴿فَعَزَّزْنَا﴾	٢٩
معنى ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾	٣٠

معنى ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ٣٠

معنى ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ٣٢

المشحون في اللغة ٣٢

معنى: ﴿مَن كَانَ حَياًّ﴾ ٣٦

معنى ﴿مَالِكُونَ﴾ ٣٦

سورة الصافات ٣٨

أصل العجب في اللغة ٣٩

معنى ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ٤٠

معنى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ ٤٣

معنى ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ ٤٥

سورة ص ٥٠

معنى ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ٥٠

معنى ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ﴾ ٥٧

معنى ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ٥٩

معنى ﴿وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ ٦٠

معنى ﴿أُولِي الأَيْدِي﴾ ٦٠

معنى ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾ ٦١

معنى ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ ٦٢

معنى ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ٦٣

معنى: ﴿فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً﴾ ٦٣

معنى ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ ٦٣

سورة الزمر ٦٥

معنى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ٦٦

معنى ﴿يَنَابِيعَ﴾ ٦٩

معنى ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ ٦٩

معنى ﴿مُتَشَابِهاً﴾ ٧٠
معنى ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ٧٢
معنى ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ ٧٢
معنى ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ ٧٣
معنى ﴿لاَ تَقْنَطُوا﴾ ٧٣
معنى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ ٧٤
معنى ﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ ٧٤
معنى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ ٧٥
معنى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ... ﴾ ٧٧
معنى ﴿طِبْتُمْ﴾ ٧٧
معنى ﴿حَافِّينَ﴾ ٧٨
سورة غافر ٧٩
معنى: ﴿الر﴾ و﴿حم﴾ ٧٩
معنى ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلادِ﴾ ٧٩
معنى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ ٨٣
معنى ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ٨٤
الأسباب في اللغة ٨٥
معنى ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ٨٥
معنى: ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ ٨٦
سورة فصلت ٨٨
معنى ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ ٨٩
معنى ﴿اسْتَوَى﴾ ٨٩
معنى ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ ٩٠
معنى: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ٩١
معنى ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ٩٢

سورة الشورى........................ ٩٦
معنى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ١٠٢
معنى ﴿يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً﴾ ١٠٢
معنى ﴿رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ ١٠٣
سورة الزخرف........................ ١٠٥
معنى ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ١٠٥
الزخرف في اللغة ١٠٨
معنى ﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾........................ ١٠٩
معنى ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ١١١
معنى ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ ١١١
معنى ﴿مَهِينٌ﴾ ١١١
معنى ﴿آسَفُونَا﴾ ١١١
معنى ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١١٢
معنى ﴿يَخْلُفُونَ﴾ ١١٢
معنى ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ١١٢
معنى ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ١١٥
سورة الدخان........................ ١١٦
معنى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ ١١٧
معنى ﴿بِمُنشَرِينَ﴾ ١١٨
معنى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ١١٩
سورة الجاثية ١٢٠
معنى ﴿اجْتَرَحُوا﴾........................ ١٢١
معنى ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾........................ ١٢٢
سورة الاحقاف ١٢٤
معنى ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ١٢٦

سورة محمد ﷺ ١٣١
التعس في اللغة ١٣٣
معنى ﴿آنفاً﴾ ١٣٤
معنى ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ١٣٥
معنى ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ ١٣٥
معنى ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ ١٣٦
معنى ﴿لأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ ١٣٧
معنى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ١٣٨
معنى ﴿فَلاَ تَهِنُوا﴾ ١٣٨
سورة الفتح ١٤٠
معنى ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ ١٤٠
التسبيح في اللغة ١٤٢
معنى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ١٤٢
النكث في اللغة ١٤٢
معنى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ ١٤٥
معنى ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ١٤٦
معنى ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ ١٤٧
سورة الحجرات ١٤٨
معنى ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ١٤٨
معنى ﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ ١٥٠
معنى ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ١٥٣
سورة ق ١٥٤
معنى ﴿ق﴾ ١٥٤
معنى: ﴿مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ١٥٤
معنى ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ ١٥٩

معنى ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ ١٥٩
معنى ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ١٥٩
سورة الذاريات ١٦١
المحبوك في اللغة ١٦١
معنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾ ١٦٢
معنى ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ ١٦٣
معنى ﴿فَأَوْجَسَ﴾ ١٦٤
المليم في اللغة ١٦٥
معنى ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ ١٦٥
معنى ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ١٦٦
الذَّنُوب في اللغة ١٦٦
سورة الطور ١٦٨
معنى ﴿إِنَّمَا﴾ ١٦٩
معنى ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ ١٦٩
معنى ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ ١٦٩
الكأس في اللغة ١٦٩
معنى ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ ١٧١
سورة النجم ١٧٤
معنى: ﴿إِذَا هَوَى﴾ ١٧٤
معنى ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ١٧٥
معنى ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ ١٧٧
الإلمام في اللغة ١٧٨
معنى ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ ١٧٨
معنى ﴿سَوْفَ يُرَى﴾ ١٧٩
معنى ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ١٨٠

سورة القمر ١٨١
معنى ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ١٨٥
معنى ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ١٨٦
معنى ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ ١٨٧
معنى ﴿وَأَمَرُّ﴾ ١٨٩
سورة الرحمن ١٩١
معنى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ ١٩١
معنى ﴿الأَكْمَامِ﴾ ١٩٢
معنى ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ١٩٢
الفراغ في اللغة ١٩٤
معنى ﴿مَرَجَ﴾ ١٩٤
معنى ﴿الْمُنشَآتُ﴾ ١٩٥
معنى ﴿وَرْدَةً﴾ ١٩٥
﴿ خَيْرَاتٌ ﴾ وأصله في اللغة ١٩٧
معنى ﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾ ١٩٧
معنى ﴿رَفْرَفٍ﴾ و﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ ١٩٨
أصل العبقري في اللغة ١٩٨
سورة الواقعة ١٩٩
معنى ﴿رُجَّتِ﴾ ١٩٩
معنى ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ٢٠٠
معنى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ ٢٠٠
معنى ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ٢٠١
معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ٢٠١
معنى ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ ٢٠٢
معنى ﴿فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ ٢٠٤

معنى ﴿وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾ ٢٠٤
أصل ريحان في اللغة ٢٠٦
معنى ﴿فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ٢٠٦
سورة الحديد ٢٠٨
معنى ﴿يُقْرِضُ﴾ ٢٠٩
معنى: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ ٢٠٩
معنى ﴿انظُرُونَا﴾ ٢١٠
معنى ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ ٢١٠
معنى ﴿يَهِيجُ﴾ ٢١٢
معنى ﴿تَفْرَحُوا﴾ ٢١٣
﴿كِفْلَيْنِ﴾ واشتقاقه في اللغة ٢١٤
سورة المجادلة ٢١٦
معنى ﴿فَاءُوا﴾ في اللغة ٢١٧
معنى ﴿فَاءُوا﴾ ٢١٨
معنى ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ٢١٨
معنى ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ في اللغة ٢٢١
معنى ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ ٢٢١
معنى ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾ ٢٢٢
سورة الحشر ٢٢٣
معنى ﴿فَلِلَّهِ﴾ ٢٢٤
تأويل «الغفران» في اللغة ٢٢٩
سورة الممتحنة ٢٣٠
معنى ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ ٢٣٠
إختيار الزجاج: «فَعَقَبْتُم» بالتخفيف ٢٣٣
معنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ ٢٣٣

سورة الصف ٢٣٥

تأويل «الحواريون» في اللغة ٢٣٦

أصل «التحوير» في اللغة ٢٣٦

سورة الجمعة ٢٣٩

معنى ﴿بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ﴾ ٢٣٩

﴿الجُمُعَةِ﴾ باسكان الميم وجواز «الجمَعة» بفتح الميم ٢٤٠

سورة المنافقين ٢٤٢

معنى ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ٢٤٣

سورة التغابن ٢٤٤

معنى ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ٢٤٤

سورة الطلاق ٢٤٧

معنى ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ٢٤٨

معنى ﴿ وأُولاتُ الأَحْمَالِ﴾ ٢٤٩

معنى ﴿أُولِي الأَلْبَابِ﴾ ٢٥٠

معنى ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ٢٥١

سورة التحريم ٢٥٢

معنى ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ ٢٥٣

معنى ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ٢٥٣

سورة الملك ٢٥٧

معنى ﴿طِبَاقاً﴾ ٢٥٧

معنى ﴿تَمُورُ﴾ ٢٥٨

﴿تَدَّعُونَ﴾ وتأويله في اللغة ٢٥٩

معنى ﴿تَدْعُونَ﴾ ٢٥٩

سورة القلم ٢٦٠

معنى ﴿المَفْتُونُ﴾ ٢٦٠

الزنيم في اللغة ٢٦٢
معنى ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ في اللغة ٢٦٤
معنى ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ٢٦٥
سورة الحاقة ٢٦٧
معنى ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ ٢٦٨
معنى ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ ٢٦٨
معنى ﴿الجَارِيَةِ﴾ ٢٦٨
سورة المعارج ٢٧١
معنى﴿سَأَلَ سَائِلٌ بعذابٍ﴾ ٢٧١
معنى﴿فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ ٢٧٣
معنى﴿رَبِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ﴾ ٢٧٤
سورة نوح -عليه السلام- ٢٧٦
معنى ﴿أَنْبَتَكُم﴾ ٢٧٨
سورة الجن ٢٨٠
معنى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ ٢٨١
سورة المزمل ٢٨٥
معنى ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطَاءً﴾ ٢٨٦
معنى ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ ٢٨٦
معنى: ﴿مَّهِيلاً﴾ ٢٨٧
سورة المدثر ٢٨٩
الرجز في اللغة ٢٨٩
معنى ﴿فقُتِلَ﴾ ٢٩٠
سورة القيامة ٢٩٣
معنى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ٢٩٤
سورة الإنسان ٢٩٦

الكأس في اللغة ٢٩٦
معنى ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ ٢٩٨
معنى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ ٢٩٨
سلسبيل في اللغة ٢٩٨
سورة المرسلات ٣٠٢
معنى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ﴾ ٣٠٣
سورة النبأ ٣٠٥
معنى ﴿مَآباً﴾ ٣٠٦
معنى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً﴾ ٣٠٦
معنى ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ٣٠٧
معنى ﴿دِهَاقاً﴾ ٣٠٧
معنى ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ ٣٠٨
سورة النازعات ٣٠٩
معنى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ ٣١٠
معنى ﴿أَرْسَاهَا﴾ ٣١١
معنى ﴿فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ ٣١٢
معنى: ﴿إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ٣١٢
سورة عبس ٣١٣
سورة التكوير ٣١٦
معنى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ٣١٧
سورة الانفطار ٣١٩
سورة المطففين ٣٢١
معنى ﴿مَّخْتُومٍ﴾ ٣٢٣
سورة الانشقاق ٣٢٥
معنى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ٣٢٥

الكدح في اللغة ٣٢٥
معنى ﴿وَسَقَ﴾ ٣٢٦
سورة البروج ٣٢٧
سورة الطارق ٣٢٩
سورة الأعلى ٣٣١
معنى ﴿تَزَكَّى﴾ ٣٣٢
سورة الغاشية ٣٣٣
معنى ﴿إِيَابَهُمْ﴾ ٣٣٤
سورة الفجر ٣٣٥
سورة البلد ٣٣٨
معنى ﴿لُّبَداً﴾ ٣٣٩
سورة الشمس ٣٤١
معنى ﴿دَسَّاهَا﴾ ٣٤٢
سورة الليل ٣٤٤
سورة الضحى ٣٤٦
سورة الشرح ٣٤٧
سورة التين ٣٤٨
سورة العلق ٣٤٩
سورة القدر ٣٥٠
سورة البينة ٣٥١
سورة الزلزلة ٣٥٣
معنى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ ٣٥٣
سورة العاديات ٣٥٤
معنى ﴿لَشَدِيدٌ﴾ ٣٥٤
سورة القارعة ٣٥٥

سورة التكاثر ٣٥٦
سورة العصر........................ ٣٥٧
سورة الهمزة ٣٥٨
معنى ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾........................ ٣٥٨
سورة الفيل........................ ٣٥٩
معنى ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾........................ ٣٥٩
سورة قريش........................ ٣٦١
سورة الماعون ٣٦٢
سورة الكوثر ٣٦٣
سورة الكافرون........................ ٣٦٤
سورة النصر ٣٦٥
سورة المسد........................ ٣٦٦
سورة الإخلاص........................ ٣٦٨
سورة الفلق........................ ٣٦٩
خاتمة فيها الكلام حول سورة الناس........................ ٣٧٠
فهرس المحتويات........................ ٣٧١

* * *

MAᶜĀNI AL-QUR'ĀN WA'Iᶜ RĀBUH

(Grammatical analysis and The meaning of the verses of The Holy Coran)

by

Abu Isḥāq al-Zajjāj

Edited by

Aḥmad Fatḥi ᶜAbdul-Raḥmān

VOLUME IV

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon